

مذكرات

حامل الدعوة لإقامة الخلافة

المغفور له بإذن الله

يوسف أحمد السباتين

التي كتبها بنفسه قبيل وفاته

التعليق على الحاشية

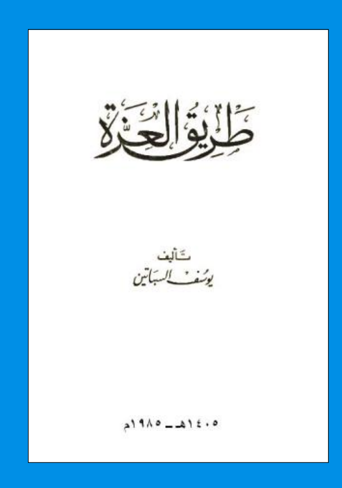
نجاح يوسف السباتين ((أم معاذ))

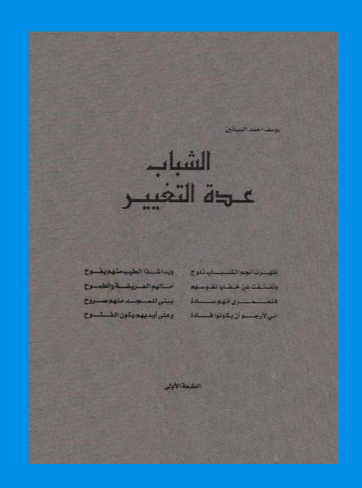
التقديم والتدقيق اللغوي

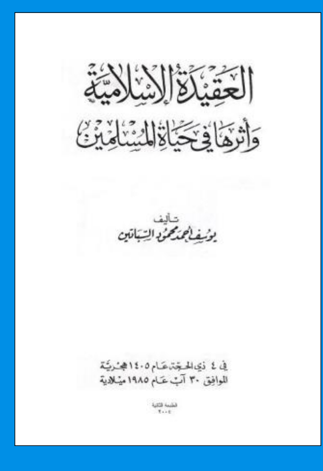
محمد أحمد النادي

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م







المحتويات

المحتويات

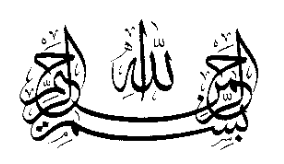
المحتويات

المحتويات

المحتويات

المحتويات

المحتويات



الإهداء

إلى رافعي راية الإسلام ....!!
إلى حاملي لواء الدعوة إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة..!!
إلى الشباب الذين أخذوا على عاتقهم مواصلة المسير الذي بدأنا.....!!
إلى السائرين على الدَّرب الذين تسلموا الرَّاية من بعدنا..............!!
إلى العاملين الذين يعملون لاستئناف الحياة الإسلامية................!!
إلى الساعين لإيجاد دولة الخلافة..!!
إلى من أمضوا العمر كله سعياً من أجل إقامتها، وماتوا ولم يروها.!!
إلى من سيكرمهم الله تعالى بالنصر قريبًا..............................!!
إلى من ستكون عزة الله على أيديهم بالتمكين لدين الإسلام...........!!
إلى من سيقطفون الثمرة في نهاية المطاف.............................!!
إلى كل المسلمين في أرجاء المعمورة..................................!!
إلى هؤلاء وأولئك أهدي هذه المذكرات ....!!

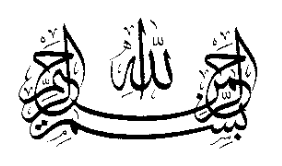
بقلم محمد أحمد النادي
على لسان يوسف السباتين

نبذة قصيرة عن حياة
حامل الدعوة
يوسف أحمد السباتين

رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته

- **مولده:** ولد عام ١٩٢٨م في قرية «الدوايمة» إحدى القرى الفلسطينية.
- **ثقافته:** أدخله أبوه مدرسةً أهليةً «الكتاتيب» تـُدرِّسُ القرآنَ ومبادئَ الحِساب فقط ، فتدرَّج في قراءة المُصحف من سُورة النَّاس إلى سُورة التَّوبة. درس الصفوف الابتدائية في «مدرسة دورا / الخليل» . ودرس الثانوية في مدرسة «عقبة جبر» حتى حصل على الشهادة الثانوية / المترك عام ١٩٥٤/ ١٩٥٥م. ثمَّ تلقى علومه الجامعية في جامعة دمشق.
- **عمله:** عمل في الأردن مُعلمًا للغتين العربية والإنجليزية في مدارس وكالة الغوث، وفي المدارس الخاصة.
- **جهاده في سبيل الله:** التحق مع المجاهدين الثوار في فلسطين «عام ١٩٤٨» وخاض مَعَهم ثلاثَ مَعارك.
- **رحلاته وتنقلاته:** تنقَّل رحمه الله ما بين الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان والسعودية.
- **حمله للدعوة:** حمل الدعوة لاستئناف الحياة الإسلامية في السنوات الأولى من تأسيسها، وبقي يعمل مع حزب التحرير لإقامة الخلافة، حتى وافاه أجله في ٢٠٠٥/٧/١٣م.
- **نشاطه في حمل الدعوة:** كان رحمه الله نشيطاً جداً في مجال الدعوة، أشرف على كثير من الحلقات، وكان عضوًا نشيطًا وفاعلاً في مجلس ولاية الأردن، وأسندت إليه مُهمَّة مُتابعة وتوجيه الخطباء في المساجد.

- **تعرضــه للملاحقــات والاعتقــال:** تعــرض رحمـــه الله للملاحقــات والاعتقالات والتعذيب على أيدي المخابرات عشرات المرات، لكن ذلك لم يفت في عضده، ولم يثنه عن حمل الدعوة، بل زاده تمسكـًا بهـا، وإصـرارًاعلى تحمـل أعبائهـا ابتغـاء رضـوان الله تعالى.
- **آثاره ومؤلفاته:** ألـَّف يوسف السباتين رحمه الله عدة كتب، وكتب العديد من الكلمات والخطب والقصائد في مختلف المناسبات، وفى شتى المواقف، ومن كتبه: طريق العزة، والعقيدة الإسلامية وأثرها في حياة المسلمين، والبيوع القديمة والمعاصرة، وحصاد ثمانين عاماً من الكفاح، والاستراتيجية الأمريكية، والشباب عُدَّةُ التغيير، وتبصرة، والصُّلحُ المُهين.



التقديـــــم

الحمد لله الذي له الحمد كله، وله الفضل كله، ولـه الخلق كلـه، وإليه يرجع الأمر كلـه، والصَّـلاة والسَّـلام علـى من بعثـه الله رحمـة للعالمين، وآلـه وصـحبه الطيبين الطـاهرين. واجعلنـا معهم، واحشـرنا في زمرتهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

وبعد: فإنه لشرفٌ عظيم لـي أن أقـدِّم للقارئ الكريم ولشباب الجيل الجديد مـن حملـة الـدعوة هذه المذكرات التـي كتبهـا الأسـتاذ «يوسـف أحمـد السـباتين» قبيـل وفاتـه بخـط يـده، ليـروا كـم كانـت تضـحيات الرَّعيـل الأول مـن حملـة الـدعوة، وكيـف كـان إيمـانهم وصبرهم، وجهدهم وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

لقد عرفت «أبا العز» عن قرب وعن كثب، فقد كان من أوائل المشرفين على تدريسي في إحدى حلقات حزب التحرير، كما كان فـي آخر أيامه يزورني في بيتي، ولا زلت أذكر ولا أنسى الرؤيا العجيبة التي رأيته فيها، تلك الرؤيا الواضحة وضوح فلق الصبح، بل وضوح الشمس في رابعة النهار:

ففـي عـام ١٩٨٣م وقبـل اعتقـالي مـن قبـل رجـال المخـابرات العامة بشـهر، رأيتنـي أقابـل أحد الشباب الجـامعيين الـذي أشـرف هـو الآخر على تدريسي في حلقة من حلقـات حـزب التحريـر، والـذي كـان قد اعتقل قبلي بعدة أشهر. لقد جاءني وأنا بين النائم واليقظان، وتقابلنـا في أرض فلاة، وهي أرض ترابية لا زرع فيها، فسلـَّم عليَّ بحـرارة، وجرى بيننا حديث يُعبِّر عن اشتياق كلٍّ منـَّا لصاحبه.

ثمَّ دعاني لأتبعه فتبعته، وهو يسير أمامي وأنا خلفه، ثمَّ انتهينا إلى طريق معبدة، يوجد قبالتها مبنى له نوافذ زجاجية، وله بابان متقابلان، أحدهما للدخول وآخر للخروج، ورأيت أناسًا كثيرين يحملون معهم الحجارة، ويرشقون بها المبنى ومن فيه. وكان الذين في المبنى يتناولون الحجارة التي تصلهم، ويرشقون بها المارَّة، فقلت لصاحبي: إلى أين تأخذني؟ فقال لي: لا عليك، اتبعني فقط.

فتبعته، وكان الشابُّ طويلاً، وبابُ المبنى كان منخفضًا، فخفض الشاب رأسه ودخل من الباب الأول للمبنى، فدخلت وراءه، وخرج من الباب الثاني، فخرجت وراءه. ثمَّ قابلنا مبنى آخر له بابان، وفيه من التراشق بالحجارة مثل ما في المبنى الأول، فقلت لصاحبي: إلى أين تأخذني؟ فقال لي: لا عليك، اتبعني فقط.

فتبعته، دخل صاحبي من الباب الأول للمبنى الثاني فدخلت وراءه، وخرج من الباب الثاني فخرجت وراءه. وبعد خروجي رأيتُ العجب العجاب، رأيتُ وكأنِّي في الجنة، حيث تبدلت الأرضُ غيرَ الأرض، والسماءُ غيرَ السماء، فبدت لي الأرض تلبس ثوبها الأخضر القشيب، وتحيط بها الأشجار اليانعة الخضراء، وبدت السماء زرقاء صافية.

نظرت أمامي، وكنت آتيًا من جهة القبلة، فرأيت صاحبي قد كبَّر، وشرع في الصلاة، ونظرت عن يمينه، فرأيت أبا العز في أبهى وأجمل صورة، رأيته يرتدي ثوبًا أبيض ناصع البياض، ويضع فوق رأسه حَطَّةً بيضاء من غير عقال، وكان قد كبَّر للصلاة، وطفق يُصلي، فقلت في نفسي: وما بالي أنا؟ لِمَ لا أصلي؟ وكبَّرت ودخلت في الصلاة.

ولما انتهيت من الصلاة، وسلَّمت عن يميني وعن شمالي، أتاني صاحبي وقال لي: إذا أردتني فإنك ستجدني هنا في هذا المكان،

وبينما أنا واقف معه، إذ هبَّت عليَّ نسمة خفيفة من ريح الصَّبا، أنعشتني فأحسست بها، ولم يكد صاحبي ينهي حديثه معي حتى سمعت صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، فأفقت من نومي وصليت الفجر، وأنا مغتبط بهذه الرؤيا التي لن أنساها ما حييت.

وبعد هذه الرؤيا بشهر تمَّ اعتقالي، فالتقيت بصاحبي، والتقيت بأبي العز، فرأيته على صورته التي ذكرتها، ولقد عشت سنة كاملة معه ومع شباب الحزب المعتقلين الذين بلغ عددهم آنذاك اثنين وأربعين شابًا، وقد رأيت أبا العز وهو يعكف على كتبه لا يكاد يفارقها، فما زال يقرأ ويكتب ويؤلف، حتى أنَّهُ ألَّف وهو في السجن كتابه المسمَّى ((طريق العزة))، وهو كتابٌ من أفضل كتبه التي طالما شدَّتني، وتأثرت بها كثيرًا.

وقد تأولت المبنى الأول في رؤياي بمبنى المخابرات العامة، والمبنى الثاني بسجن المحطة، كما تأولت التراشق بالحجارة بعداوة النظام للناس، وعداوة الناس للنظام. فلا الناس من جنس النظام، ولا النظام من جنس الناس. كما تأولت خضرة الأشجار، وصفاء السماء، ونسمة الهواء العليلة بالحياة الطيبة التي سأحياها.

وحدث ما كنت أتوقعه، فكان هذا بالفعل تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًا، فلا زلت ـ ولله الحمد ـ أعيش في خير وبركة منه سبحانه، حتى صار لديَّ إحساسٌ صادقٌ ودائم، بأنَّ كلَّ خير أصابني ـ وهو كثيرٌ لا يُحصَى ـ منذ ذلك اليوم وحتى الآن، هو بفضل الله وببركته، فقد صبَّرني وثبَّتني على حمل الدَّعوة، وأرَادَ سُبحانهُ وتعالى مُكافأتي على ذلك فلهُ الحمدُ ولهُ المِنَّة.

رَحِمَ الله أبا العز، لقد كان كريمَ الخُلُق، طيِّبَ القلبِ، حَسَنَ العِشرة، يُسامحُ كلَّ من أساء إليه حتى جَلاديهِ ومُعذبيه، فقد أخبرني أنه قد أخذ هديةً، وذهب بها إلى المُستشفى لزيارة العقيد ((ذيب

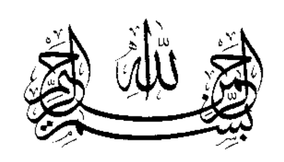
بدر)) المعاني - نسبة إلى مدينة معان - الذي كان يشرف على تعذيبه في المخابرات العامة الأردنية، والذي كان يَرقدُ على سرير المَرَض بعد أن أصيب بالفالج، وقد طلب العقيد من أبي العز أن يُسامحه، فقال له: لقد سامحتك في الدنيا والآخرة!

وقد عرفته مثالاً للرجل التَّقي النَّقي، ولا أزكِّي على الله أحدًا، وعرفته نموذجًا يقتدى به في حمله الدَّعوة، وحرصه على نشرها وتبليغها للناس، لقد ضحَّى من أجلها بكلِّ غالٍ ونفيس، وبذل في سبيلها أقصى جُهدٍ مُستطاع، ولاقى ما لاقى من التشريد والأذى والتعذيب. وظلَّ ـ رحمه الله ـ حتى نهاية حياته ثابتًا على العهد، صابرًا مُحتسبًا، يرجو رحمة الله، ويخشى عذابه، يقول كلمة الحق، ويصدع بها في المحافل لا يخشى إلاَّ الله تعالى، ولا تأخذه في الحق لومة لائم. وإنَّهُ لجهادٌ كبيرٌ لواحدٍ من خيرةِ الشباب، يَطيبُ لنا أن نُقدِّمَهُ في هذا الكتاب.

وقبل الختام نبتهل إلى الله العلي القدير أن يتغمَّد فقيدنا الغالي أبا العز بواسع رحمته، وأن يغفر له، وأن يسكنه فسيح جناته في عليين، مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

وختامًا أقدِّم هذه المذكرات آملاً أن يَعمَّ نفعُها أرجَاء المعمُورة، وسائلاً المولى تبارك وتعالى أن يجعلها علمًا يُنتفعُ به، وصدقةً جارية، يُسجَّلُ ثوابُها في صحيفة أعمال صاحبها، وأن يَجعلها في ميزان حَسناته، إنَّه سبحانه وليُّ ذلك والقادرُ عليه. والله من وراء القصد، وهو وحده الهادي إلى سواء السبيل.

محمد أحمد النادي



المقدمة

اللهُمَّ ربَّنا لكَ الحمدُ حَمداً طيِّباً طاهراً مُباركاً فيه، مِلءَ السَّماوات وَمِلءَ الأرض، وَمِلءَ مَا شِئتَ مِن شيءٍ بَعد، أهلُ الثَّناء والمَجد، أصدَقُ مَا قالَ عبد، وَكُلُّنا لكَ عبد. اللهُمَّ لك الحَمدُ كمَا يَنبغي لجَلالِ وَجهكَ، وَعَظيمِ سُلطانك. اللهُمَّ لا مَانعَ لِمَا أعطيتَ، وَلا مُعطِيَ لِمَا مَنعتَ، وَلا يَنفعُ ذا الجدِّ مِنكَ الجِدُّ.

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمين، المَلِكِ الحَقِّ المُبينِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِ الأولينَ وَالآخرينَ، سيِّدنا مُحمَّدٍ أشرفِ المُرسلين، وخاتم النَّبيِّين، المَبعُوثِ رَحمَةً لِلعَالمينَ، وعَلى آلِهِ وَأصحَابهِ الطيِّبينَ الطَّاهرينَ، وَمَن تبعَهُ وَسَارَ على نهجِهِ إلى يَومِ الدِّينِ، وَبَعد:

ما كان الإنسان ليدري ما خطت له يدُ القدر، ولم يكن ليعرف كيف سيُمضي فترة العمر، وما سيلاقيه من الشدائد والمحن، أو ما يحظى به من الهناء والرَّخاء، فقد قدَّر الله لكلِّ إنسان ما يجري له في حياته، وجعل ذلك مستوراً عنه، إذ لو علم به لعاش إمَّا يائساً حزيناً أو متفائلاً مسروراً.

ولكنَّ حكمة الله اقتضت إخفاء القدر وتغييبه ليعمل ويجدَّ ويسعى لتحقيق ما يصبو إليه وكأنَّه يعيشُ أبداً، ونهاه عن السماع لأقوال العرافين والمنجمين ليظلَّ على فطرته، فقد تسيرُ به الحياة على خلاف ما يُحبُّ ويرضى، وقد يُحقِّق بعضَ أمانيه أو كلها، وقد لا يحظى إلاَّ بالقليل منها، وقد يصبو إلى أمورٍ ثمَّ لا يلبث أن يُقلع عنها ، وقد يُوافيه حظٌ خيرٌ مِمَّا كان يأمل، وقد لا يناله من مَسعاهُ إلاَّ الشرُّ. ولقد أحسن الشاعر القائل:

وما أدري إذا يمَّمتُ أمراً أريدُ الخيرَ أيُّهما يَليني
أألخيرُ الذي أنا أبتغيهِ أمِ الشرُّ الذي هُوَ يَبتغِيني

لم يخطر ببالي في يوم من الأيَّام أن أكتب لنفسي مذكرات تنبئ بما لاقيته في حياتي . غيرَ أنـِّي لمَّا كنتُ أقصُّ بعض الحوادث التي جرت معي لأصحابي لأقوِّيَ عندهم العقيدة، أو لأقنعهم أنَّ الرِّزق بيد الله ﴿إنَّ الله يَبسُط الرزق لمن يشاءُ ويَقدر﴾ ((أي يكثره ويقلله))، فليس هو بكثرة الجُهد ولا بكثرة العلم. أو أنَّ انتهاء الأجل هو سبب الموت ﴿فإذا جَاءَ أجَلهُم لا يَستأخرُونَ سَاعةً وَلا يَستقدمُون﴾، أو أنَّ ما كُتب للإنسان لا بُدَّ لاقيه. للحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «من لم يؤمن بأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه دخل النَّار».

ألحَّ عليَّ أصحابي أن أكتب بعض ما لاقيته في حياتي من عناء ورخاء، آملين أن يستفيدوا من تجاربي لعلَّ ما لاقيته من أحداثٍ يكون فيها عبرٌ لهم أو لغيرهم، باعتباري الشخصي من جهة، وباعتباري حامل دعوة من جهة أخرى، فحياتي التي عشتها قسمان:

- قسمٌ أول أمضيته خلال ست وعشرين سنة، وأنا رجلٌ عاديٌّ، لا يَعرفُ أحدٌ عن حياتي تلك إلاَّ بعضُ أهلي، ومن كنتُ أخالطهم من أقراني.
- وقسمٌ ثانٍ كنتُ أحملُ فيه الدَّعوة الإسلامية لاستئناف الحياة الإسلامية، بعودة دولة الخلافة، وتطبيق الإسلام في حياة الأفراد والمجتمع والدولة. ونظراً لمَا مرَّ عليَّ من ظروفٍ قاسية، وحوادثَ مُؤلمة، فيها الكثير من العبر والعظات التي تقوِّي العقيدة لدى الإنسان، وتحضُّهُ على الصَّبر، فتجعله يرضى بقدر الله، ويطمئنُّ إلى أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه.

وودت أن أكتب بشيء من الاختصار عن القسم الأول من حياتي، ثمَّ بعد ذلك أكتب تجربتي في القسم الثاني، راجياً من الله تعالى أن يثيبني على جُهدي وأن لا يؤاخذني، ولا يحبط عملي لذكري بعض الأعمال أو الأقوال التي قد يمدحني من يقرأ مذكراتي على تلك الأعمال أو الأقوال.

اللهُمَّ إنِّي لا أذكرها لأفتخر بها أو لأمدَحَ عليها، فيحبط ثوابي عليها، فلا الفخرُ ولا المدحُ يفيدني، وإنَّما ثوابُك هو المَرغُوبُ والمَطلوبُ، ولو قِستُ أعمالي وقارنتها بأعمال غيري من حملة الدعوة لاحتقرتها، ولوجدت نفسي مقصِّراً! فاللهم اغفر زلاتي وتقصيري في أداء واجبي، إنَّك غفورٌ رحيم.

وليعلم من يقرأ مذكراتي هذه لو يطَّلعُ على أعمال الآلاف من حملة الدعوة لوجدوني في مؤخِّرة الرَّكب، وأقول هذا وأنا على قناعة مما أقول.

يوسف أحمد السباتين

القسم الأول

من حياتي وأنا رجلٌ عاديٌ

منذ وَعَيتُ عَلى مَا يَجري في طفولتي، وأنا أميلُ ببَراءَتي إلى اللّعب فكنتُ مليئا بالنّشاط ، وَلا يَكادُ يُباريني من أترابي أحدٌ، وَكانوا يُسَوِّدونني في أكثر الأمُور المُشتركة بيننا. إذ كنتُ أميلُ إلى عمل الخير، وأكرهُ الظلمَ، وكنتُ صَاحبَ صَاحبي.

غيرَ أنَّ حياتي مُنذ سِنِّ الخامِسَةِ مِنَ العُمُر - وَبَعدَ أولِّ حَادثةٍ - بَدَتْ لِي تنذرُ بالشرِّ، وتـُوحِي بمُستقبلٍ مَلِيءٍ بالمَآسي وَالأحْزان، وَبرَغمِ كثرَة الأحدَاثِ إلاّ أنـّني كنتُ مُغتبطاً في حَياتِي أتمَتـَّعُ بالشعُور بالسَّعَادَة، وَأرغَبُ في طلبِ العِلم، وَلكي لا أسْهبَ في وَصْفِ هذا القسم أقتصِرُ عَلى ذِكرِ الحَوَادِثِ ذاتِ الشَّأن.

كسر يدي اليسرى

ثم سقوطي عليها على فترتين متباعدتين

ذهبتُ ذاتَ يومٍ معَ أختي إلى الحقل حيث كانت تنقلُ ترابَ إحدى «المزابل» على حمَارةٍ لنا لنلقيها في أرض الحقل، ليكون بمثابة سمَادٍ للأرض، وعند عودتها من الحقل أركبتـني الحمارة، وعند وُصولي البيت نزلت عن الحمارة فسقطتُّ على يديَ اليُسرى فكسُرت من الذراع.

وتولـَّى علاجها مُجبِّرٌ أمِّيٌ «طبيب عظام» فأساءَ العلاجَ فتورَّمت، وتساقط لحمُها وبَلِيَ قسمٌ من عظمِها، وتيبَّست أصابعُها ولم أعُد أستطيعُ تحريكَ أصابعي، فأخذني أبي إلى مُجبِّرٍ مشهور في مدينة غزة، وإلى آخرَ في قرية المسميَّة، وإلى ثالثَ في يافا، وإلى رابعَ في القدس، ولم يَستطع أحدٌ أن يفيدها بعلاجٍ اذ لم يكنِ الطبُّ يومئذٍ متقدِّماً.

أدخلني أبي مدرسةً أهليةً «الكتاتيب» تـُدرِّسُ القرآنَ ومبادئَ الحِساب فقط. ولم أدر كم المُدَّة التي قضيتها في تلك المدرسة إلاَّ

أنـَّـني أذكـُرُ أنـِّي تدرجْتُ في قراءة المُصحف من سُورة النـَّاس إلى سُورة التـَّوبة.

كان والدي فرحاً نشيطاً، وكنتُ أكبرَ أولاده الذكـُور، فأخذني من المدرسة لأساعده في رعاية البقر التي كان يحرث الأرض بوساطتها، وبقيتُ على هذه الحال مُدةً طويلةً حتـَّى نسيتُ كلَّ ما تعلمتـُهُ في المدرسة.

وفي هذه الفترة من العُمُر كنتُ مُغتبطاً سعيداً أرعى البقر، وألعب معَ الرُّعاة، وذهبتُ ذاتَ يومٍ أتسابقُ مَعَ أقراني على ظهُور الحَمير، فسقطتُّ مرةً أخرى على يَدي اليُسرى ففـُكَّ مِرفقـُها وعالجناهُ، ولكنـَّهُ لم يَرجعْ كمَا كانَ، وكانَ عُمري يَومَذاك عشرَ سِنين.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية كانت الطائرات تـُلقي أوراقاً على المُواطنين، فذهبتُ يوماً أركضُ لأحصلَ على ورقةٍ مِمَّا تـُلقيه الطائراتُ فسقطتُ على يدي فتهشم مِرفقـُها مَرةً أخرى ولم نـُعالجْهُ.

كسر يدي اليمنى

حَصَلَ أنْ كنـَّا ذاتَ يومٍ نلعبُ تحتَ شجرَةِ خرُّوبٍ عظيمةٍ فسقطتُّ على يدي اليُمنى فآلمتني كثيراً، وأسرعتُ إلى البيتِ لأخبرَ أبي، فأخذني إلى صاحبِ غنمٍ خبيرٍ في تجبيرِ العظامِ فعالجَهَا بالمَاء السَّاخنِ وبالسَّمن البلدي ((سَمن الغنم)).

سقوطي عن ظهر جمل

في طريق شديدة الإنحدار، كثيرة الحجارة

كانَ الفصلُ فصلَ شتاء، وكانَ البَردُ شديداً، وتواصَلَ نـُزُولُ المَطر مُدة ثلاثةِ أيام، والجملُ محبُوسٌ في البيت، وفي اليوم الرَّابع صَفا الجَوُّ فأخرجتُ الجَمَلَ، وقصدْتُ بـهِ المَرعَى بَعدَ أنِ امتطيتُ ظهرَه.

ولمَّا وَصَلَ بدايةَ الطَّريق المنحدر، أخذ يركض ويرفع يديه ورجليه ويمُدُّ عُنُقَهُ وأخذه الطَّرَبُ. وَنحنُ نُسمِّي هذا النَّوع من السُّلوكِ «برْطعَة» فنقول: بَرطعَ الجَمَلُ. فألقاني مِن على ظهره فوقَ كومَةٍ منَ الحجَارَةِ في وَسَطِ الطريق، فكادَ أن ينقطعَ نفَسي، لكنِّي نهضتُ مُسرعاً أريدُ اللحَاقَ بهِ، فتسلَّقَ صَخرةً مَلساءَ فزلقت قوائمُهُ الأربعةُ فسقطَ على جَنبه الأيمَنِ فضحِكتُ لسُقوطِهِ الشَّبيهِ بسُقوطي، ثمَّ أمسَكتُ برَسَنِهِ، وشعَرتُ بألمٍ شديدٍ، فعُدتُ إلى البيت، ونِمتُ في الفراش إلى ما بعدَ عصرِ ذلكَ اليوم، حتَّى زالَ الألمُ، وشعرْتُ بالشِّفاء.

الغرقُ في بئر ماء

كانتِ السِّباحةُ في ذلك الحين مَطلبا شعبياً فكنَّا نقومُ بكثيرٍ من المُحَاوَلاتِ لنتعلَّمَ السِّباحَة. نزلتُ مَرةً في بئرٍ واسعةِ الباب «بيَّارة أم عذقة» كما كنَّا نُسمِّيها، وكانت مَليئةً بالماء، وربطتُّ بيدي حبلا أمسك أصحابي بطرفه لينقذوني إذا تعرَّضتُ للخطر فجُبت أطراف البئر سابحاً بنجاح، وشعرت بأنَّني قادرٌ على السِّباحَةِ بغير رَبط حبلٍ بيدي، فألقيت الحبلَ جانباً، ونزلتُ في البئر، وَمَا إن وَصَلتُ الطَّرَف البعيدَ حتى قفلتُ راجعاً فغرقتُ، ثم تحرَّكتُ فطفوتُ على وجهِ المَاء، وما إن تنفَّستُ حتى غرقتُ مرَّةً أخرى، وحاولتُ أن أطفو لأتمكَّنَ مِنَ التَّنفُّس إلاَّ أنَّني ازددتُ غرقًا، فأخذ أصحابي يَصرُخُون قائلين: أين السبَّاحُون؟

وكان لي صديق سبَّاحٌ، فأقبل مُسرعاً، وفي لحظةِ وُصُولِهِ لمَسَتْ رجلي جدارَ البئر، فركلتُهُ بقوَّةٍ فطفوتُ وأخذتُ أسبحُ فإذا بصاحبي يقفز ويُمسِكُني من وسَطي، ويَدفعُني نحوَ جانِب السَّلامَة مِنَ البئر.

الغرقُ مرَّةً أخرى في بئر واسعةٍ وعميقةٍ
((قعير المصادي)) كما كنَّا نسمِّيها

ما كُنَّا لنترك المُحاولاتِ لتعلُّم السِّباحة وتعليمها لما لهَا يَومئذٍ من شأن، ولم يكن يومئذٍ مَسابح. نزلتُ ذاتَ يَومٍ في ((قعير المصادي)) أي في بئرٍ خربة أثريَّة، بعد أنْ رَبَطتُ حبلاً بيدي، فانطلقتُ أسبحُ متوجِّهاً إلى طرفٍ بعيد، وعند العودة غرقتُ، فجرَّني أصحابي وأنا غريق، فمَا أوصَلوني عندهم إلاَّ وأنا في حالةٍ سيئة، وقد اعتراني الخوفُ فمَرضْتُ على إثر ذلك الغرق.

في هذه الفترة من العمر كنتُ أساعدُ والدي في عمل الزِّراعة والرِّعاية، فكنتُ أحرثُ وقتَ الحراثة، وكنتُ وقتَ الحَصَاد أنقل الزرع إلى البيدر ((الجرن)) كما كُنَّا نُسمِّيه. وبعد انتهاء الحصاد كنتُ أدرسُ الزَّرع، وأنقل الحُبُوب والتِّبن إلى المخزن في القرية، وبقية الأيَّام نظلُّ نرعى أبقارنا وجمالنا وغيرها.

السُّقوط مرَّةً أخرى عن ظهر الجمل

كان الوقتُ وقت حصاد الزَّرع، وكان الحقل بعيداً عشرة كيلو مترات، ذهبتُ ووالدي ليلاً لذلك الحقل، فكان والدي يَركَبُ حِماراً، وأنا أركب جملاً، وكانتِ الطَّريق ضيقةً عبرَ وادٍ تُغطِّي أرضه الحجارةُ الصغيرة، غلبني النُّعاسُ وأثناء السَّير جفلَ الجَمَلُ، فسقطتُّ فعَلِقَتْ رجلي بشبكةٍ مُثبَّتةٍ على ظهر الجمل ، فتدلَّت رأسي حتى أخذت تلامسُ الأرض المُغطاة بالحجارة، والجَمَلُ يَركُضُ بقوَّةٍ، فصار أبي في حيرةٍ من أمره، أيركضُ خلفَ الجَمَل لينقذني، وإذا فعلَ ذلكَ سَيزدادُ الجَمَلُ رَكضاً؟ أم يَمتنعُ وإذا تَركَ الجَمَلَ يَخشى أن تتقطَّعَ أوصالي؟ وَلكنْ لمْ يَطُلِ الوقتُ حتى خرَجَت رجلي مِنَ الشَّبكةِ فسقطتُّ على الأرض فنهضتُّ مُسرعاً، وأمسكتُ بمِقوَدِ الجَمَل، وتحَسَّسْتُ رأسي، فإذا هو سليمٌ، وَجَاء أبي فسألني فيما إذا كان شيءٌ يؤلمني، فطمأنتُهُ أنِّي بخيرٍ، ولا شَيءَ يُؤلمُنِّي.

ثعبان أسود ((عربيد))
يضرب عليَّ قوساً وأنا مُجرَّدٌ من الثّيِّاب

نزلتُ وصديقان لي في بئر يقال لها ((بيارة جنة)) من أجل السِّباحة، نزعنا ثيابنا، ونزلنا نسبحُ فغافَلنا راعيان كبيران، وأخذا ثيابنا وأغلقا باب البئر بحجارة وتركانا.

فلما انتهينا منَ السِّباحة وأردنا أن نرتديَ ثيابَنا، وإذا بها قد سُرقتْ، فصَعَدنا الدَّرَجَ نُريد الخُروجَ، وإذا البئرُ مَسدودةٌ بالحِجَارَة، فعالجْنا الحِجَارَةَ برفقٍ حتَّى فتحْنا بَابَ البئر، فانطلقنا عَرَايَا مَكشوفي السوأتين، إذ لم يكُن لنا لباسٌ داخلي، وَلَمْ نجرؤ أن نمشيَ في الطَّريق لوُجُودِ نسَاءٍ في طريقنا، فانطلقنا وَسَط زرعٍ طويلٍ خصبٍ، فيمَّمْتُ نحو شجَرَةٍ أريدُ أن أستظل بظلِّها ـ إذ كان البعُوضُ يلسَعُنا، وَحَرُّ الشَّمسِ يُصلي جُلودَنا ـ وإذا بثعبانٍ أسودَ يتطوَّحُ في الهَوَاء وَيَضربُ عَليَّ قوسا، ولا أدري رَأسَهُ منْ ذيلِهِ، فكلاهُمَا على الأرض، حتَّى لحِقَ ذيله برَأسِهِ، وَهُو مُتوَجِّهٌ نحوَ الشَّجَرَةِ التي كنتُ مُتَّجهاً إليها.

فتجنبْتُ الشَّجرة ، ولحقتُ بصديقيَّ، فسرْنا جميعاً إلى المغارة التي فيها بقرُنا وبقرُ الرَّاعيين اللذين أخذا ثيابَنا، فلمَّا اقتربنا منها خرجَ علينا الرَّاعيان الكبيران يحملُ كلٌّ منهما جَزرة قُرِّيص ((نبات شائك)) يُريدان ضربَنا فهرَبنا، ورَوَينا لهُمَا عَن بُعدٍ قصَّة الثعبَان، فخافا أن يُصيبَنا أذىً فيكونان مَسؤولَين عَن ذلكَ، فأعطيانا ثيابَنا.

هجومُ الدَّبابير

هو أصعبُ شيء حدث في حياتي، تعرَّضْتُ فيه للمَوت، وشُفيت من أثره بغير علاج، إذ كنتُ ذاتَ يومٍ نائماً وقتَ الضُّحَى في حَاكورة ((مزرعة صغيرة حول البيت)) لنا تحتَ شجَرَةِ زيتون،

وعلى بُعد ثلاثة أمتار من جدار ٍ حَجَريٍّ في بعض ثقوبه خلية ٌ للدَّبُور فجاء أخٌ لي أصغر منـّي، وأدخل عصَاهُ في الخليَّةِ، وَحَرَّكها وهَرَب.

وَخرَجَتِ الدَّبابيرُ تـُطاردُ مَن آثارَهَا، فلم تجِدْ غيري، فهَجَمَتْ علـيَّ وأنـا نـائم، وأخـذت تلسَـعُني بزباناتهـا، فصَـحَوتُ مـنَ النـَّوم ِ مَذعورا ً، وإذا برَأسِـي تكـادُ تكونُ مُغطـَّاة ً بالـدَّبابير الآخِـذة بلسْـعي، فهَرَبْـتُ نحْـوَ البيـت، ولكنـَّها ظلـَّتْ تلاحقـُني وتلدغـُني فـي رَأسِـي وَوَجْهـي حتـى دخلـت البيـت، فعَـادَتْ وَأنـا أصـيحُ مِـنْ حَـرِّ سُـمُومها، أستغيثُ وَلا مُغيثَ.

ولم تستطعْ أمِّي عَمَلَ شـيءٍ، حَيثُ لا يُوجَدُ آنذاك عيـادة، ولا طبيبَ ولا علاجَ، فصرْتُ أركـُضُ دَاخل «حـوش البيـت» ذاهبـا ً وآيبـا ُ مِن وقتِ الضُّحى حتى المَسَاء، فلم يُقدِّمْ أحدٌ لي أيَّة مُساعدة، ولـم أنـَمْ تلكَ الليلـة، وتورَّمَتْ رَأسـي، ودُفنـَتْ عَينـايَ تحْـتَ الـوَرَم، وَصَـارَتْ رَأسي وكأنـَّها دُمَّلٌ مُلتهب، إذا لمَسَهُ أحدُ أتخيـَّلُ رُوحِـي خرَجَتْ مِن بين جنبيَّ، وظلَّ الألمُ مُتواصلا ً وقتا ً طويلا ً، وَبقيَ الوَرَمُ مُدة شـهر ٍ كامل.

وَنتيجة ً لهذا الحَدَثِ صَـارَ لدَيَّ مَناعَـة ٌ ضِـدَّ السُّـمِّ، فقدْ حَـدَثَ أنـّي كنتُ يَومـا ً ألعبُ مَعَ أقرانـي تحتَ شـجَرَةٍ، فأحْسَسْتُ بلدغـةٍ فـي صَـدري، فوَضعْـتُ يَـدي علـى صَـدري مِـن فـوق ِ ثـوبي، وإذا بدَابـَّةٍ تسْبحُ تحْـتَ ثـوبي، وتلدغـُني مَـرَّة ً أخـرى فكمشْـتها مـن فـوق الثـوب فلـدغتني مَـرَّة ً ثالثـة ً، فأخرجتهـا فـإذا هـي عقـرب فقتـلتها، ولـم أتـألم وأقراني من حولي يتعجبون.

وبعدَ هذا بما لا يقلُّ عن عشر سَنواتٍ، وكـانَ ذلـكَ عـامَ تسـعةٍ وأربعين وتسعمائةٍ وألفٍ ميلادية، إذ كنتُ مُسافرا ً من بلـدة دُورا فـي الخليل إلى عَمَّانَ، وقد عرَّجْتُ فـي طريقـي إلـى مُخيم عَين ِالسُّـلطان في أريحا، وَنزَلتُ عندَ ابن ِعَمٍّ لي.

وعندَما قدَّمَ لِيَ العشاءَ في خيمَةٍ صغيرةٍ، وإذا بعقربٍ أصفرِ اللون، كبيرِ الحَجْمِ، يلدغني في إبهام رجليَ اليُمنى، فقلت على الفور: عقرب، فالتفتَ ابنُ عمِّي، فرَأى العقربَ فضربه وقتله، وقال لي: قمْ إلى الطَّبيبَ فقلت له: لا بأس عليك، دعنا نتناول عشاءنا، فقال: قمْ هَذا العقرب قاتِل فأبيتُ وَواصَلتُ تناوُلَ الطَّعامِ، وَهُوَ ينظرُ إليَّ في حَالةٍ منَ الاضطِّراب، فأكملتُ عشائي دُونَ أنْ أشعُرَ بألم.

السُّقوط عن الجمل مرَّةً ثالثةً

كان لنا جملٌ حديثُ السنِّ ((قعُود)) يُحبُّ مُلاعبة البقر، فإذا رآها اندفع نحوها بسرعة، يرفعُ يَديه مَعاً، ويَخبطهما في الأرض، فإذا رأته الحيوانات من بقرٍ وغنمٍ وحمير هربت، وهُو يُلاحقها دُونَ أن يؤذيَها.

وكانَ ذاتَ يَومٍ يَرعى في أرضٍ بَطحَاء قرقرٍ، فذهبْتُ لأحضرهُ إلى البيتِ، وأمسكتهُ وأردْتُ أنْ أركبَهُ، فوَضَعْتُ إحدى رجليَّ على عُنقهِ، وأمسكتُ سَنامَهُ بيديَّ مُحاولاً الصُّعودَ إلى ظهره، فاندفعَ مُسرعاً نحوَ الحَيَوانات الكثيرة التي كانت ترعَى حوله، فقذفني بعيداً عنهُ حوالي مترين فارتطمتُ بالأرض، فانقطع نفَسي وتخيَّلت أضلاعي تكسَّرَّت، فلبثتُ قليلاً مُلقىً على الأرض حتَّى عَادَ لي نفَسي وَسَكَنَ ألمي، فقمْتُ وَلحقتُ بهِ وأمسكتُ برَسَنِهِ ((مِقوَدِه)) وَعُدْتُ به إلى البيت.

العودة الى المدرسة

فتحَ جَارٌ لنا في بُستانِهِ مَدرسةً ((كتاتيب)) يُعَلِّمُ فيها القرآن، فدخلتُ الكتاتيب، واستأنفتُ الدِّراسَة مُدَّة شهرين، حتى توُفِّي المُعلم، فانتقلت إلى مَدرستي الأولى ((الكتاتيب)) وَدَاومْت فيها مُدَّة ثلاثة شهور، فقال لي المُعلِّم: لقد عَرَفتَ كلَّ مَا عِندي مِنَ العِلم، إذ تقرأ القرآن كمَا أقرأ، وتحُلَّ مَسَائل الحِسَاب مِثلي.

فانتقلتُ إلى مدرسة المَعَارف «وهي مدرسة حكومية»، أدخلوني الصَّفَّ الثَّالث، فداومت شهراً، وغادَرْتُ المَدْرسَةَ لأسَاعِدَ وَالدِي في أعمال الزراعة، وعُدتُ للمدرَسَةِ السنةَ التاليةَ، وَدَخلتُ الصَّفَّ الرَّابع، وَداومْتُ شهرين فقط، ثمَّ غَادَرْتُ وَبقيتُ مُدَّةً مَعَ وَالدي، ثمَّ جاءني ابنُ جارٍ لنا اسمُهُ غازي سَلمان هديب ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وأخبرني أنَّ المَدرسَة فتحتْ صفاً خامساً، وَيتعلَّمُ الطلابُ فيها اللغة الإنجليزية، فاستأذنتُ من والدي بالعَودة إلى المدرسَة، وداومْتُ فيها الفصل الأول، وَعُدتُ لِمُساعَدَةِ والدي.

وعندَ بداية العَام الدِّراسيِّ الجديد ١٩٤٥-١٩٤٦ دَخلتُ الصَّفَّ السَّادس، وداوَمْتُ طوالَ السَّنةِ الدِّراسيَّة عَدا الشَّهر الأخير، إلاَّ أنَّني كنتُ أحضُرُ يومَ الامتحانَ لأقدِّمَ الوَاجبَ، وَلم يَكُن في المَدرَسَةِ إلاَّ الصَّفَّ السَّادس.

وفي العام ١٩٤٦-١٩٤٧ انتقلتُ إلى «مدرسة دورا الخليل» وكان فيها قسمٌ داخليٌ، فدخلتُها وصِرْتُ أبيت فيها، وَهيَ بعيدةٌ عن قريتي الدَّوايمَة حوالي تسعة كيلومترات، ولم أكن أغادرُ المَدرَسَة إلاَّ عصرَ الخميس، وأعود عصرَ الجُمُعة أو صَباح السَّبت.

السُّقوط في بئر

كنتُ ذاتَ ليلةٍ أتجاذبُ الحديثَ مَعَ أصحابي الرُّعاة، فذكروا لي أنَّ رَفَّاً منَ الحَمَام البَرِّيِّ يَبيتُ في بئرٍ في «خِرْبةِ دهنة» وهي خربةٌ أثريَّةٌ قديمة، فتواعدنا أن نذهَبَ إلى البئر ليلة الجُمُعَةِ القادمَة، أي عندَما أعودُ مِنَ المَدرَسَةِ إلى القرية.

فلمَّا عُدتُ أخذنا مَعَنا بَطانيَّاتٍ وَمَلاحِفَ لنغطِّي بَابَ البئر، ثمَّ تقدمتهُم إلى البئر، وَرَسَمْتُ أبوابَهُ على وَرَقةٍ، وعُدتُ إليهم ليصنعُوا الغِطاءَ وفقَ الرَّسمَاتِ.

وبُعيدَ العِشاء تقدَّمنا إلى البئر، ونحنُ يَومئذٍ ستةُ أشخاص، وَكلٌّ مِنَّا يُمسك بطرَفٍ من الغطاء حتَّى وَصَلنا بَابَ البئر، وألقينا

عليهِ الغطاء، وَوَضعنا على أطرافِ الغِطاء حِجَارَةً كبيرةً لا يقلُّ وزنُ الحَجَر منها عن خمسة عشر كيلو غراماً، وبقيَتْ فوَّهةٌ صغيرةٌ، أردت وأحَدَ الشَّبَاب أن نُغطِّيَهَا، فدُستُ على الغِطاء الكبير خطأً فهَوَى بي في البئر، وَسَقطَتْ خلفي الحجَارَة التي وضعناها على أطراف الغطاء.

وكان في قعر البئر حَجَرَان كبيرَان، فارتضَّت إليتي اليُسرَى بطرف أحد الحَجَرَين، فانقشط جلدي، وسقط أحدُ الحِجَارةِ المُنحَدرَةِ خلفي فارتطمَ بالحَجَر الثاني وَتكسَّر، وَلَمْ يُصبني، ولو أصابني لفجعَني بنفسي، فنهضْتُ وَاقفاً، ولم أشعُر بَعدُ بالألم، وإذا بابن عمٍّ لي يَحملُ سِراجاً، وينزلُ مُسرعاً على دَرَجِ البئر ليستطلِعَ ما حدث لي.

فلمَّا رآني واقفاً ناداني فصَعدتُ الدَّرَجَ، وَمَا كِدْتُ أن أصل بَابَ البئر إلاَّ وقدْ توقَّفَ نَفَسي، وَكدتُ أن أغيَّبَ، فارتميتُ على الأرض، وبقيتُ فترةً قصيرةً حتى عاد لي صَوَابي، وَطارَ الحَمَامُ مِن البئر، لأن الغِطاءَ كان سَاقطاً، فأمسكنا حمَامَتين وقفلنا راجعين، وقد وَصَّى بعضُنا بعضاً أن لا نخبرَ أحداً بمَا جَرَى خوفاً من أهلنا.

وَعُدْتُ في اليوم التالي لِلمَدرَسَةِ وأنا أجابرُ عَلى نفسِي وأخفي ما أصابني، حتى شفي جُرحِي من غيرِ علاج.

انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين

في هذا العام بدأت المناوشات بين العرب واليهود وكان الأستاذ ((عثمان قطيط)) يشرف علينا ليلاً في المدرسة وكان يحمل بندقيةً إنجليزية ويدعونا أحياناً لنسمع الأخبار حيثُ لا يُوجدُ إلاَّ مذياعٌ ((راديو)) واحدٌ في غرفة الادارة، وعند نهاية الفصل غادرت المدرسة، وانتقلت الى ((مدرسة بيت جبرين)) لنفس الصَّف السَّابع، فكنتُ أذهب مع أبناء صفِّي الذينَ كانوا مَعي في الصَّف السَّادس في

العام المنصرم، نغدُو صباحاً، ونرُوحُ مساءً كلَّ يوم، ثمَّ أخذت الأحداثُ تزدادُ ضراوةً، فلم نُكمل العَام الدِّراسي.

التحاقي مع المجاهدين

وَصَلتْ طلائعُ القوَّاتِ المصريَّة والسُّودانيَّة الى فِلسطين وامتدَّت من حُدودِ مِصرَ إلى بيت لحم المجاورة للقدس. وأرسلت بعثات إلى قرى فلسطين لتدريب المجاهدين على استعمال السِّلاح. وحَضَر إلى قريتنا فريقٌ منهم، وبادر الشباب حملة السِّلاح إلى مدرسة القرية حيث مكان التَّدريب، ولكنَّ المُدرِّبينَ مَنعُوني من التَّدريب بسبب يَدي اليُسرى إلا أنَّني أصررت على الانخراط في الصَّف، فسمحوا لي، ولكنِّي لم أكتفِ بتدريبهم، فكنتُ أهتمُّ كثيراً بإصابةِ الهَدَف حتى تحقَّق ذلك لي. وفي ذلك العام «عام ١٩٤٨» خُضتُ مَعَ المُجاهدين ثلاثَ مَعارك:

إحداها: في «خربة العجلين» غربي قرية «القبيبة» حيث احترق لليهودِ عَدَدٌ من السَّيارات المُحمَّلة بالأمتعة تريدُ اجتياز خط «الخليل- بيت جبرين - الفالوجي» إلى منطقة النقب جنوب فلسطين.

وعندَ المساء دَاهَمَنا الأعداءُ بأسلحةٍ رَشاشةٍ، لم تقوَ بنادقُنا على مواجهتها، وفهمتُ بعدَ سِنين أنَّ العدوَّ الذي كانَ يُواجهُنا هُمْ عَرَبٌ من أجل تثبيت اليهود في فلسطين.

وثانيها: في «قرية المقحز» غربي الدوايمة، تبعد عنها اثني عشر كيلو متراً، أخرجنا اليهود منها وغنمنا ما بقي خلفهم من الأمتعة والسلاح.

وثالثها: في «قرية المقحز» أيضاً حيثُ حَصَلَ فيها قتلٌ أكثر من الأولى، وأذكر أنَّني قتلتُ يَهُوديًّاً اقتناصاً.

نجاتي من القتل

فـي المعركـة الثانيـة مـن معـارك ((قريـة المقحـز)) تسللتُ لـيلاً واستطعتُ اقتناصَ وَاحدٍ منهم، وَلمَّا حَاولتُ الانسحَابَ كشفني اليهودُ فـي منطقـة مكشـوفة، فسلــَّطوا علـيِّ رشـَّاشاتهم، فألقيتُ بنفسِـي عَلـى الأرض وأخذت أتدحرج، والرَّصاصُ مِنـهُ مَـا يُقصِّرُ عنـِّي، وَمِنـهُ مَـا يتعدَّاني، وكانـتِ المسـافةُ لا تقلُّ عـن خمسـينَ مِتـراً، حتـى اختفيـتُ عنهُم.

وَعنـدَما هاجَمْنــاهُم وقــتَ العصْــر، وَدَخلنـا خنــادقهُم، فـرُّوا هاربينَ وكانَ لهُم خطٌّ دِفاعٍ مَدفعي، فأخذ هذا يُمطرُنا بقذائفِ الهاون والمُورتر، وعنـدَ سَمَاعِي بـوَحِيح قذيفـةٍ، ألقيتُ بنفسـي علـى الأرض فسَقــَطتْ عَلــى بُعـدِ متــرين ِ مِنــِّي، وَدَمَلتنِــي بغــُبارها وَدُخانهــا، وأصـابتني شـظيةٌ مـن شـظايَاهَا فِـي عَضُـدِ يَـدي اليُسـرى، وَلا زَالـتْ حتـَّى كتابةِ هَذهِ الحُرُوف.

عهد الشتات والفراق والشقاء

بَعدَ مَعاركِ ((قرية المقحز)) تقدَّمَ العدُوُّ منَ الشمال إلى الجنـُوب مـنَ ((الرَّملـةِ)) إلـى ((النـَّعاني)) إلـى ((وادي الصـرَّار)) إلـى ((قـزازة)) إلـى ((مغلـــِّس)) إلـــى ((عَجُّـور)) فـــ ((الـــدِّير)) فـــ ((رَعنـــةَ)) فـــ ((ذِكـــرين)) فـ ((بَيت جبرين)) فـ ((الدَّوايمة))…. وَإلـى ((بئـر السَّـبع)) فمَـنْ يُصـدِّقُ أنَّ العدوَّ الـذي تقدَّم كـلَّ هـذا التقـدُّم هُـو مِـنَ اليهُـودِ الـذينَ لـمْ يَسـتطيعوا الثـَّبات في المقحز؟!

أحسَّ أهلُ الدَّوايمةِ بالخطر، فبدأوا بنقل أوعيتهم ودوابِّهم إلـى القـُرى الصـَّغيرةِ المُجـاورةِ، فكنـتُ أنقـُـلُ حُبُوبَنـا وَعَفشَ بَيتنـا، إلـى ((قرية المورق)) مَكثتُ أسبوعاً على هذا الحال، وَفي يَوم ِ الجُمُعةِ من الشهر العاشِر لعام ١٩٤٨ وَبَعدَ خرُوجنا منْ صَلاةِ الجُمُعةِ دَهَمَ العَدوُّ القرية، وَخرَجَ أهل القرية بقضِّهم وقضيضهم كأنـَّهُم جَرَادٌ مُنتشر.

هذا يحمل أولاده، وآخرُ يَحملُ عَلى ظهرهِ مَتاعَهُ، وغيرُهُ يَتوكأ عَلى عَصَاهُ، وغيرُهُ يَسُوقُ دَوَابَّهُ، وَغيرُهُ يَحملُ طعَامَهُ عَلى رَأسِهِ، لمْ يُمهلْهُ العدُوُّ حتى يأكلَهُ، وَالرَّصَاصُ يَتناثَرُ هُنا وَهُناك وَالمُجنزَرَاتُ والاسكاوتاتُ الملطخةٌ بالطِّين لإخفاء اسم الدولة العربية المَكتُوب على جانبي حَامِلَةِ الجُنُودِ تطلقُ رَشَّاشاتها لقتل النَّاس. ((انظر كتاب حصاد ثمانين عامًا من الكفاح)).

وَحَصَلتْ مَذبحةٌ كبيرةٌ أكبر من مَذبحةِ ((دير ياسين)) ولكنَّها أخفيَتْ لِئلا يَنكشفَ فاعِلُها، ففي ((طور الزاغ)) استَشهَدَ سبعة وعشرون إنساناً بَينَ ذكرٍ وَأنثى، وَفي بئر ((جُورَةِ الصَّحرَةِ)) ألقيَ تسعةٌ وتسعون شخصاً أحياءً، وأمَّا مَن قُتِلُوا في البُيُوتِ وَالطرُقاتِ فبلغُوا المِئات. حتى الذين لجأوا إلى ((مسجد قرية الزاوية)) قتلهم اليهود.

خرَجْتُ وَوَالِدي مِنَ البيتِ، وَمَعَنا أمتِعَتُنا وجملنا، فلمْ نتمكَّنْ من تحميله، وفي الطَّريق التقينا بإخوتي يَسُوقُونَ أبقارنا نحو البيت، فأعطيناهم الجَملَ، وَسُقتُ وأبي البَقرَ، وَهَرَبنا بهَا، وَلمْ نكَدْ نَصِلُ ((المورق)) وهي القرية التي كنَّا ننقلُ أثاثنا إليها. وإذا بأهلها قد غادروها، فأمرني والدي بأن أبدأ بنقل حبوبنا وأمتعتنا من جديد إلى ((قرية دورا)) عَبرَ وَادٍ كثيرِ الوُعُورَة وذي عَقبَةٍ كؤود.

فأخذتُ أنقلُ ليلَ نهَار لِمُدَّةِ سَبعَةِ أيَّام، حَتى حَفيَتْ قدَمَايَ، وَلمْ تَذقْ عَينايَ طعمَ النَّومِ إلاَّ سَاعَةَ وُصُولِ وَالدِي، فأنامَ بقدر الوَقتِ الذي يَستغرقهُم لتحميلِ الجَمَلِ.

وَلمْ يَحصُل لِي في حَيَاتِي أتعبَ مِن تلكَ الفترَةِ، فكنتُ أمشي خلفَ الجَمَل وَأنا نائمٌ، وَكنتُ أرَى غيري يَحمِلُ أمتعتهُ عَلى ظهرهِ، وَيَحملُ أطفالهُ وَقد أعياهُم طولُ المَسير، وَنَهَشهُمُ الجُوعُ، وَقتلهُمُ الظمَأ، وَلمْ يَجدُوا مَلجأً يَأوُونَ إليه، وَبَعضُهُم يَنامُ في الطُّرُقاتِ،

وَمـنهُم مَـن لا فـرَاشَ لـهُ، وَلا غِطـاءَ وَلا زَادَ وَلا نـقُود، يَهـيمُ عَلـى وَجهِهِ، وَمنهُمْ مَن يَبحَثُ عـَن وَلـَدِهِ أو ابنـَتِهِ أو زَوجَتِهِ، وَمِنهُمْ مَنْ فقـَدَ أبَاهُ! مَناظِرُ تـُدمِي القـُلوبَ، وَتـُدمِعُ العيون!

وبعد أيَّام التقينا بأخي الذي أخذ البقر، وَلم يَدرِ أينَ يَأوي، وَلا طعَـامَ وَلا غِطـاءَ وَلا مَـاء مَعَـهُ، وَسَكنـَّا وَمَعَنـا أربـعُ أسَـرٍ فـي غـُرفةٍ وَاحِدَةٍ، فلم أطِقِ العَيشَ فصِرْتُ أحمِلُ سِلاحِي وَأتسلـَّلُ إلـى العدُوِّ، وَكنتُ قد طلبتُ مِن أبي أن أغادِرَ إلى الأردنِّ، فكانَ يُخـَوِّفـُنِي وَيَقولُ: إنـَّهُم يُجَرِّبُونَ بنـادقهم فـي الشـَّخصِ فلمَّـا رَآنـي أتسلـَّـل إلـى العَـدُوِّ خافَ عَليَّ، فسَمَحَ لِي بالذهَاب إلى الأردن.

وعندما خطرت ببالي تلك الذكريات هاج شوقي، فنظمت هذه القصيدة:

(٢٠٠٣م)

هـــاج شوقي

هـاج شوقـي ذكريـات أيامـي الخوالـي
لمرابعـــي بيـــن هاتيـــك الجبـــالِ
كنت ألهـو مـع الرعـاة فـي أطـرافهـا
فــي ســرور وحبــور خالــي البــالِ
كنـت أحكــي لأترابــي مــا يحلــو لهـم
مـن قصـص للزيـر فـي سـاح القتـالِ
نعيــش فـــي وهـــم الخيـــال نهارنــــا
ونبيــت نحلـــم بالأيـــام التوالـــي
نغدو نسـوق إلـى المـراعـي حلالنـا
ترعى الربيـع فـي سفـوح تلـك التـلالِ
نقضـــي أوقاتنــا فــي لهـو وفــي لعـبٍ
مــا أحيلـــى هاتيــك الأيـام والليالـي

ترعـــى أبقارنـــا الخزامـــا نديـــةً
ونأكـل الجلثـون [١] مـن تلـك التـــلالِ
يهبُّ علينـا نسيم جنـة [٢] ريـح عنبـرٍ
مـن أقحـوانٍ ما لـه فيـها مـن مثـالِ
إذا أمســى المســا أقــصُّ لإخوتــي
قصصـًا حلـوة لأبـــي زيـــد الهلالـــي
سل خرانة [٣] عـن أوقــات قضينـا بهــا
نصطـاد حمامهـا فـي سـواد الليالـي
وخربة المصـادي [٤] أكـرم بهـا خربـةً
القريص [٥] في أطرافها طـول الرجـالِ
وقطعة الشيخ [٦] ما أحيلـى خـروبهـا
نعـــدُّ ثمـــاره طعامـــًا للحـــلالِ
جبـــال زيتـــة [٧] أجمـــل بأحراشهـــا
عــذق [٨] وخـــروب بهاتيـك الجبـالِ
كم مـن شنــارة [٩] عثرنـا علـى عشهـا
أو مسكناها في جحور تلك الموالـي [١٠]
وكـم مـن غـــزالٍ طاردتــه كلابنـــا
بوادي البطـم فـي سفـوح تـلك العـوالـي
وخربة اللحم [١١] والطبلة [١٢] من حولـهـا
ما أحيلـى الربيـــع فـي هاتيـك التـلالِ
تمـرُّ أوقـات الحـروب لا نـدري بهـا
ما زلنـا صغـارًا ما بلغنـا سـنَّ الرجـالِ
وما بلغنـا العـشـريـن عامـًا حتـى بـدا
نذيـر الشــر يخبرنــا عــن ســوء حـالِ

بـــدأ الإنجـليـــز ينـفـــــذ وعـــــده
وعـــد بلفـور ينـــذر قومـــي بالوبـــالِ
وانتهـى الانتـداب البريطـانـــي عنـدها
حمانـــا الســـلاح وانطلقنـــا للقتـــالِ
إلى المقحـز حيـث اليهـــود تمركـــزت
هـــرع الشيـــب والشبـــاب إلى القتـــالِ
ثلاث مـــرات نخرجهـــم مـــن أرضهـــا
وفـــي الليـــل تتركهـا جيـــوش الضـــلالِ

---

(١) الجلثون: نوع من الأعشاب الصغيرة تؤكل قرونها.
(٢) جنة: اسم خربة أثرية.
(٣) خرانة: خربة أثرية.
(٤) المصادي: خربة أثرية.
(٥) القريص: عشب ذو شوك دقيق.
(٦) قطعة الشيخ: غابة مليئة بأشجار الخروب.
(٧) زيتة: خربة أثرية.
(٨) عذق: نوع من الأشجار في جنوب فلسطين نادر الوجود في بقية البلدان.
(٩) شنارة: حجلة.
(١٠) الموالي: جمع مالية وهي السلاسل، جدران من الحجارة.
(١١) خربة اللحم: خربة أثرية.
(١٢) الطبلة: مجموعة جبال عالية.

نزولي عند من كان أبي يخوفني منهم

حَمَلتُ بَعضَ كُتُبٍ كُنتُ قد أحضرتُها من الأرض المُحتلـَّةِ أثنـاءَ تسلـُّـلي إليهـا، وَحَصـلتُ عَلـى هَويَّـةٍ شخصـيَّةٍ، وَغـادَرْتُ ((بلدة دورا)) متوجهاً إلـى شرق الأردن، وَصَلتُ عَمَّانَ بَعدَ العَصرِ. وَلـمْ أكـُنْ أعـرفُ شيئاً فـي الأردن، خرَجْتُ مِـنْ عَمَّـانَ، وَمَـرَرْتُ بـ ((خربـة القويسمة)) ليسَ فيهَا إلاَّ بَعضُ المَغـاور الأثريَّـة، يَسكنـُهَا عبيـد، ثـمَّ جئـتُ ((بَلـدة أبـو علنـدة)) وَلـمْ أعـرِّجْ عَليهـا، فجئـتُ ((بلدة الرجيـب)) ولـيسَ فيهـا إلاَّ بَيتٌ وَاحدٌ، يَسكُنـُها حَـرَّاثٌ، فنِمْـتُ ليلتي عِندَهُ.

وَفي الصَّباح توجَّهتُ إلى ((بلدة سَحَاب)) وَلمْ أتوقـَّفْ فِيهَا، بـلْ توَجَّهتُ إلى الجَنـُوبِ، وَعندَ الظهرِ جئتُ ((قريَّة سالم)) وَلـمْ أرَ بهَـا إلاَّ بَيتـاً مُحاطـاً بسُورٍ لـهُ بَوَّابـةٌ وَاسِعَةٌ، فدَخلتُ البَيتَ بَعدَ استئذانِ أهلِـهِ، وإذ بالبيـتِ رَجُلٌ كبيـرُ السِّنِّ وَزوجَتـُهُ الكبيـرةُ أيضـاً، واسـم الرَّجُل ((امكازي الجريبيع)) وَقدَّمَا لي الغداءَ، ثمَّ غـادرْتُ مُتوجهاً إلـى الجنوب، وَعِندَ المَسَاء وَصَلتُ ((قرية اللـبَّن)) فأويتُ إلـى أسـرَةٍ فقيـرةٍ تسكنُ مَغارَةً فسألوني: مِنْ أينَ، وَعَمَّ تبحَثُ؟

فلمَّا أخبرتـُهُمْ بأنـِّي أريدُ أن أفتحَ مَدرسـةً أعلـِّمُ فيهَا الأطفـالَ الصِّـغارَ، فبَعَثـُوا بـالخبَرِ إلـى رَجُلٍ وَجيـهٍ فـي القريـةِ اسمُهُ ((متعب العـفاش)) فاستدعَانِي في الصَّباح وَطلبَ مِنـِّي أن أعلـِّمَ وَلدَيـهِ: ((طايل ونـايف)) ولا مـانعَ لديـه حسـب قولـه مـن أنْ أعلـِّمَ أولادَ الفلاحـين، وَبالفِعلِ بَدأتُ أعلـِّمُ وَلدَيهِ، وَحَضَرَ عَدَدٌ مِنْ أولادِ الفلاحينَ، وَاتـَّخذنا المَغارَةَ مَدرسَةً للطلاب.

كـانَ ((طايـل)) يَعتـدِي عَلـى أولادِ الفلاحـين، فزَجَرتـُهُ، فلـمْ يَنزجـرْ، فضرَبتـُهُ فسَحَبَ خِنجَراً كـان فـي وسطـهِ، وَهَـدَّدَني بـهِ، فطرَدتـُهُ مِنَ المَدرَسَةِ، فجَاءَتْ بهِ أمُّهُ وَطلبَتْ مِنـِّي أنْ أبقيَهُ حَتى يَأتِيَ وَالـدُهُ، وَبَعـدَ انصـرَافِ الطـلابِ مِـنَ المَدرَسَـةِ ذهَـبَ ((طايـل)) إلـى

المَلعَبِ ليلعَبَ بالكـُرَةِ، وَلمَّا جَاءَ وَالدُهُ وَلمْ يَجدْنِي فِي البَيتِ، سَألَ عَنـِّي، فأخبرَهُ رَجُلٌ أخرَسٌ بأن «طايل» هَدَّدَنِي بالخِنجَر.

فتنـاولَ بُندقيتـَهُ، وَذهَبَ يَبحَثُ عَنْ وَلـدِهِ، فوَجَدَهُ يَلعَبُ فـي المَلعَبِ، فأخذ الخنجَرَ وَحَطـَّمَهُ بالحِجَارَة، فهَرَبَ «طايل» فأتبعَهُ بطلقةٍ أصابتهُ فوقَ رُكبتهِ، وَلكنـَّهُ كانَ يَظنُّ أنَّ وَلدَهُ قد مَاتَ، فغادَرَ القريَةَ وَدَخلَ عَلى المَلكِ عَبدِ اللهِ بن الحُسين قائلاً لهُ: احمِني مِن حُكومَتِك. وأخبرَهُ بمَا حَصَل. وَنـُشِرَ في الجَريدَةِ أنَّ أحَدَ الفلسطينيينَ اللاجئينَ لجَأ إلينا، وَبَدَلَ أنْ نحترمَهُ وَنـُسَاعِدَهُ أرَادَ وَلدِي أنْ يَعتدِيَ عَليهِ فأطلقتُ عَليهِ النـَّار.

وَجَاءَ أحَدُ التلاميذِ وَأخبرَنـي أنَّ «متعب العـفاش» قصَمَ وَلدَهُ. فبـِتُّ تلكَ الليلـة في بَيتِ أحِدِ الفلاحـينَ، وَفي الصَّباح ارتحَلتُ إلـى «قريـة الرجم الشامي» وَجَاءَ قائِدُ البَاديةِ يَبحثُ عَنـِّي خـَشيَةَ أنْ يَكـُونَ أهلُ الوَلدِ قد قتلوني أو آذوني وأخذنِي مَعَهُ. وأخبَرَ الدَّولـةَ بسَلامَتِي وَيَبدُو أنَّ «متعب العـفاش» هُوَ الذي طلبَ مِنَ الدَّولـَةِ حِمَايتي، وَبقيتُ مَعَ «صَالِحِ العقرَبَاوي» قائدِ الباديـة، وَكانـُوا يَبحثـُونَ عَن «متعب» طوال الليل لأنـَّهُم لا يَعرفـُونَ أينَ ذهَب.

وَفي الصَّباح توجَّهُوا إلى عمَّان، فطلبتُ مِنهُم أنْ يُنزلـُوني فـي «قريـة القسطل». ولمـا سألت عن أهل القريـة أخبروني أنـَّهم أخوالُ طايل، فغادَرْتُ القريَة، واتـَّجهْتُ نحوَ قريَـةٍ عَلى مَرأى العَين، وكان الشتاءُ غزيراً، وَالأرضُ طينيَّةً وَمَحرُوثةً وَمُوحِلةً، وَاستمَرَّ المَطرُ يَهطلُ بغزارَةٍ وَلمْ يَتوقـَّف، فابتلـَّت ثيابي وَوَصَلَ المَاءُ جِلدِي.

وَمَا وَصَلتُ القريَـةَ إلاَّ وَكأنـَّني مَغمُوسٌ في بركـَةِ مَاء، وَعَرَفتُ أنَّ القريـةَ هِيَ «أمُّ العَمَد» وَلا أذكـُرُ مِنَ البُيُوتِ إلاَّ دَارَ «مثـقال الفايز» وَكانَ فيهَا غرفةٌ مُنفصلةٌ وَمَفتوحَةٌ، وَلا أحَدَ فيهَا فدَخلتـُها، وَليسَ فيهَا شَيءٌ، فعلـَّقتُ فيهَا بَعضَ ثيابي، وَحَمَلتُ حَجَراً

ثقيلاً، وَصِرْتُ أركُضُ عَلى أملِ أن أقاومَ البَردَ القارص، فلمْ أستفِدْ إلاّ توتُّرَ أعصَابي، وَشعَرتُ بالتعَبِ وَالجُوع، إذ لمْ أكنْ مُفطراً فِي الصَّباح وَالوَقتُ قد صَارَ بَينَ الظهر وَالعَصر.

فذهبتُ إلى الدكان «البقالة» فسألتُ عَن تمْرٍ فلمْ أجدْ، وَرَأيتُ دُخَانَ نارٍ يَخرُجُ مِنْ مَغارَة، فعَرَفتُ أنَّ فيها ناراً، وَلكنِّي خجلتُ أن أدخلَ لأسألَ عَن طعامٍ أو لأستدفئ بنارهم، فعُدْتُ مَرَّةً أخرَى إلى «البقالة»، وَسَألتُ صَاحبَها عَنْ حَلاوَة، وَطلبْتُ مِنهُ أنْ يَبيعَني أوقيةً.

فعَرَفَ أنِّي جَوعَانَ، فبَاعَني أوقيةَ حَلاوة، وأعطاني رَغيفَ خبز، وانصَرَفتُ إلى الغُرفةِ وأكلتُ الحَلاوَة وَالرَّغيفَ، وَكأنَّني لم آكلْ شيئاً، وَعِندَ المَسَاء خرَجْتُ أبحَثُ عَنْ مَنامٍ، فالتقيتُ بشخصٍ مثلي يبحَثُ عَن مَنامٍ، وأعطاني بَقيَّةَ مَا مَعَهُ مِن التمر، وقال لي: اتبعني فتبعتهُ إلى دَارِ «مثقال الفايز» فدخلناها وَكانت مَليئةً بالبقر وَالتبن، فصعَدنا كومَةَ التبن، وَحَفرنا حُفرَةً عَميقةً، وَتمَدَّدْتُ فيهَا وَطلبت مِنَ الشخصِ أن يُهيلَ عَليَّ التبن حَتى غمَرَني، فنِمْتُ وَلمْ أصحُ إلاّ في الصَّباح، وإذا بكلِّ ثيابي قد جَفَّتْ، وأنا أشعر بالدفء.

وتوجَّهت إلى عمَّانَ عَبْرَ طريقٍ غيرِ مُعبَّدةٍ، وكثيرةِ الحُفر المَليئةِ بالمَاء، وَوَصلتُ إلى عمَّانَ، وَبِتُّ في المَسجد الحسيني بغيرِ غطاءٍ، فكدْتُ أن أجمدَ مِنَ البَردِ، وَفي الصَّباحِ اشتريتُ دَفاترَ وأقلاماً، وَعُدْتُ إلى قريةِ «رُجمِ الشَّامي» حيثُ أبقيتُ حقيبتي ومتاعي.

افتتاح المدرسة

هُناكَ في «رُجمِ الشَّامي» وعند عشيرة «الجحاوشة» وعشيرة «خضير» وكلتاهما من بَني صخر، افتتحتُ مَدرَسَةً لأولادهم، وَتجَمَّعَ لي اثنا عشرَ طالباً، وأخذتُ أدرسُهم في جانبٍ مِن جَوانِبِ بَيتِ الشَّعر، عَلى غِرَار مَا كنتُ أتعلَّمُ عِندَ الكتاتيب، مُقتصراً على تعليم القرآن، وَعَمليَّاتِ الحِسَابِ الأربَعَةِ مَعَ بَعض الكسُور، وَكانت

المَدرَسَةُ ترتحِلُ حَيثُ يَرتحِلُ العَرَبُ، هَذا وقد ارتحل العَرَبُ إلى منطقةٍ تسمَّى ((ذهيبة الغربية)) وكانَ فيها بَعضُ المُغُر ((جَمعُ مَغارَة)) فتركتُ بَيتَ الشَّعَر، وَصِرْتُ أدَرِّسُهُم في المَغارة.

انغلاق المغارة بالثلج

كانَ الفصلُ شِتاءً، وَعِندَ العصر بدأ الجَوُّ يَكفهرُّ وَيَزدادُ بَرداً، وتغطَّتِ السَّماءُ بالغيُوم، وَانخفضَتْ دَرَجَةُ الحَرَارَةِ إلى الصِّفر، وَبَدأ الثلجُ بالنزول كأنَّهُ حَبُّ الأرزِّ، وَكانَ الهَوَاءُ شرقياً، وَبَابُ المَغارَةِ يفتحُ شَرقاً، فصَارَ الثلجُ قريباً مِنَ السَّقفِ، وَامتلأ سِردَابُهَا البَالغُ ستةَ أمتارٍ طُولاً، وَمِنَ الصِّفر إلى ثلاثةِ أمتارٍ ارتفاعاً.

وَعِندَ الصَّباح لم يكن أمامي إلاَّ أن أخوضَ في الثلج البَالغ ارتفاعُهُ عِندَ فُوَّهَةِ المَغارَةِ ثلاثةَ أمتار، وَعِندَ نهَايَةِ سِرْدَابها صِفراً، كمَا يَغوصُ السبَّاحُ في المَاء، وَنظرْتُ بَعدَ خرُوجي إلى بُيُوتِ الشَّعَر المُنتشرةِ، فلمْ أرَ مِنهَا شيئاً حَيثُ كانَ الثلجُ يَعلوُهَا.

ذهبتُ إلى جَارٍ لي يَسكنُ في مَغارَةٍ قريبةٍ مِنّي وإذا بهِ قد عَبَّأ أكياساً بالتِّبنِ وَبَناهَا كمَا يَبني الحَائط، ليَمنعَ الثلجَ مِنَ الدُّخُولِ حَيثُ كانَ هُوَ وَجَمَلهُ فِي المَغارَة، وَلم أكدْ أنحَدِر عِندَهُ إلاَّ وَشخصٌ يُقالُ لهُ ((حميد السحيم)) يُطلُّ علينا، وَيَستنهضُنا لِنُسَاعِدَهُ في فتح مَغارته التي أغلِقتْ عَلى مَنْ فيهَا، فذهبْتُ مَعَهُ وأعطاني ((طورية)) ـ أي مجرفة ـ مثلَ التي مَعَهُ، وأخذنا نعملُ عَلى فتحِ بَابِ المَغارَةِ ـ وَلا أعني ببَابِ المَغارَة الشيءَ الذي يُغلقُ بَابَها، وَإنَّما أعني الفتحَة التي تفضي إليهَا ـ فوقعَ ((حَميدٌ)) في سِردابها فغرقَ فِي الثلج حتى عُنُقِهِ فصَرَخ، فمَدَدْتُ إليه عَصَا الطوريَّةِ، فأمسَكَ بهَا فجَرَرتهُ حتى أخرجتهُ مِنَ السِّرداب.

وَأثناءَ البَحثِ وَجَدنا سُلَّماً فعَرَّضناهُ على سِردَابِ المَغارَةِ قريباً مِنْ بَابها، وَوَقفنا عَليهِ وَأخذنا نحفرُ في الثلج، حتى فتحنا فُوَّهَةً صغيرةً، وَنادَينا أصْحَابَها فرَدَّ عَلينا صَاحبُهَا، وإذا هُوَ في

وَضع ٍ بَئيس ٍ قد أخرَجَ وَلدين ِ لـهُ ليناذُوا مَن يُعاونـُون أبَاهُمَا عَلى رَفع ِ الثلج ِ فلمْ يَرجعَا إليه.

ثمَّ انطلقنا إلى صديق ٍ لنا اسمُهُ ((خلف الحمدان)) يَسكنُ بَيتَ شعر ٍ لننقذهُ وَزوجَةَ أخيهِ وأولاده، فالتقينا مَعَهُم وَهُم هاربُون مِنَ البيتِ، يتوجَّهُونَ إلى مَغارَةٍ وَاسعَةٍ فيها أقاربُ لهُم فأمسكتُ وَلدين ِ لـهُ حتى أدخلتـُهُما المَغارَةَ، وَسَقطتْ زوجَتـُهُ على الأرض غيرَ قادِرَةٍ عَلى المَسير، لتجمُّدِ جسمِهَا مِنَ البَردِ، فامسَكت بإحدى يَديها وأمسك هو بالأخرى وجررناها حتى أدخلناهَا المَغارة، وَلمَّا دَخلتُ المَغارَة وَجَدتُ العَجَبَ فيها، فالغنم في جَانب منها، وأهلُ المَغارَة، وَمَن لجَأ إليهم في جانب آخر، وَهُم يُشعلونَ النـَّارَ، وَدُخانـُها الكثيفُ يَحجُبُ الرَّؤية وَيُسيلُ الدُّموع!

وشاهدتُ إحدى النسَّاء تضعُ الثلجَ في لجن - وعَاءٌ تـُسقى فيه الغنمُ عادة- وتـُشعلُ تحتهُ النـَّارَ لتذيبَهُ مَاءً، ورأيتُ امرأةً ثانيةً تأخذ المَاءَ، وتعجنُ الطـَّحينَ في وعاءٍ آخرَ. ورأيتُ امرأةً ثالثةً تخبـِزُ العَجينَ على صَاج ٍ ليكونَ خـُبزًا، وَمَضى النـَّهارُ، ولم ينل الشخصُ الواحِدُ إلا ّ رَغيفـًا واحِدًا لا يُسمِنُ وَلا يُغني من جُوع.

وَعندَ المَسَاء عُدتُ إلى مَغارَتي فلا حَطبَ وَلا نارَ، وأرضُ المَغارة مُغطـَّاةٌ بالماء وفراشي مَرفـُوعٌ فوق حِجَارَةٍ مُغطاةٍ بالحَطبِ، وَهُوَ مُجرَّدُ لِحَافٍ وَفرْشَةٍ، فنمتُ تلكَ الليلة في المَغارَة التي تشبهُ الثـَّلاجَة الكبيرَة!

ولمَّا أصبحتُ وإذا الرِّياحُ تـُطيِّرُ الثلجَ في الجَوِّ كأنـَّهُ عَاصِفةٌ مِنَ الرَّمل، فعزمْتُ على مُغادَرَةِ المِنطقةِ إلى عمَّانَ وأصرَّتْ إحدى النِّساء أن تصحَبني في طريقي إلى إهلها في الرُّجم الشامي، فسِرنا حَوَالي أربعةِ كيلومترات وَسَط ثلج ٍ يَبلـُغُ ارتفاعُـهُ نصف متر.

وعند وصولنا أهلها، ووجدنا عندهم الطعام الكافي فأكلنا ونِمتُ عندهم. وفي الصباح توجت إلى سَحَاب، التي تبعدُ حَوالي خمسة كيلومترات وسط ثلج أكبر من الثلج الذي مرَرَتُ به بالأمس، فجمُدَ الجانب الأيسرُ من وجهي حيث كان الهواء القارس غريبًا.

ومن سحاب توجهتُ إلى عمَّان عبر طريق مغطاة بالثلج، يبلغُ ارتفاعُهُ ستينَ سنتيمترًا، ولمْ أرَ أحدًا سائرًا طوال الطريق البالغ طولها اثني عشر كيلو مترًا، لآوي إلى بيتِ أختٍ لي تقيم هناك، وكانَ الثلجُ في الطريق يَزيدُ ارتفاعه عمَّا مَرَرتُ من الثلوج عبرَ رحلةٍ شاقـَّةٍ فبتُّ عندها ليلة أو ليلتين، وقد صحا الجوُّ وَبَدَتِ الشمسُ مُشرقةً وأخذ الثلجُ في الذوبان، فقررتُ العودَة إلى المدرسة بعدَ هذه الرحلة الشاقة المزعجة، ولولا قوة دم الشباب لمَا استطعتُ أن أمشيَ ثلاثةً وثلاثين كيلومترًا في وحلٍ منَ الطّين والثلج.

الزواج

زارني والدي ذات يوم وذكر لي أنه خطب لي ابنة عمِّي وحدَّد لي موعدًا للزواج، ذهبت في اليوم المَوعود إلى فلسطين، ولم يكن لنا بيت مُستقلٌ نسكنه، فتبرَّع جيراننا بغرفةٍ صغيرةٍ «تسمى سقيفة» لأسكنها أنا وزوجتي مُدَّة أسبوع، فتمَّ الزواجُ وبعدَ ذلكَ ارتحلتُ وزوجتي وأمِّي إلى مكانِ عَمَلي في رُجم الشامي.

وانتقلَ والدي وبقيَّة أهلنا من « قرية دُورا» إلى « مُخيم عين السلطان» حول « مدينة أريحا» وكان ذلك عام ألف وتسعمائة وخمسين ميلادية، وبعد مضي أقل من عام، رَحَلتْ زوجتي وأمي إلى أريحا، حيثُ يَسكنُ والدي وزوجته وأولاده، وبدأتُ أبحثُ عن مكان أفتح فيه مدرسةً غير التي كنتُ أدرِّسُ فيها.

زيارة صديقي وابن خالتي

كـان ابـن خـالتي ((أحمـد محمـد إبـراهيم الحجـر)) يُـدرِّسُ فـي كتاتيب قريـة المُـوقر عنـد الخريشـان، وكانـُوا قد ارتحلوا إلـى مكـان حـول قصـر الخزانــة الأثـري وهـو معهـم، فخرجـتُ لـيلاً مـن رُجـم الشامي مُتوجِّهـًا الى قصر الخزانـة، وحملتُ مَعـي بنـدقيتي، وَوَصـلتُ إلى المُوقَّر.

ولـم يطلـع الفجـر إلا ّ وقـد لاحَ لـي ضـوءٌ فـي طريقـي ثـمَّ اختفـى، فتوجَّسـتُ خوفـًا، فوضـعتُ طلقـةً فـي بيـت النـَّار، وثبـَّتُّ ((السنجة)) أي السكـِّين برأس البندقية تحسبـًا من أيـةِ مُفاجـأة، ووصـلت المكان الذي لاح لي الضوء فيه فلم أجد شيئـًا.

وواصـلتُ السَّـير فـي جـو هـادئ ومظلـم، ولـم أشـعر إلاّ ومجموعـة مـن الكـلاب تحـيط بـي وهـي تنـبح، وتحـاول مُهـاجمتي فضايقتني حتى كدت أن أطلق عليها النار وإذ براعي الكلاب ينهرُهـا، ويقتربُ مِنـِّي فعرفنـي، وسلـَّم علـيَّ ودعـاني إلـى بيتـه ((بيـت شـعر)) فاسـتجبتُ لــه وجلسـت عنـدهُ حتـى لاح الفجـرُ، فتوضـأتُ وصـليتُ وواصلتُ السَّـفر.

وعند الظهيرة وصلت ((قصـر الحرانـة)) حيث يقيم الخرشـان بمواشـيهم فلـم أجـد صـديقي هنـاك، وأخبرونـي أنـه رحـل الـى مدينـة أريحا، فأقفلتُ راجعـًا وقد أعياني المسير، ولحقني الظمـأ لأنَّ المسـافة التي قطعتها كانت أربعين كيلو مترًا، مرت بي سيارة صغيرة فأشرتُ لصاحبها فلم يقف.

وبعد فترة لحقتني سيارة مثـلها فوقفتُ في منتصف الطريق وطلبت من صاحبها أن يحملني معه فأبى، فهدَّدتهُ بأنـَّه إذا لـم يحملنـي معه لأبيتنَّ وإيَّاهُ في تلك الصـحراء، فحملنـي معـه حتـى قريـة المُـوقر، فنزلـتُ وسِـرتُ علـى الأقـدام حتـى وصـلتُ ((الـرُّجمَ الشـامي)) وقـت

العشـاء، وكانـت رحلتـي هـذه بعـد رحلـة طويلـة استغرقت سـتة أيـام، وكان صديقي آنذاك في المُوقر.

رحلتي إلى الكرك

بعدما تركت الـرجم الشـامي توجهت نحـو الكـرك لعلـِّي أجدُ مكانـًا مُناسبـًا أفتح فيه مدرسة كتاتيب، فبدأتُ رحلتي على الأقدام من مدينة مادبا ((يوم كانت مُجرد قريـة)) وَتوجَّهتُ نحو ذيبان، ثمَّ اتجهتُ شرقــًا فجئت قريـة لا أذكـر فيهـا إلاَّ دارًا واحـدة، يُقـالُ لهـا ((جُمَيـل)) فنمتُ فيها.

وفي الصَّباح توجَّهتُ إلى الجنوب نحو قريةٍ تسمَّى ((عراعر)) على حافة وادي المُوجب الشمالية، ونزلت ضيفـًا فـي أحد البيوت، وكان فـي البيت ثلاثـةُ ضيوفٍ معهم خيُولـُهم، وبعدَ تناولنا فطورنا خرجنا، فأمَّا الخيالة فتوجهوا نحو ذيبان، وأنا توجَّهتُ نحو المُوجب، ونزلت مُباشرة نحو قعر الـوادي، فأخذت فـي الانحدار رُويدًا رُويدًا لِشدة وعورتهِ، فواجهني طورٌ لا يقل ارتفاعه عن ثلاثة أمتار.

فالتمستُ مكانــًا قصيرَ الارتفـاع فلـم أجـد، فحاولـت الرُّجُـوع ونظرت إلى الأعلى فتراءى لي السطح الذي هبطته بعيدًا، فقررتُ أن أقفز من على ظهر الطور إلى أسفلِهِ، ولكنَّ الأرض التي تحتَ الطور شديدة الانحدار فخشيتُ أن آخذ في التسارع، فلا أملكُ الوقوف فأهوي إلى قاع الوادي فأهلك.

قفزة تحتمل الهلاك

كنت أرتدي ثوبـًا وقمبازًا وكوفيـةً وعقالاً وعباءةً، وفـي قدميَّ ألبَسُ حذاءً ضخمًا يُسمَّى ((بُسطارًا)) فأمسكتُ بطرفِ صخرةٍ من الطـور((الجبل)) وقفزتُ مُحـاولاً أن يكون أولَ شـيءٍ يُلامسُ الأرض كعباي لعلـِّي أتمكن من الوقوف لأنَّ الأرض التي سـأقفز عليها شديدة الانحدار فتوكلت على الله، وقفزتُ فلم أتمكن من الوقـوف، فانحـدرت

مُسرعًا وحرَّكتُ قدميَّ بسُرعةٍ تتناسبُ مَعَ تسَارُع جسمي لئلا أسقط على وجهي فيتحطمَ جسمي، وأهوي إلى قعر الوادي البعيد.

وَحَاولتُ عبثًا أن أتوقَّفَ، ولاحظتُ أنَّ أمامي طورًا أكثرَ ارتفاعًا مِنَ الطور الذي قفزتُ مِنهُ فماذا أعمل؟ ولما لم يبقَ بَيني وبين الطور الثاني إلاَّ عشرونَ مترًا، وَصَلتُ مَكانًا غير مُنحدر والأرض فيه مُستوية، فألقيتُ بنفسي على ظهري على سطح الأرض.

جلست قليلاً ثم قمت فاقتربتُ من حافة الطور الثاني ونظرت فيه، فإذا ليس بينه وبين مَجرى الماء أرضٌ مستويةٌ أو منحدرة، بل هو آخر السفح الشمالي للوادي، فأخذتُ أتحسَّسُ مَسلكًا أنزلُ فيه إلى قعر الوادي إذ لا سبيل إلى القفز منه لعلوِّه، فوجدتُ مكانًا حفرَتهُ المياهُ النازلة من السفح، فنزلتُ منه بصعوبة، ووصلت الماء وكنت ظمآنًا فشربتُ حتى ارتويتُ.

اجتزتُ ماء الوادي إلى السفح الجنوبي منه، فلم يعترضني أثناءَ صُعُودي طِيرانٌ «جمع طور» حتى وصلتُ قمَّة السفح، وإذا أنا على مَقربةٍ من «قرية شيحان»، فمشيتُ في طريقٍ ترابي عبر سُهُول الكرك، فوصلتُ «قرية القصر» قُبيلَ مَغيبِ الشمس، فنزلتُ عندَ أهل بيت شعر، وإذا بالخيَّالة الثلاثة الذينَ فارقتهُم في قرية «عراعر» قد أقبلوا ونزلوا البيت الذي نزلت فيه.

فسألوني: أي سيارة جئت بها؟ فقلتُ لهُمْ: جئت ماشيًاعلى قدميَّ، فلم يُصدقوني إلاَّ بَعدَ ما وصفت لهم طريقي التي سلكتها فقالوا: أتدري كم اختصرتَ من الطريق في مسلكك هذا؟ فقلت: لا أدري، قالوا: اختصرت عشرين كيلو مترًا.

بتُّ ليلتي، وعندَ الصباح توجهتُ إلى الكرك، فسلكتُ طريقًا وعرةً ومختصرةً أيضًا، ودخلتُ الكرك مع الضحى، فتجوَّلتُ في شوارعها قليلاً، ثمَّ خرجتُ مِنها مُتوجهًا إلى الشرق، وجئتُ قرية

تسمى ((الثنية)) فصادفني شخصٌ من أهلها فضيَّفني وغداني، خرجتُ بعدها وتوجَّهتُ إلى الشمال الشرقي.

وعند المساء جئت إلى فريق من البدو لهم ديوان مُخصَّص للضيوف وهو ((بيتُ شَعَر)) كبقية بيوتهم. وجدت في الديوان رجلين غريبين مثلي ينتظران طعامًا، فلم يوافهما به أحد، وانتظرا وقت النوم من يأتيهم بفراش، فلم يُحضره أحد، فعمدا إلى كومَةٍ من الحطب وأشعلا فيها النَّار من أجل الدفء، وقبل أن يطلع النَّهار خرجتُ متوجِّهًا إلى الشمال مغادرًا قبيلة الطراونة؟

اللقاء بفارس باشا المعايطة

وصلتُ قرية ((أدر)) قبيل طلوع الشمس فسألت شخصًا عن بيت كبير القرية فدلني عليه. وإذا بيته مكون من عدة غرف، تشكل في مجموعها ((حوشا)) وفي وسط ((الحوش)) بيتُ شَعَر ينامُ فيه رجلٌ على مجموعة فرشات يبلغ سمكها المتر.

فلمَّا صحا من النوم سلَّم عليَّ وسألني: من أين أنت؟ فقلتُ: من فلسطين، فقال: من أي منطقة؟ قلت: من منطقة الخليل، قال: من أي قرية؟ قلتُ: من قرية الدوايمة، قال: من أي نصف؟ قلت: من أولاد إعمر، قال: من أي عشيرة؟ قلت: من السباتين، قال: أتعرف الحاج علي أبا حسين؟ قلت: هو عمِّي، قال: من أبوك؟ قلت: أبي أحمد محمود الحاج خليل، قال: والله السبع تنعام، فاستغربت أنَّ الرَّجل يعرف قريتي وعشيرتي وعمِّي ووالدي.

وجاءت زوجته، وسألتني من أين الضيف؟ قلت: من فلسطين قالت: أراك تلبس لباس الشمال ((يعني بني صخر ومن حولهم))، قلت: سكنت عندهم، أدرِّس أولادهم، قالت: من أي عشيرة من بني صخر؟

قلت: عند الجحاوشة، قالت: جميل وجمال ولدا سليمان الصهيبة عندك في المدرسة؟ قلت: نعم، قالت: سليمان أخي، قلت: والنِّعِم، وقلت في نفسي: عرفني الاثنان.

حضر ثلاثة أشخاص، وقدم المُضيف الطعام، وطلب من الثلاثة، واحدًا بعد الآخر ليشاركونا في الطعام، فكان كلٌّ واحد يقول: أفطرتُ يا باشا، فعرفتُ أنَّ الرَّجل له مكانته، وسألني عمَّ تبحث؟ قلت: أريدُ أن أفتح مدرسة، قال: عطلت الآن المدارس، وعند عودتها للدوام تعال وأنا أعينك في مدرسةِ الحكومة في هذه القرية فشكرته على ذلك.

خرجت من قرية «أدر» وتوجهت إلى الشمال، وعند الظهيرة مررت ببيت شعر فضفت أهله وتغديت عندهم، ثم توجهت إلى «قرية السماكية» ومنها توجهت إلى الشرق ميممًا «قصور بشير» الأثرية، وكانت طريقي طويلة، وتقتضي مروري بـ «وادي اللجون» الذي هو فرع من «وادي الموجب».

وأثناء مسيري التقيت بأشخاص معهم حمير تحمل خشبًا فسألوني: إلى أين تتوجه؟ قلت: إلى «قصور بشير»، قالوا: أمامك «وادي اللجون» وهو وادٍ عميقٌ وموحش، وفيه حيوانات مفترسة، والوقتُ آخر النهار، ولا نرى معك سلاحًا، فارجع معنا، ونم عندنا وغدًا تذهب في وضح النهار. فأبيتُ وواصلت السير.

وكلما اقتربتُ من الوادي يكثر الشجر، حتى شعرت وكأنِّي في غابة، وأخذت في الانحدار، ولمَّا صرت قريبًا من قعر الوادي، وإذا بطورٍ أعلى من الطور الذي قفزت منه في «وادي الموجب»، فأخذتُ أبحثُ عن مسلك أنزل منهُ فلم أجده، ولعمق الوادي شعرتُ أنَّ الوقت وقتُ المغرب، فقررت أن أقفز من على الطور إلى قعر الوادي.

ولكنَّ الوادي يَسيلُ على عرضه بالماء الذي يزيد ارتفاعه على خمسة عشر سنتيمترًا، فألقيتُ بحذائي وعباءتي في مكان خال من الماء في قعر الوادي، ثم قفزتُ في وَسَط الماء وتوضأت، وتجاوزتُ إلى الجانب الآخر من النهر((الوادي)) ولبستُ حذائي وعباءتي، وواجهني طور في الجانب الآخر، وصرتُ أبحث عن مسلك للخروج من الوادي، فسرت طويلاً فلم أجد.

فأحسستُ بالخطر إذ قد أظلم الجو، فالتفتُ فإذا بمغارةٍ وفي آخرها شيء شبيه بالضوء، فدخلتها فإذا في آخرها بابٌ يُفضي إلى السطح فقصدته، وإذا بها طريق تنزلُ منها الغنم لتشربَ من النهر فأخذت في الصعود، ولمَّا وصلت قمة السفح وإذا بالشمس لم تغب بعد.

فسرتُ حوالي كيلو مترًا وإذا بفريق عرب من ((بني عطية))، فعمدت إلى بيت كبير ونزلت فيه، وإذا بصاحبة البيت تأتي بفراش وترحب بي كضيف، فسألتها: لمن البيت؟ فقالت: لسالم بن عطية، ((شيخ بني عطية)) وقد ذهبَ إلى مصر فبتُّ ليلتي، وفي الصَّباح مررت بـ ((قصور بشير))، وتجولت حولها وصعدت سطح أحدها، ثمَّ واصلتُ مسيري، ومررت من الفرع الثاني للموجب والمُسمَّى ((أبو بطمة)).

واجهني في الطريق جماعة تركبُ إبلاً وخيلاً، ويُسرعون في سيرهم للاشتراك في مشاجرة بين قبيلتين في ((خان الزبيب)) وهي محطة للقطار، فسألوني من أي قبيلة أنت؟ فقلت: لستُ منكم، ولا منهم، فخلوني وَمَشوا.

أم الرَّصاص وآثارها

وصلت قرية ((أم الرَّصاص)) وقت الظهر، وعرجت على آثارها، ورأيت سورًا مربع الشكل، داخله غرف صغيرة وكثيرة، ما

زالت سقوفها ثابتة، وبجانب السور كنيسٌ عندها حجر عال كأنَّه مئذنة، ولم أر إلا ّ َ بيت شعر فيه عجوز، فنزلت عندها ضيفًا، فتغديت وغادرتها متوجهًا إلى الشمال.

ليلة ((وادي التمد)) ليلة عبوس

لم أكن أعرف أسماء ما أمرُّ بها من البلاد إلاّ بعد أن أسال من أصادف في طريقي، وصلت إلى وادٍ كثير الينابيع البسيطة، مليء بشجر الدفلة، وذلك عند المساء، والوادي موحش مقفر تؤمه الوحوش المفترسة للشرب. وعرفت من وصفه أنَّه ((وادي التمد)) الذي كان يصفه بعضهم بأنَّه كثيرالضباع، فكنتُ أتوقع في كل لحظة أن يصادفني ضبع، وليس معي من السلاح إلا الخنجر، فتوضأت من مياهه، وصليت صلاة الخوف، وواصلت السير دون توقف، ولا أدري إلى أين ترميني الطريق.

وبعد ساعات في تلك الليلة المظلمة، وصلت فريق عرب من عرب ((بئر السبع)) اللاجئين فبتُّ عندهم، وكانوا على مقربة من ((قرية الجيزة))، وفي الصباح مررت بالجيزة، وفي طريقي عرجت على ((قصر المشتى)) منطقة مطار الملكة علياء اليوم.

ثمَّ واصلتُ سيري، وعند الظهر وصلت ((قرية الموقر))، ونزلتُ ضيفًا عند ابن خالتي أحمد محمد إبراهيم الحجر، وهناك رحب بي طلاب مدرسته، وعلى رأسهم ((جمال حديثة الخريشة)) وأخواه ((محجم)) و((حاكم)) وغيرهم من الطلاب وكانوا يعرفونني من ترددي في الزيارة لمعلمهم، وظلت الصداقة بيني وبينهم خمسة وخمسين عامًا حتى كتابة هذه الحروف.

أخبرني صديقي بأنَّ ((الخريشان)) سيرتحلون إلى منطقة ((قصر الخرانة))، الذي سبق أن تحدثت عن زيارتي له هناك فلم أجده وأخبرتُ أنَّه ارتحل بأهله إلى مدينة أريحا، فرجعتُ أنا أيضًا إلى

أريحا، وكنا نسكنُ في مخيم عين السلطان، وبقينا هناك بلا عملٍ، وفكرنا أن نذهب إلى السعودية عن طريق ((القريات)) لعلَّنا نجدُ عملاً في تلك البلاد.

رحلة العذاب إلى السعودية

بعد عودتي إلى أريحا حيث لا عمل هناك. اتفقت مع قريبي أحمد على السفر إلى السعودية ليلحق هو بجماعته من ((عشيرة الخريشان)) الذين ارتحلوا بحلالهم إلى هناك.

جهزنا أنفسنا بجوزات سفر لم نختمها من السفارة. وحملنا معنا بعض الكتب وانطلقنا من مدينة أريحا إلى عمان فإلى سحاب، ثمَّ مشينا إلى ((رجم الشامي)) فنمنا عند أصحابٍ لنا، وفي الصباح الباكر أخذنا رطلا من الخبز وغالون ماء، وانطلقنا على أقدامنا مُشرقينَ إلى ((المُوقر)) فإلى ((قصر الحرانة)).

وخلال هذه المسافة ونحن نسير على الأقدام في يوم حار، والريح خماسينية ((شرقية)) شربنا ما معنا من الماء، ونحن في أول الطريق، وكنا نتأمل أن نجد في الحرانة ثميلة ماء ((نزازة ماء))، ولكن لحقنا الظمأ الشديد والتعب من طول المسير.

وبدأ السراب يلوح لنا وكأنه بركة ماء، ونحن نغذ السير، وإذا بسيارة سُيَّاح قد أقبلت، فاستبشرنا خيرًا ورجونا أن يكونَ معهم مَاءٌ لعلهم يسقوننا فأشرنا لهم فوقفوا، وطلبنا منهم ماء، فلم يكن معهم فأعطونا حبتي برتقال، وزجاجة ((كزوز)) صغيرة، لم تخفف من عطشنا، فواصلنا السير والعطش يشتد، والحرُّ يزداد، والسَّرابُ يلوحُ حينًا ويختفي حينًا آخر. حتى وصلنا ((قصر الحرانة)) عند المساء فصعدنا إلى ظهره، ووضعنا أوعيتنا وانطلقنا مسرعين نحو ((ثميلة الماء)) فوجدناها جافة، فعدنا إلى القصر نجرجر أذيال الخيبة. نمنا

ليلتنا على ظهر القصر، وراقبنا الطريق لعلَّ سيارة تمُرُّ ولكن من غير جدوى.

لم نكن نعرف بعد القصر شيئـًا من البلاد، ولم تكن الطريق واضحة لأنها مغطاة بالحصباء السوداء التي تملأ السهول فلا نرى لها أثرًا، فهمنا على وجهينا، لا ندري إلى أين نحن سائران، وكنتُ أسبقه مسافة، ثم أجلس أنتظره حتى يأتي.

مشينا من الصباح حتى زوال الشمس ((الظهر)) لم أر حيوانـًا أو دودة أو ذبابة، أو عشبة حية على الارض. فالأرض مقفرة من كلِّ شيء إلا ّ ً من السَّراب، مع أنَّ الوقتَ وقتُ ربيع، وهذا السبب الذي جعل بدو الأردن يرتحلون بحلالهم إلى السعودية. وكان ذلك عام ١٩٥١م. عام ممحل لم يُمطَر فيه الأردن.

كنت أجول ببصري شرقـًا وغربـًا، يمينـًا وشمالا ً لعلـّي أرى بشرًا أو حيوانـًا أو ماء فلم أر شيئـًا. تلفتُّ نحو صديقي فإذا هو متأخر عنـِّي، فجلستُ القرفصاء أريد انتظاره، وإذا بالهواء المُلامِس للأرض المُغطاة بالحصباء السَّوداء يلفح وجهي، وكأني قد اقتربتُ من شُعلة نار، فنهضتُ واقفـًا ومَشيت قليلا، فأشرفت على وادٍ، واذا بقصر مُحاط بأشجار عظيمة.

فقلت لصاحبي: أتدري؟ قال: ماذا؟ قلت: هذا ((وادي البطم)) وهذا ((قصر عمره)) فنحن قريببون من واحة الأزرق لأنَّ ((وادي البطم)) تصبُّ مياهُهُ في الأزرق حسب معرفتي من خارطة جغرافية الأردن. فعمدنا إلى القصر فإذا هو ((قصر عمره))وبجانبه بئرٌ عميقة ٌ عليها قبة صغيرة، فألقينا فيها حجرًا لنعرف إن كان فيها ماءٌ أو لا. فلم نجد فيها ماء.

وسرنا مع الوادي، ونحنُ لا نعرفُ اتجاه مَسيلِهِ. وقد بدا على صديقي التعب مع العطش، وشدة الحرِّ، ورياح السَّموم التي تلفحُ

الوجوه، فجلس ليستريح فانتظرتُهُ حتى نهض، وسرنا قليلاً فعادَ وجلسَ مرة أخرى، فاستنهضتُهُ فلم يَنهض، فسرتُ أمامَهُ قليلاً ثُمَّ انتظرتُهُ حتى لحق بي.

وشاهدتُ على بُعدٍ شبحًا أسود، ظننته بيتَ شَعَر، فتوجَّهتُ نحوه. فرأيتهُ يكبُرُ أحيانًا، ويَصغُرُ أحيانًا، فلمَّا اقتربتُ مِنهُ وإذا هو شجرة صحراوية، لا يزيدُ ارتفاعها على المتر، فعرفتُ حينها أنَّ ما أشاهدُهُ من مآذن وبيوت ما هي إلاّ جانبٌ من جوانبِ جبل أسود لا مآذن فيه ولا بيوت.

جلس صديقي بجانب شجرة صغيرة فتركته، وصعدتُ على تلةٍ من الرَّمل فدُختُ وسقطتُّ على الأرض. وأخذتُ أحبُو على يديَّ ورجليَّ حتى عُدتُ إلى صديقي.

وبعد استراحة قصيرة سرتُ، وسارَ أحمد خلفي حتى وافينا شجرات طرفاء، يبلغُ طولُ الواحدة مترين، فجلسَ كلُّ واحدٍ منا تحت شجرة، ونحن على أسوأ ما نكون، إذ جفَّت آذاننا، فصرنا نسمع نغمة الهواء وكأنها كلاب تنبح، وزاغ البصر فلا نرى الأشياء على طبيعتها، وازدادت دقات القلب، وكأنَّ نارًا مشتعلة في الصَّدر لا ينطفئُ لهيبُها، ولا يُخفِّف منها ظلٌ ولا ظليل، ولا استراحة ولا مَسير.

فيئسنا منَ الحياة، وكتبنا اسمينا على ورقة وعلقناها على الشجرة، ووضعنا بعض ثيابنا على الشجرة لتحسين ظلها، وكم تمنيتُ لو أنام وأحلم أنِّي شربتُ، ولكن كيف تنامُ العينُ وقد جفَّتْ من الدموع؟ وكيف يغفو من همه الماء؟

استلقينا على ظهرينا، واستقبلنا القبلة، وتشهَّدنا بأنْ لا إله إلاّ الله، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله، وتسامحنا، وركنَّا إلى المَوت، وبقينا على وضعنا حتى وقتِ العصر. فقلتُ لأحمد: إنَّ الأزرق قريبٌ مِنَّا، وهل

يَضيرُنا الموتُ سواءٌ أكان تحت هذه الشجيرات أم في هذه الأرض الواسعة؟ فقال: أتريدنا أن نواصل سيرنا؟ قلت: نعم، فرمى حذاءه وكوفيته وعباءته ومشى عاري القدمين، مكشوف الرأس، وأمَّا أنا فلبستُ حذائي، وارتديت كوفيتي، وفروتي وسرت.

بدا أحمد أنشط مني، وبعد فترة جلستُ فحضَّني على المسير. وقلت له: سر أمامي وسأتبعك فأبى فقمت، وكان أمَامَنا ثلاثةُ تلال سوداء تسمى في مجموعها ((حرة العويند)).

صعدنا أول تل، وثاني تل، فلم نشاهد شيئـًا، ولمَّا صعدنا التل الثالث وهو أعلاها، شاهدنا واديًا واسعـًا ممتدًا إلى الشرق. ورأينا أشباحـًا تمنينا أن تكون بُيوتـًا، وحينها بدا على أحمد النشاط، واعترانا الأمل وسرنا قليلا ً.

فشعرتُ بالتـَّعب فملت إلى شجرة صغيرة، وألقيت بنفسي عليها، وقلت لأحمد: خذ وعاء الماء وسر، فإذا وصلت بالسلامة ووجدت الماء وكتبت لك الحياة فعُد إليَّ وإلاَّ فالوداع.

فسار قليلا ً ثمَّ عاد إليَّ يَحُضـُّني على السير، فأبيتُ، وقلتُ لهُ بإلحاح: امض ولا تنتظرني، وصرختُ في وجهه، فلمَّا يَئسَ مِنـِّي انطلق مُسرعـًا، ولكنـِّي لم ألبث بعدَهُ أكثر من عشر دقائق إلا ّ َ وأحسست بالنار في جوفي، فلا الظلُّ ولا الجلوس بمفيد.

فقمتُ وسرتُ خلفه، وهو لا يلتفت وراءه، وتراءى لي بناء عال، فغلب على ظني أنـَّهُ مخفر للدَّولة، فهمَمَتُ مُسرعـًا، وبعد نصف ساعة تقريبًا لحقت بصاحبي، فلم يَشعُر إلاَّ وأنا بجانبه فسرنا معا، ولما اقتربنا من البناء شاهدنا شخصـًا على ظهره فأخذنا نـُلوح له فلم يلتفت إلينا، ولمَّا صرنا على بعد خمسماية متر وقعنا على الأرض فترة قصيرة، ثم نهضنا، وتوجهنا إلى المخفر.

ولمَّا وصلنا السلك الشائك المحيط بالمخفر نهرنا الجندي، فأشرنا له إلى أفواهنا فأدرك أننا عطشى، فجاءنا عسكري آخر فأدخلنا، وأدلى دلوه في بئر عند باب المخفر، وأخذ يسقينا بفنجان في يده، حتى شربنا الدلو كلَّهُ، وكأننا لم نشرب.

فطلبتُ منهُ أن يعمل لنا شايًا، فسرعان ما عمل الشاي، وأخذ يسقينا بالفنجان نفسه، فشربت ستة فناجين بمجرد أن نزل الإبريق عن النار، وبعد ذلك شعرت بالارتياح، وعاد إليَّ سمعي وبصري وقوة إدراكي بعد أن كانت قبل ذلك شبه معطلة.

بعد ذلك ذهبنا إلى القرية، وعمدنا مسجدها، وإذا بالإمام يطلبُ مني أن أصعد سُلَّمًا من خشب وأؤذن للصلاة، فصعدتُ وأذنتُ، وبعد الصلاة أخذنا الإمام إلى بيتهِ، وقدَّم لنا طعام العشاء وأكرمنا، ثمَّ عدنا إلى المسجد، وبتنا فيه ليلتنا.

وفي الصباح عدتُ إلى الشجيرات التي تركنا أمتعتنا عندها. ولولا تتبعي لآثار أقدامنا لما اهتدينا لها. للتغير الذي لاحظته في الأرض خلافًا لما كنت أراه بالأمس.

فلملمتُ أمتعتنا وحملتها وعدت إلى المسجد، فاستغرقتني رحلتي هذه من الصباح حتى المساء تقريبا. وبتنا ليلتنا الثانية في المسجد، وبعد مجادلات ومناقشات أنعود لأهلنا أم نواصل رحلتنا، استقر رأينا على المواصلة، فخرجنا من المسجد قبل الفجر واتجهنا نحو «العمري» الذي هو الآن مركز حدود بين الأردن والسعودية.

ولم نبتعد عن « قرية الأزرق» أكثر من ثلاثة كيلومترات، إلاَّ والأرض مغطاة بالرَّبيع، والمياه موجودة في القيعان، وبيوتُ الشَّعَر متناثرة في الأودية وحولها رعايا الغنم ترعى في السهول، فعرجنا على أحد البيوت، وسلمنا على أهله، وأفطرنا عندهم تمرًا، ثم قمنا وواصلنا رحلتنا.

وعند العصر نزلنا عند غدير ماء سبحنا فيه، وغسلنا ثيابنا واتفقنا على أن ننام حول الغدير إذ لم يكن حوله أحد من البدو. وكان على مقربة منا تل. فصعدته فرأيت بيت شعر صغير وحيد، فقمنا وتوجهنا إليه لعلنا نحرز مناما فيه.

فلما أقبلنا عليه وإذا بصاحبه يرحبُ بنا بحرارة، فسلمنا وجلسنا نتسامر طويلاً حتى غلبنا النُّعاس فنمنا. وعند الفجر نهضنا وواصلنا رحلتنا، وكلما مررنا ببعض البيوت نعرج عليهم فيقدمون لنا تمرًا ولبنًا.

وعند الظهر وصلنا واديًا فيه بئر حوله نخلة، فقيل لنا هذا هو العمري، فنزلنا عند أهل بيت وإذا بصاحبه يعرف صديقي أحمد فقدَّم لنا طعامًا من اللبن والزبد وخبز الشراك.

وبعد ذلك ودعنا صاحب البيت وواصلنا السير، وقبيل مغيب الشمس يمَّمنا شطرَ بيت عنده سيارة صغيرة، ورجال كثر، وقبل أن نصل البيت انفضَّ الرِّجالُ وذهبت السيارة.

ولما اقتربنا من البيت وإذا بصاحبه يرحب بنا عن بعد، وقد عرفني ويُسمَّى « سلمان أبو جسار»، فقدم لنا عشاء ونمنا عنده. وسألنا: إلى أين؟ فقلنا: إلى السعودية، وسألناه عن الطريق فقال: لا أعرف شيئًا سوى هذا المكان الذي أنا فيه، فغادرنا متوجهين نحو الشرق إذ لم يكن هناك طريق نسير عليها.

وعند وقت الضحى مررنا بـ « خربوش » بحجم الخيمة وحوله إبل كثيرة، فعرجنا عليه، ولم يكن فيه إلاَّ رجلٌ واحد، فسلمنا عليه وجلسنا عنده، فقدم لنا تمرًا وزبدة، ولا ندري إن كان الرجل شراريًا أو من عنزة، فسألنا عن الطريق إلى السعودية فقال: أأصفها لكم وصف البدو أم وصف أهل ديرتكم؟

فقلنا صفها وصف أهل ديرتنا ما دمت تعرف عادتنا، فقال: تسيران في هذا الاتجاه، فتمشيان وتمشيان وتمشيان حتى وقت الظهر فتصلان إلى حزم «سلسلة تلال» تفصل بين الأردن والسعودية وتشاهدان في الجهة الشرقية « حرة سوداء» عالية وبعيدة وقريب منها قرية سعودية تسمى «إثرة»، وتشاهدان إلى الجنوب منها دارًا من الطين على رأس تل يفصل بينهما وادٍ عريض يسمى « وادي المخروق» تصب مياهه في قاع «منطقة منخفضة تتجمع فيها المياة فتشكل بحيرة صغيرة» وفي الصيف تجف ويسمونها «سبخة» «منطقة موحلة إذا دخلها حيوان ربَّما يغرق في الطين، ويغوص فيه ولا يبين».

فهذا البيت الذي تشاهدانه عليه علم وهو أول مخفر من مخافر السعودية. فشكرناه على وصفه الدقيق المفصل وبالفعل وصلنا المكان الذي وصفه لنا وهو الحزم عند الظهر، فانبطحنا على الحصباء الناعمة وأخذنا ننظر أمامنا فرأينا «الحرة السوداء» ورأينا المخفر فقررنا أن نتوجَّه نحو المخفر، ولو منعونا من الدخول، وفضلنا ذلك على التوجُّه نحو الحرة خوفًا من أن نضيع ونموت عطشًا.

ثم سرنا مع « وادي المخروق» واجتزناه مع وقت العصر فوصلنا المخفر، سألنا أمير المخفر عن وجهتنا، فقلنا: نريدُ «عرب الخريشة» الذين دخلوا السعودية طلبًا للمرعى فكتب لنا كتابًا موجهًا إلى أمير الحدود الشمالية الغربية للسعودية، وهو الأمير «عبد العزيز السديري» رحمه الله، ليرى فينا رأيه، فإمَّا يَسمح لنا بالتوجُّه إلى «عرب الخريشان» أو يردنا.

وما كاد يُعطينا الكتاب إلاّ وسيارة آتية من القريات «النبك» مقر « الأمير عبد العزيز» وفيها الشيخ « حديثة الخريشا» وولده « نايف » فلما رآنا سلَّم علينا بالأحضان. فقال له أمير المخفر

((عبد الله الحواسي)) رحمه الله: أتعرفهما يا شيخ؟ فقال له: هذان ولدانا، لعلك قصَّرتَ في حقهما، فاسترجع منـَّا الرِّسالة، وغيَّرها وكتب لنا بالسماح من المرور.

فأمَّا الشيخ ((حديثة الخريشا)) فكان متوجهـًا الى الأردن، وأمَّا نحن فأركبنا ((عبد الله الحواسي)) في سيارة متوجهة الى ((القريات)). ووصلنا ((القريات)). ونزلنا في مضافة ((السديري)).

وفي اليوم الثاني قدمتُ طلبَ عَمَل لأعملَ مُعلمـًا فاستدعاني ((الأمير السديري)) وسألني بعض الاسئلة، ثم بعثني إلى مدير مدرسة القريَّات لأواظب فيها، لكنَّ المدير قال: بأنـَّهُ ليس لديه فراغ لأحد.

فعدتُ وأخبرتُ الأمير. فقال: انتظر فبقيت وصديقي مدة شهر ننام ونأكلُ في المَضافة، وبعد الشهر عاد صديقي أحمد إلى الأردن لا يلوي على شيء.

ووجد أهلنا في همٍّ وحيرة من أمرنا، يذهبون إلى الفتاحين ((الذي يخطون في الرَّمل)) لعلهم يخبرونهم عنَّا، فيزيدونهم قلقـًا. ولم يهدأ لهم بال حتى رجع أحمد وأخبرهم بما جرى لنا وأما أنا فبعثني الأمير مُعلمـًا إلى ((قرية الحديثة)) فاتخذت المخفر مدرسة لأبناء القرية، وبقيتُ مدة سنة ونصف.

النقاش مع الأمير ((عبد الله الحواسي))

حصل نقاش بيني وبين ((عبد الله الحواسي)) أمير البلد بشأن أرض ((قرية الحديثة)) وقلت بأنَّ أرض فلسطين خيرٌ للزراعة من أرض ((قرية الحديثة)) فاحتدَّ الأمير وقال: لو فيها خير لاشبعتك، فقلت: لو بقيت لنا لما جئت إلى هنا. فقال : لو كنت رجلاً لحميتها!

فشعرتُ أنَّ الرجل أرادَ إهانتي، فقلت : لقد قاتلنا اليهود بسلاحنا ((الخردة)) وكدنا نهزمهم، فدخلت الجيوش العربية السبعة بمدافعها ودباباتها ومجنزراتها ورشاشاتها، وظننا أنـَّها ستنهي اليهود

في جولة واحدة، وإذا بالدول العربية بعثتها لتقوم بحّروب مُصطنعة تتظاهر بالهزيمة لتسليم البلاد لليهود، بل ساعدت بعض الجيوش اليهود على طردنا من بلادنا وخرجوا جميعًا بالخيانة. فقال الأمير: ولا كلمة، فقلت: لقد وصل الجواب كاملاً، ولو بقيت كلمة لقلتها.

وفي اليوم التالي نزلتُ إلى «القريات» وقدمت استقالتي للأمير عبد العزيز فوافق عليها. فلمَّا علم أمير القرية وكان حريصًا على بقائي لأني كنت أعلم ولده اللغة الانجليزية، فبعث لي المدير المالي يُحذرني من أنِّي إذا غادرت القرية لن أدخلها ما دام فيها.

فقلت للمدير المالي: الجواب أمانة قل لصاحبك: بأني أقسم أن لا أعود لتلك البلاد باحثًا عن الرزق إلاّ إذا عُدتُ لأداء فريضة الحج. وفي اليوم التالي ركبتُ في سيارة متوجهة إلى الأردن ولم أمض جواز السفر، ولم أودِّع أحدًا، وعدتُ إلى أهلي في مُخيَّم عين السلطان في مدينة أريحا.

العودة إلى الدراسة

بعد عودتي أقمت مع أهلي وعلمت حينئذ أنَّ أصحابي الذين كنتُ وإيَّاهم في الصف السادس في قريتنا الأساسية «الدوايمة» هم الآن في الصف الثاني الثانوي في مدرسة عقبة جبر الثانوية فعزمتُ على العودة لتكميل الدراسة.

ذهبت الى المدرسة وقابلت مديرها وطلبت الدخول في المدرسة فأبى، وبعد أخذ وردٍّ وجدال طويل، طلب مني شهادة الصف الأول الثانوي وشهادة حُسن سُلوك.

وبعد رجاء وتوسط وافق على أن أقدم فحصًا في مقرر الصف الأول الثانوي ، وطلب من المعلمين أن يَضعوا الاسئلة فتقدمت في اليوم التالي للفحص ونجحت بفضل معلوماتي العامة، ودخلت الصف الثاني الثانوي.

وواصلت بقية الصفوف الأخرى حتى تقدمت لفحص الثانوية العامة «المترك» عام ١٩٥٥/٥٤م ونجحت، وكان ما مضى من عمري يومذاك ستًا وعشرين سنة. فتقدمت لوكالة الغوث بطلب وظيفة معلم، وحصلت الموافقة مع بداية العام الدراسي ١٩٥٦/٥٥م.

القسم الثاني

من حياتي التعليمية والسياسية

بصفتي حامل دعوة لاستئناف الحياة الإسلامية

عينتُ مُعلما في مدرسة عين السلطان الإعدادية، وكنتُ أعلم اللغة العربية والرياضيات، دعاني أحد أصدقائي وابن صفي في المدرسة التي تخرجنا منها لزيارة معلم اسمه « أحمد حسين»، فأخذ المعلم هذا يتحدث في العقيدة الاسلامية، ويبرهن لنا على وجود الخالق، فلم أهتمَّ لحديثه لأني كنت ملتزما بما تمليه عليَّ عقيدتي، ولم أفهم مُراد الأستاذ.

غير أنَّ صديقي أعلمني أنَّ المعلم هذا من حزب التحرير ويدعو إلى الإسلام، ولم أكن قد سمعت بهذا الحزب، وأعطاني كتابًا من كتب الحزب اسمه «نظام الاسلام» فصرتُ أطالع في الكتاب فأعجبني ما فيه.

وكان ذلك بعد نجاحنا في الحصول على الشهادة، وقبل تعييننا في التعليم وجاءني صديقي هذا يومًا وقال لي بأن الأستاذ « فاروق عبد العال» حضر إليَّ ومعه منشورات لحزب التحرير يُريدُنا أن

نوزعها في المساجد، وأعطاني قسما منها، فأخذتُها وأشرفت على توزيعها في أحد مسجدي المخيم. وأمَّا صديقي فأعطى حصته لشاب آخر وزعها في المسجد الثاني.

وفي اليوم التالي جاءني صاحبي وقال لي بأنَّ شاويش مخفر المخيم جاء إلى بيته يسأل عنه، وأريد أن أذهب أنا وإيَّاك، وإذا سألني عن المنشورات سأقول له: أعطانيها الأستاذ «فاروق عبد العال» لأنَّه أي «فاروق» قال لي: إذا سألك أحد عن مصدرها، فقل لهم عنِّي، فقلت له: وبهذه السهولة، أليس هو أستاذنا؟ فكيف نقول عنه؟ هل وزعت حصتك؟ فقال: وزعها الأخ خليل، فقلت: إذن بإمكانك أن تقول: ما رأيتُ من وزعها.

وعلى كل حال سأنكر أنِّي أخذتُ منك نشرات، وأحذرك من الذهاب للمخفر. فقال: سوف لا أذهب. ثم عاد إليَّ في اليوم التالي وقال: أريدُ أن أذهب فخشيتُ إن ذهبَ سيقولُ كلَّ ما حدث. فقلت له: أذهبُ معك بشرط أن لا تتكلم، واترك لي الحديث فوافق.

فدخلنا على الشاويش، وسلَّمنا عليه فبادرتُهُ بالقول: إننا نأسف لعدم تواجدنا في البيت وقت مجيئك، ونرجو أن تشرفنا مرة أخرى لعلنا نستأنس بحضورك.

فقال: أنا جئت لأنَّ بعضَ الناس وزع نشرات في المساجد، وأنا أعرف أنكما مثقفان، ولعلكما تعرفان من وزعها. فقلت: لعلها النشرة التي تتحدث عن مشروع الإسكان لجونستون، فقال: نعم، فقلت: رأيت ولدًا صغيرًا يوزعها في المسجد الشمالي، وأعطاني نشرة فقرأتها، فإذا هي طبق الأصل مع الموضوع المقرر في منهج المترك الأردني الذي درَّسناه هذا العام. فقال: هو موضوع ليس ذا أهميَّة، فأراد صاحبي أن يتكلم فقاطعته، وقلت للشاويش: أرجو أن تزورنا، فقال: إن شاء الله.

ثم أخذت بيد صاحبي وخرجنا، وشعرت أنـَّهُ مثلُ المضبوع فأردتُ أن أنسيَهُ وسَاوسَهُ، فعرضتُ عليهِ أن نخرجَ من أريحا إلى منطقة الخليل، فقال: ما معه إلاَّ عشرون قرشًا، فقلتُ لهُ: معي دينار فوافق.

فانطلقت به إلى «مُخيم العروب»، ثمَّ « قرية سعير» ثم إلى « منطقة إيدون» حيث كروم العنب، ثمَّ إلى « الخليل» ثمَّ إلى « دورا» ثمَّ إلى « دير سامت» ثمَّ إلى « قصتين» ثمَّ إلى « إذنا» ثمَّ عدنا إلى الخليل، فأريحا، واستغرقت رحلتنا ستة أيام، ولم أصحبه بعدها.

كنت أطالع في كتاب « نظام الإسلام » وأجمع بعض النـَّاس وأسمعهم ما في الكتاب دون أن أعرف أحدًا من « حزب التحرير».

وكنت أدرِّس في المدرسة، وأناقش معلمًا ينتمي إلى «الحزب الشيوعي». وكثيرًا ما كان يُفحمُني فأعود إلى دراسة كتاب « نظام الإسلام » وأعود إلى مناقشته وإفحامه.

وبعد فترة جاءني معلم من « مخيم النويعمة » وجمعني مع أربعة أشخاص، وأخذ يدرسنا في الكتاب. وصرت أنقل ما في الكتاب من أفكار إلى طلاب الصفوف التي أدرسها، وأناقش فيها المعلمين.

وشاع اسمي في المدرسة بين الطلاب والمعلمين وفي المساجد وعلى المقاهي، وأثناء الدعاية لمُرشحي الحزب في الانتخابات النيابية، وعرفت عنـِّي سلطاتُ الأمن وصِرتُ مُراقبًا في تحركاتي.

تعرفت فيما بعد على الشيخ « حسن سلطانة » وكان يعلم في مدرسة هشام بن عبد الملك في أريحا، وتعرفت كذلك على الأستاذ « محمد الرابي » وعلى الأخ « أحمد ياغي » وصرنا ندرس في حلقة يشرفُ عليها الشيخ « حسن سلطانة » وتحزبت على يده.

أول ملاحقة من رجال الأمن

جاءتني مجموعة من كتيبات تحتوي على البيان النيابي الذي ألقاه نائب حزب التحرير الشيخ « أحمد الداعور » رحمه الله تعالى في مجلس الأمة الأردني.

وكان عندي موعد تدريس حلقة في « مخيم النويعمة » فأخذت الكتيبات وذهبت على الأقدام، ولمَّا صرتُ على الجسر الذي يربط « مخيم عين السلطان» بـ « مخيم النويعمة » لحقتني سيارة أمن مخيم النويعمة وفيها شاويش مخفر مخيم النويعمة، وحارس المخفر، وسائق.

فقال الحارس للشاويش: هذا هو، وأشار إليَّ، فطلب الشاويش من السائق أن يقف، فاعتذر السائق لكون الطريق حادة الارتفاع، فعدلتُ عن الطريق واتجهتُ نحو وسط المخيم ولقيني أحد أفراد الحلقة، فأعطيته الكتيبات فانطلق بها نحو المخيم.

فنظرت نحو المخفر، فرأيت الشرطة والحارس يراقبونني، فأرسلوا الحارس ليراقب أي بيتٍ سأذهب إليه، فدخلتُ المُخيم، ووصلت البيت، وطلبت من أعضاء الحلقة أن يخرجوا بسرعة ويذهبوا إلى بيت آخر.

فخرجوا، وبعد دقائق خرجتُ ومعي صاحب البيت وإذا بالحارس يُراقبنا عن بعد، فقلت لصاحب البيت: انظر إلى الحارس ليصرف عنا وجهه، وليشعرنا أنـَّهُ لا يُراقبنا، وقلت له: لا تلحقني بل ادخل بيتك .

فنظر إلى الحارس فأدار الحارس بوجهه فانطلقت بسرعة ودخلت دخلة توصلني إلى البيت الآخر، وهناك درَّست الشباب، فلما انتهى الوقت، خرج أحد الشباب واسمُهُ عبدُ الرَّحمن ليستطلع الخبر فعادَ مُسرعـًا وهو يقول: الشرطة طوقت البيت الأول، واعتقلت

مجموعة من الطلاب والأستاذ الدريدي، والأستاذ عوني عطية وإبراهيم صاحب البيت واستغربنا الخبر حيث لم يكن أحد في البيت، فمن أين جاء هؤلاء؟

فخرجتُ وسلكتُ طريقًا خفية، وعُدتُ إلى بيتي في «مخيم عين السلطان» وغيرت بدلتي الحمراء ولبست غيرها، وعدت في نفس الليلة إلى بيت إبراهيم في النويعمة لأستطلع الخبر من مدير مدرسة مخيم النويعمة، والذي كان يسكن في نفس البيت. فأخبر أنَّ الأستاذ والطلاب كانوا يتمشون على الطريق، فجاءوا لزيارة إبراهيم بعد خروجك من البيت، وذهابك للحلقة، فذهب الحارس وأخبر الشرطة بأنـَّك في البيت لأنـَّهُ لم يرك حين خدعته وذهبت، وبمجرد أن دخل أبو هاني «شاويش المخفر» سأل عنك فقال: أين صاحب البدلة الحمراء؟ فقال له إبراهيم: خرج من هذا الثـقب استهزاءً به، فلمَّا لم يجدك أخذ الموجودين لمركز أريحا.

النقل إلى مدرسة العوجا

بعد عام في مدرسة عين السلطان نقلت إلى مدرسة العوجا. وكان مديرها يتعاون مع الأمن، ويحاول أن يُبعدني عن الصفوف العليا في المدرسة، فحصل بيني وبينه خلاف شديد بعد استدعائي من قبل القائمقام يحذرني من الاختلاط بطلاب مدارس عين السلطان، ويطلب مني عدم الوقوف على الطريق.

وبعد شهرين من الدوام نقلت إلى مدرسة الكرامة الإعدادية وبعد شهرين من الدوام نقلت إلى مدرسة النويعمة، داومت فيها فترة ما بعد الظهر، وشرحت للطلاب درس تاريخ وقلت لهم: لعلي لا أدرسكم ثانية.

وفـي اليـوم التـالي درَّسـت الفتـرة الصـباحية وجـاءنـي نقـل إلـى المدرســة الابتدائيــة فــي الكرامــة، ذهبــت إلــى مــدير التعلــيم ((عيسى عطا الله)) ووجـدت عنـده التعقيـب ((فـارس طلاعـة)) وأغلظـت في الكلام لمدير التعليم، وقلت لـه: أهذا الذي يأمرك بنقلي هنا وهناك؟

وصـدر بحقـي وبحـق ((أحمد ياغي)) قـرار مـن ((حسـن الكاتـب)) محافظ القدس بإثبـات الوجـود لمدة سنة. ولمَّـا نـُقلت إلـى الكرامـة فـي المرة الأخيرة ذهبت مع المدير وبقية المعلمين إلى مقهى المخيم، وإذا بجميع معلمي مدارس الكرامة في نفس المقهى، وكان في المقهى قائد الأغـوار ((إبـراهيم المبيضـين))، وبمجـرد أن جلسـت وإذا بـه يوجِّـهُ سـؤالاً ويقـول: أأنـت الـذي تريـد أن تقـيم دولـة اسـلامية؟ فقلـت لـه: أوَتكرهُ أن تقوم دولـة إسـلامية؟ فقـال: لا، فقلت لـه أيضـا: وهـل لرجـل واحد أن يقيم دولـة؟ فقـال: لا، ولكـن بتعـاون الآخـرين، فقلـت لـه: إذن أنت معي.

قال: ولكن لـيس عـن طريـق الحلقـات والنشرات، وإنـَّما بفـتح مـدارس وتعلـيم النـاس، فقلـت لـه: وهـل قصَّـرت الدَّولـة فـي فـتح المدارس؟ فقال: لا.

فنادى ((القهوجي)) وطلـب لـي فنجـان قهـوة فاعتـذرت، وإذا بـه يسـحب الطاولـة، ويجلـس ومعـه ثلاثـة مـنهم مـدير مدرسـتي ليلعبـوا الورق.

ولمـا طلبـوا مـن القهـوجي أن ينـزل لهـم طلبـات، قـال قائـد الأغـوار: نـزل طلـب للاسـتاذ يوسـف، فقلـت لـه: كنـت للطلـب الأول شاكرًا، أمَّا للطلب الثاني فآسف لأنه حرام!

فصـار المعلمـون يعضـون لـي علـى أصـابعهم، وكـأنَّ علـى رؤوسهم الطير. فقال القائد: نصـحتك، وإن وقعت بـدبرك((أي أدبـرك)) فقلت: ما ينزل من السماء تتلقاه الأرض.

الاعتقال والسجن في سجن مدينة السلط

عندما انتقلت إلى الكرامة بدأت نشاطي داخل مخيم الكرامة وتمكنت من إقناع كل من الأستاذ «عبد الرحيم لافي» والأستاذ « محمد غيث». والتاجر « محمد حسنين» الذي كان شرطيا أيام الانتداب البريطاني في فلسطين.

وذهبنا جميعًا إلى بيت الأستاذ « محمد الرابي » ليدرسنا في حلقة. ولسوء الحظ رآنا فراش مدرسة وكان يعمل مُخبرًا لمخفر الكرامة، فوشى بنا لقائد الأغوار « إبراهيم المبيضين» فجاء هذا بدوره، ومعه سيارة شرطة فطوقوا البيت وأودعونا سجن السلط انتظارا لمحاكمتنا أمام المحكمة العسكرية العرفية.

بتنا ليلة أو ليلتين في النظارة، وكانت درجة الحرارة في تلك الليلة صفرًا، فكانت أصعب ليلة قضيناها في حياتنا، ولم يكن معنا شيء نفرشه لنجلس عليه، أو نلبسه أو نتغطى به، فجلستُ متربعًا على أرض الغرفة المصبوبة بالإسمنت.

ونام الأستاذ «عبد الرحيم » مستلقيًا على ظهره، ورأسه على فخذي الأيمن، والأستاذ الرابي كذلك رأسه على فخذي الأيسر فأحسست بانجماد الجزء الأسفل من جسمي، وطلبنا من الشرطة بعض البطانيات ولكن دون جدوى.

ثم أخذتنا الشرطة في اليوم التالي لمحافظ السلط فتلطف بإدخالنا السجن وأدخلونا في غرفة ليس فيها إلاّ طنجرة وكردل كما يسميه المساجين، فنظرت في الطنجرة المملوءة بالماء للشرب فإذا سطح الماء مغطى بالقمل، وأمَّا الكردل فمُعدٌ لبول المساجين.

وأعطونا ثماني بطانيات، ولكننا لم ننم تلك الليلة إلا القليل فاحتلمت في الليل، ولمَّا أخرجونا الساعة الثامنة صباحًا من الغرف لنذهب إلى الحمامات نقضي حاجتنا، دخلت حمامًا، وخلعت ملابسي

لأستحم وأرفع الحدث، واذا ببعض الحنفيات قد جمد فيها الماء ولا تنزل إلاّ القليل من الماء.

فوضعت الإبريق تحتها طويلا حتى امتلأ، وتوضأت منها ثم رششت جسمي بالماء، فصرتُ أقفز وأقفز من شدة برودة الماء، ونزل الدم من رأسي، ثم لبست ثيابي وخرجت.

وفي اليوم الثاني توسط لنا أحد المساجين واسمه «عبد العزيز عربيات» فنقلونا لغرفة مفروشة، وليس فيها إلاّ سجينٌ نصراني من الفحيص، فقضينا فيها سبعة وثلاثين يومًا، ثم عُرضنا على المحكمة العرفية العسكرية في العبدلي.

وألقى المدعي العام مقالة مُدعيًا أننا قمنا باجتماع غير مشروع، وضُبط معنا كتبٌ لحزب التحرير المحظور، وتقدم الرئيس « إبراهيم المبيضين» فأدلى بشهادته قائلا:

جاء يوسف السباتين من منطقة أريحا إلى منطقة الأغوار لإحدى مدارس الكرامة، وأرسل إلينا تقريرٌ يطلبُ منَّا مراقبته، وبمجرد أن وَصَل إلى الكرامة أخذ يعيث في المخيم فسادًا واستطاع أن يقنع هؤلاء بفكرته. وعند اجتماعهم أول اجتماع غير مشروع كنا له بالمرصاد فاعتقلناهم، وهاهم بين أيديكم.

وسأل رئيس المحكمة إن كان أحد منكم يريد أن يعترض على شهادة الشاهد، فقلت: أنا ، فأذن لي فقمت وسألت الرئيس «إبراهيم المبيضين»: هل الذي يقوم باجتماع غير مشروع يكون متوجسًا أو مُطمئنًا؟ فقال: يكون متوجسًا. قلت: حينما جئتم بسيارة سمعنا صوت موتورها وحركة عجلاتها، ووقع خطاكم ببساطيركم فلم نحرك ساكنا، ولو كنا في اجتماع غير مشروع لهربنا بمجرد سماعنا لخطاكم، بل كنا جالسين مطمئنين.

ولمَّا قرعت أنت الباب انتظرتَ طويلاً حتى فتحنا لك الباب. ولمَّا دخلتَ الغرفة التي كنا جالسين فيها دخل صاحب البيت من باب الغرفة الآخر يحمل صينية القهوة، وعرضها علينا.

فقلت أنا له أعط البيك، فرفضت أنت، وعرضتُ عليكَ أن تجلس فأبيت، فقلتُ لك: إذاً ماذا تريد فأخذت تفتش في الكتب الموجودة على الطاولة فوجدت هذا الكتيب بين تلك الكتب ولكم يكن بأيدينا.

وأمَّا ادعاؤك بأننا كنا ندرس فيه فإني أسألك كيف عرفت أننا كنا ندرس فيه؟ قال: كنت أسمع من الشارع، قلت: أكنت بَعيدًا عن الشباك أم كنتَ خلفهُ مُباشرة؟ قال: كنت خلفه مباشرة، قلت: الشباك من خشب وليس من زجاج أليس كذلك؟

قال: نعم، قلت أكان الشباك مغلقا أم مفتوحا؟ قال: بل كان مغلقًا قلت: إذا ً لم ترَ بعينيك، بل سمعت بأذنيك. قال: نعم، قلت: كنا نسأل الأستاذ الرابي عن درس الدين الذي شرحه للطلاب فأعاده لنا، هذا الذي كنت تسمع؟ فقال رئيس المحكمة: إذا ً لم يكن اجتماعهم غير مشروع، فقال المبيضين: لا أدرري.

تقدم المدعي العام وسأل «محمد حسنين»: أنت تاجر ما الذي جمعك مع هؤلاء المدرسين، قال: جئت لوالد الأستاذ الرابي زيارة، وكنا نتحدث عن أيامنا الخوالي في البلاد، فجاء هؤلاء وأخذوا يتحدثون عما يُواجهونه من الطلاب، فقال المدعي العام: ماذا تبيع؟ قال أبيع فجلاً وخبيزة.

فقال: أتقرأ؟ قال: لم يعلمني والدي الكتابة، فناوله قلما وقال: وقع هنا على ورقة، فسرعان ما وضع حسنين إبهام يده على لسانه، وأخذ يُعدُّه للبصمة، فأخذ المدعي القلم منه ووضع أصبعه على

البصـامة وقـال: ابصـم هنـا، فقـلـب حسـنين إبهامـه، فقـال المـدعي: لـم توقّع على معاملة؟ قال: كنت راعيًا، ولا أعرف توقيعًا.

فبرأتنا المحكمة ما عدا ((محمد الرابي)) فحكمته بعشرة دنـانير لحيازته كتابًا ممنوعًا؟ ثم أفرج عنّا، وعدنا إلى أعمالنا.

فرض الإقـامة الجبريــة عام ١٩٥٨م

في العطلة الصيفية لذلك العام كنت أصيف في الخليل، التقيت ذات يوم بالأستاذ ((أحمد ياغي)) في القدس، وهو أحد الشباب النشطين فـي ((مخـيم عقبـة جبـر)) فـأخبرني أنـي وإيّـاه حكمنـا محـافظ القـدس ((حسن الكاتـب)) بالإقامـة الجبريـة لمدة سنة غيابيًـا، وقـال: لا تـذهب لأريحا حتى تنتهي العطلة، وكان في طريقه إلى مصر. وعندما انتهت العطلة ذهبت إلى الكرامة، وصرتُ أثبتُ وجودي في المخفر كل يوم.

تقدمت بطلب نقل من الكرامة، فتقرر نقلي إلى عمـان، فذهبت إلى القدس، وطلبتُ رفع الإقامة الجبرية فرفعت، وعينت فـي مدرسـة ابتدائية في المحطة، وبعد أسبوع نقلتُ إلـى مدرسـة وكالـة الغوث فـي السلط.

دعاني مدير المدرسة الأستاذ ((هاشم هديب)) لطعـام الغداء فـي بيـت الأسـتاذ ((قسـطندي)) وهـو نصـراني بعثـي ومعـه أسـتاذ آخـر نصـراني بعثـي، وهم أصـحاب هاشـم، وهم معـه أعضـاء فـي حـزب البعث.

وكان هاشم يعرف أنني عضو في حزب التحرير فـأرادوا فـي جلسة الغداء أن يعزلـوني عن أهل السلط، فوصفوا أهل السلط أنهم جهلـة وذووا عقـول خشـنة، ولا صـحبة لهـم، ويشـبهون أهـل مدينـة الخليـل، والأفضـل للإنسـان أن لا يخـالطهم ولا يتقـرب مـنهم، مـع أنَّ

المُضيف لي الأستاذ قسطندي سلطي، فعرفت مغزى حديثهم، وحكمت عليهم بأنهم سخفاء، وخاصة هاشم الذي يعرفني جيدًا.

خرجت من عندهم وسألت رجلاً عن بيت المرحوم الأستاذ ((أحمد عربيات)) فدلني عليه، وما إن قرعت جرس البيت وخرج بنفسه إليَّ، وعرفت بنفسي وكان يُدرِّسُ في حلقة فقال لي: استلم الحلقة وواصل تدريسها. وبعد أسبوع دعيت من قبل الأخ التحريري ((محمد شعبان العطيات)) لمناسبة تناولنا عنده طعام.

وفي اليوم الثاني كنا نتذاكر في المدرسة موضوع الولائم في المناسبات فذكرت للبعثيين بأني دُعيتُ لمناسبة قدِّم لي فيها الطعام في مناسف، فسألوني: عند من؟ وفي أي بلد؟ فقلت لهم: في السلط فقالوا: تُدعى لتناول الطعام في منسف، ولم يمض على وجودك في السلط إلاَّ أسبوع، ولنا ثلاث سنوات ما دعينا لأي مناسبة؟

فقلت لهم لمفاهيمكم المغلوطة عن أهل السلط، ولانعزالكم وانطوائكم على أنفسكم، فأهل السلط نعم مثلهم مثل الخليل في الشهامة والكرم وطيب المعشر.

لم يمض عليَّ فصل دراسي إلاَّ وهم يتآمرون عليَّ يُريدون ضربي، فيخرج ((هاشم)) الصديق القديم قبل نهاية الدوام حتى لا يتهم بالتآمر، وكانت عندي آخر حصة فلمَّا خرجتُ وذهبت إلى غرفة المعلمين، واذا بالمعلمين النصرانيين البعثيين في الغرفة ينتظراني.

وبمجرد أن دخلت أغلق أحدهم باب الغرفة، ووجَّه لي السؤال التالي: إنكم تقولون إنَّ المسيحيين كفار، وليس عندكم دليلٌ من القرآن؟ فقلت له: اسمع هذه الآيات من القرآن التي تصمكم بالكفر فقرأت قول الله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة﴾ وقوله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح بن مريم﴾.

وكان بجانبي على الطاولة فرجار اللوح الذي يزيد طوله عن نصف متر، فأمسكت به وأخذت مسطرة اللوح التي يبلغ طولها المتر ثم قلت له: افتح الباب الذي أغلقته وإلاَّ واللهِ لا تجد مفرًا إلاَّ أن تلقي بنفسك من على البلكون إلى الشارع فتتحطم!

تحسبني الأستاذ المسكين الذي فتشتموه عند خروجه متهمينه بسرقة الجرابين التي تطلبونها من بعض المؤسسات للطلاب وتبيعونها يا لصوص؟

فقال المعلم الآخر: افتح الباب، لا حاجة لمثل هذا. ففتح الباب وخرجت، ولمَّا عُدتُ إلى البيت هجوت البعثيين بقصيدة عنوانها: ((حقيقة البعث)) سنعرض لها بعد قليل.

وحصلت مشاكل كثيرة معهم ومع أهالي الطلاب اتهموهم بالخيانة، وعلى إثرها جاء ((عيسى عطا الله)) وتفقد محتويات المدرسة وعلى إثرها قدَّم تقريرًا بفصل الأستاذ هاشم، ولكن الوساطة أبقته معلمًا لا مُديرًا.

(١٩٢٨م)

حقيقة البعث

خابت الآمالُ في بعثِ العربْ ... ليس في هذا القول من ريبْ
هل عجبتم من أناس حاربوا الدِّ ... ين كرهًا واستعانُوا بالنَّسبْ
واشمأزوا إذا دُعُوا للحقِّ يومًا ... فقالُوا: إنَّنا نحنُ العَرَبْ
واستعادوا ذكريات قد خبتْ ... في عهود الجاهلية والطربْ
لم يَعُوا من غيهم إذ قدَّسُوا ... ما قدَّس الأعراب في عهد غربْ
قدَّسوا الأشخاص من سُخفٍ بهمْ ... قدَّسوا الطاغوت من أهل الرِّيَبْ
خابت الأنصابُ لمَّا قُدِّستْ ... صفـَّقُوا من أجلها بئس الأربْ
بعقولٍ فارغاتٍ فكَّرُوا ... وقلوبٍ خاوياتٍ تضطَّربْ
برُؤوسٍ واجماتٍ صَوَّتـُوا ... اهجُروا الإسلام ذا الدين الكذبْ
واستعينُوا بالعُرُوبَةِ إنَّها ... نخوة الكفاح منها بو لهبْ

ذاك للطاغوت يبقى ساجدًا أمَّا بو جهلٍ يُنادي يا عربْ
استعينُوا بالنَّصارى إنَّهمْ عربُ الأنسابِ منَّا والحَسَبْ
وأنكِرُوا الإسلامَ لو سُدتُم بهِ واتركُوا القرآنَ إذ فيه العطبْ
هل تناسَوُا الحقَّ أو أعماهُمُو ما تلاهُ الغربُ من سُمِّ الأدبْ؟
ليتهُم في غيهم لو أبصرُوا شأن أرضٍ كلَّ يومٍ تُستلبْ

دورة خضوري التربوية

اعتقالي وسجني شهرًا ونفيي للخليل ستة أشهر

في صيف العام الدارسي ١٩٥٨م دعيت لحضور دورة تربوية في مدرسة خضوري الزراعية في طولكرم ، اتصلت أثناء وجودي في الدورة بشباب الحزب في البلدة ليوافوني بالنشرات إذا حصلت.

فبعثوا إليَّ نشرة بعنوان: ((سياسة التجهيل)) فوزعتها على المعلمين الذي يحضرون الدَّورة، وعددهم مائة وخمسون وأعطيت نشرة لأحد شباب الحزب واسمه ((إسحاق الطيطي)).

ووزعت في الأسبوع الثاني نشرة بعنوان: ((إلى متى يظل الناس في السجون؟)) وأعطيت مجموعة منها لأحد الشباب في الدورة واسمه ((عزالدين عيده)) ووزعنا ما كان معنا من نشرات، فأعطى ((عزالدين عيده)) النشرة لمعلم بعثي فأوصلها بدوره إلى مدير الدورة فاستدعى المخابرات، وحققوا مع ((عزالدين عيده)).

وقبل أن يأخذوه أخبرني بالأمر، فقمت بدوري وجمعت ما وزعتُ، ونزلت إلى حرش المدرسة وأخفيتُ النشرات، ونسيتُ نشرتين في ((جاكيتي)) أي معطفي.

وكان بحوزتي كتاب ((نظام الإسلام)) وفي الصباح الباكر، وقبل قيام المعلمين من النوم، خرجت من المدرسة، وذهبت إلى البلد،

وحذرت الشباب هناك وأخبرتهم بما حصل، وعدت على الفور إلى المدرسة.

وجاء رجال المخابرات، وأخذوا يفتشون أوعية المعلمين وسررهم، فأخرجتُ كتاب ((نظام الإسلام)) ووضعتُه تحتي على السرير، وفتحتُ ((الشنطة)) أي الحقيبة للتفتيش، وكلما كانوا يفتشون كتابًا كنتُ أضعه بجانبي على السرير فلما انتهوا من تفتيش الشنطة أخذتُ الكتب، ومن ضمنها كتاب ((نظام الإسلام)) وأعدتها إلى الشنطة.

وقمتُ عن السرير ففتشوه فلم يجدوا شيئًا، ولمَّا فتشوا أوعية ((إسحاق الطيطي)) وجدوا لديه نشرة ((سياسة التجهيل)) فحققوا معه فادَّعى أنَّه لم يقرأها، ويظنها من الأوراق التي توزع على المعلمين في الدورة التربوية، واعترف بأنني أنا الذي أعطيته إيَّاها.

فاستدعوني للتحقيق وسألوني: أأعطيته النشرة فانكرت؟ ظنًا منّي أنَّها نشرة: ((إلى متى يظل الناس في السجون؟))، فقال لي: بل أعطيتني إياها.

فقلت: أرونيها، فقرأوا عنوانها، فأدركت أنَّها غير التي نحن بصدد توزيعها، وخشيتُ إن أنكرت أن يكشف ((إسحاق الطيطي)) بقية الشباب لما ظهر عليه من ضعف، فاعترفتُ لأحصر الأمر في شخصي فقط.

فأرادوا أخذنا، وكان الجرس يقرع للفطور، فقلت للمخابرات نريدُ أن نُفطر فسمحوا لنا بذلك، فدعوت إسحاق ليدخل معي للفطور فأبى، وظلَّ واقفًا حزينًا، فدخلت وطلبت من النادل ((السفرجي)) أن يحضر لي حصص ثلاثة أشخاص، فاستغرب المعلمون، وقدَّم كلٌ حصته فرفضتها، وقلتُ لهم: أتدرون من هم الثلاثة؟ إنهُم أنا وإسحاق

وعزالدين الذي اعتقلته المخابرات في الليل نتيجة تجسس فلان وفلان البعثيين، فاحذروهما.

فخرج الاثنان من قاعة الطعام وهربا من الدورة، وبعد الفطور أخذوني وإسحاق إلى السجن، ووضعونا في النظارة، وقلت لإسحاق: إيَّاك أن تغير من إفادتك، وقل: أعطانيها يوسف السباتين، ولا تزد ولو حرفًا واحدًا.

وأريته النشرتين اللتين معي فقال أين تريد بهما؟ قلتُ لمن في السِّجن فسكتْ، واستُدعي وحُقـِّق معه، ثم استدعيتُ وجاء ضابط للتحقيق معي، فبدأ يسأل وأنا أجيب فقال: أأنت اعطيت النشرة لإسحاق؟ قلت: نعم، قال: من أين جئت بها؟

قلت أعطانيها رجلٌ يُصلي يَوم الجمعة في المسجد. قال: أهو الخطيب؟ قلت: لا، قال فمن هو؟ قلت: أنا لستُ من سكان البلدة، ولا أعرف كلَّ الناس.

قال: صفه لنا، قلت: رجلٌ يتحركُ بسرعة، فلم أتحقق من صفاته. قال: أأشقراني هو؟ «أراد خياطـًا»، قلت: لا، قال: أطويل هو أم قصير؟ قلت: وسط.

قال: أتستنكر حزب التحرير؟ قلت: لا، فقال لعسكريين كانا عنده خذاه، فأمسكاني، وذهبا بي فسألتهما: إلى أين؟ قالا: إلى الإسطبل، لتقول من أعطاك النشرة.

فأدركت أنهما ذاهبان لضربي، فقلت: إعيداني إليه ،فأعاداني فقلت له: ما الذي تريد؟ قال: تقول من أعطى لك النشرة؟ قلت: قلتُ لك لا أعرفه، فتناولني بكفٍّ يريدُ به وجهي، فهبطتُ فأخذاني فثنى عليَّ بركلة من رجله، فقفزت إلى الأعلى ولم يصبني!

فالتفت وقلت له: لن تسمع مني غير الذي سمعت، وافعل ما تشاء، فقال: خذاه إلى النظارة، فوجدت الأستاذ إسحاق جالسًا حزينًا متأملاً أن يُطلقوا سراحه.

وبعد برهة استدعوني مرة ثانية للتحقيق، فلما دخلت على الضابط وإذا هو يدخن « أرجيلة » وامامه فنجان قهوة. قلت: الآن يُمكننا أن نتفاهم، فقال: أريد أن أسألك مرة أخرى، فقلتُ اسأل فسأل نفس الاسئلة، وسمع نفس الأجوبة.

فقال للعسكريين: أعيداه للنظارة. ومن النظارة أدخلونا السجن، فمكثنا فيه خمسة عشر يومًا.

وطلبوا منا الاستنكار، فاستنكر صاحباي، ولم استنكر، ثم سمح المتصرف بكفالتنا، فذهب والدي لقرابة لنا ليكفلني فأبى، فأخبرني والدي فقلت له: لا تتعب نفسك، فلا حاجة للكفالة، لأنني لم أستنكر.

وجاء أهل صاحبيَّ باستنكارايهما وبكفالتيهما، وقدماهما للقائمقام وأخرجا ولديهما، فسأل أحد إخوة «عزالدين عيده» واسمه «جمعة»: هل حصل يوسف السبايتن على كفالة؟ فقال له أخوه: لم يحصل، فقال «جمعة»: لن أغادر هذه البلدة حتى أدبِّر له كفالة.

فذهب إلى تاجر في طولكرم « من آل الزغير»: وطلب منه أن يكفلني فكفلني فخرجت. وكانت الدورة قد انتهت. ثم عُدنا للمحاكمة أمام المتصرف « إدريس التل » فحكمنا بالسجن شهرًا واحدًا، وبالنفي إلى الخليل ستة أشهر.

وبعد الخروج من السِّجن ذهبت إلى الخليل، ونزلت في فندق، ثم قدمت طلبًا للمتصرف « إدريس التل » بالسماح لي بالعودة إلى العمل فكان جوابه بعدم العودة للعمل، واحتفظت بكتابه في جيبي.

كان والدي يسكن مخيم عين السلطان في أريحا وزوجتي وابنتي عنده،[١] فجاءني ذات يوم ومعه ابن عمٍّ لي وطلبا مني التوقيع على الاستنكار، وسيعيدني رئيس الوزراء إلى عملي، فأبيت وقلت لوالدي: إن كان لي رزق عند وكالة الغوث سأحصل عليه بدون «بهجت التلهوني» وبدون استنكار، واذا لم يكن لي رزق عندها فلا «بهجت التلهوني» ولا غيره يأتيني برزق منها.

وكنت قد طلبت لهما قهوة فقاما غير راضيين، ولم يشربا القهوة، ونزلا من الفندق وعاد والدي إلى أريحا بعد أن هددني بأنَّه سيطرد زوجتي من بيتها.[٢] وجاء صاحب القهوة فأخذ الفناجين، ولم أجد معي قرشين أعطيه ثمنهما، فطلبتُ من صديق أن يعطي صاحب القهوة قرشيين.

فصعدتُ إلى سطح الفندق، وصليتُ العصر، ودعوت الله: يا رب إنَّك تكفَّلت بالرزق، وأنت أعلم بالحال. ثم علمت أن مُدير التعليم في وكالة الغوث «سلامة خليل» طلبني.

فذهبت لمسؤول الأمن في الخليل لآخذ تصريحًا بالذهاب إلى عمان، فلما قدمت الطلب نظر الشرطي فيه، فطلب مني تغيير صيغته

---

[١] كانت أمِّي تقيم مع أبي في السلط على رأس جبل من جبالها، وعندما اعتقل أبي جاءت قوة مسلحة كبيرة أحاطت بالجبل، ودخل قسم منها إلى البيت، ولم يكن فيه إلا أمِّي، وأنا كنت طفلةً رضيعةً، وفتشوا البيت بحثًا عن أوراق وكتيبات ومنشورات، ولكنهم لم يجدوا شيئًا لأنَّ أبي أخفاها في فناء المنزل، وقد وقفت أمي مذهولةً مرعوبةً، أسنانها تصطك ببعضها وقد أصابتها رعدة شديدة.

وبعد أيام جاء عمَّايَ وأطلعتهُم أمِّي على مكان المنشورات، فقامُوا بحرقها جميعًا ثم أخذونا لنقيم مع العائلة في أريحا.

[٢] هذا غيض من فيض مما كان يتعرض له شباب الحزب من معاداة، ورفض سواء من قبل الأهل خوفاً على أولادهم من السجن والتعذيب والملاحقة الأمنية، أو من قبل المجتمع، بل إنَّ كثيرا من الشباب كانوا يُضربون في الشوارع من قبل الحركات الشيوعية والنَّاصرية وحتى الإسلامية.

إذ ليس فيه كلمة ((سيدي)) وليس فيه ما يشعر بطلب الاستعطاف، فأبت عليَّ النفس بتغييره، فأعدته كما هو فقال: من كتبه؟ قلت أنا فظن أنني لا أعرف غير هذه الصيغة فقبله، وبعد قليل غادر الشرطي، وجاء الموظف المسؤول فناداني وقال: قدَّمت كفالة للمغادرة؟

فقلت: أما لهذه المرة فلا، ولكن قدَّمت في المرة الأولى، فأدخل الاستدعاء إلى ضابط المخابرات، فطلبني بدوره وطلب هويتي فوجدني من سكان أريحا، فنادى الموظف وقال: هذا من سكان أريحا. فقلت له: أنا معروف هنا، وقال الموظف: سيدي إنَّه معروف.

وكان النائب ((اسماعيل حجازي)) عند الضابط فقال: إنَّه معروف، ولم يكن يعرفني شخصيًا، بل كان يعرف اسمي فقط لأني كنت أبعث له نشرات الحزب مع ابن أخ له.

فقال الضابط: معروف، معروف، وأنا أقول: معروف، وسمح لي بأسبوع، مع العلم أنَّهُ لم يكن يسمح لي بأكثر من يوم واحد، فمررت بأحد التجار من الشباب اسمه ((يونس قنيبي)) وقلت له: أعطني نصف دينار، فأنا لست حاملاً للنقود، وركبت الباص بخمسة وعشرين قرشًا إلى عمان.

وهناك ذهبت لمقابلة مدير التعليم فبادرني بالقول: أجئت؟ لقد جاءنا كتاب من المتصرف ((إدريس التل)) بالسماح لك بالعودة إلى العمل ، وكان كتاب ((إدريس التل)) بعدم السماح لي بالعودة إلى العمل موجودًا في جيبي فلم أجبه على سؤاله، وقلت له: لقد بعثت إليكم بقرار الحكم . فقال: قرار الحكم يفيد أنك لا زلت في السجن. فقلت له ألم أقابلك بعد خروجي من السجن؟

فقال: هذا فهم الإدارة. فقلت أين هي؟ قال في الطابق الأدنى. فنزلت وقابلت مدير الإدارة، فقال: أجئت بكتاب يسمح لك بالعودة للعمل؟ فقلت بعثت لكم بقرار الحكم، فقال: يفهم منه أنك لا زلت في

السجن. فأخرجت له جواز سفري، وقلت: أنا يوسف السباتين فهل يُعقل أن أكون عندك، وفي السجن في آن واحد؟ فقال اقتنعت. ثمَّ طلب من مدير التعليم أن يُعيدني إلى عملي في الخليل لكوني منفيًا.

فقلت له معي اثنان، فاتصل بمدير التعليم مرة ثانية وقال: اعتبر الآخرين مثله. بعثتُ في نفس اليوم لوالدي بعودتي للعمل فسُرَّ بذلك، وقال: لن أعارضه أبدًا.

تعييني نقيبا للجنة المحلية للحزب في الخليل

بعدما انتهيت من مشكلة سجن طولكرم، وبعد عودتي للتعليم واصلت نشاطي الحزبي في مدينة الخليل، فكلفني الحزب بالإشراف على منطقة الخليل، وعينني نقيبًا للجنة المحلية.

فكنت أصلي الصبح في الحرم الإبراهيمي، وأعطي درسًا بعد الصلاة، ويلتفُّ الناس حولي ليسمعوا مني ما أقوله باسم الحزب في الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع والحكم.

وكنت أعمل لكل مجموعة من الشباب جلسة خاصة، لزيادة توعيتهم الثقافية الحزبية، ولحضهم على زيارات الناس ودعوتهم للانتماء للحزب، وتوزيع النشرات وكنت اتفقد الحلقات «حلقات الدراسة» والتي هي أهم شيء بالنسبة للحزب.

كنت أود الانتساب لكلية الشريعة جامعة دمشق فقال لي بعض الناس: إنهم يطلبون من المنتسب الحصول على التوجيهي المصري. فدرست التوجيهي، ونجحت فيه ولكن عند الانتساب قبلوا بشهادة الدراسة الثانوية للأردن والتي كانت آنذاك تسمى «المترك».

كانت مشاكلي مع « عيسى عطا الله » مدير التعليم مشاكل عويصة فكان يتعقبني، ويحاول أن يمسك عليَّ أخطاء لعله يتمكن من فصلي من التعليم فقد كان نصرانيًا حاقدًا، ولكن محاولاته باءت كلها بالفشل.

مُدَّعي المحمكة العرفية العسكرية في القدس
((فائق الغضبان)) يحقق معي

في عام ١٩٦٤ دشنت الصخرة المشرفة في القدس، وجاءت الوفود من كافة الأقطار الإسلامية للاحتفال، وتهنئة الأردن بتلك المناسبة، فدعا الحزب كثيرًا من شبابه للقاء في المسجد الأقصى، وقرَّر زيارة الوفود الإسلامية، وإبلاغهم الدَّعوة لاستئناف الحياة الإسلامية، والكشف لهم عن عدم جدوى الاحتفال بالصخرة، وليت النقود التي صرفت عليها صرفت في شراء الأسلحة لحمايتها، ووزع الشباب كل اثنين لزيارة وفد، وكان نصيبي و((عبد الرحيم المحتسب)) الوفد السوداني، وتمَّ تزويدنا بالأفكار التالية لعرضها عليهم:

١. إنَّ حكام الأردن جواسيس لليهود في البلاد العربية.
٢. إنَّ حكام الأردن نواطير لإسرائيل على الحدود.
٣. تقدم اليهود في منطقة الطوري ٤٠٠م على مسمع ومرأى من الحكومة الأردنية، ولم تحرك ساكنًا.
٤. بغير قيام دولة الخلافة تبقى هذه المشاكل بغير حل.

ركبت أنا و((عبد الرحيم المحتسب)) سيَّارة أوصلتنا الى فندق الانتروكنتال حيثُ يقيمُ الوفدُ السوداني، وهناك اعتقلنا ومسكت المعلومات معي وأودعنا سجن القدس.[٣] وجاء مُدَّعي المحمكة العرفية العسكرية ((فائق الغضبان)) للتحقيق.

---

[٣] على إثر ذلك الاعتقال داهمت الشرطة بيتنا في الخليل، وفتشوا البيت وتكرَّر المشهد الذي حصل في السلط مع أمِّي، حيث الذهول والخوف الشديد، واصطكاك الأسنان وارتعاد الأطراف.

لكنها فوجئت في اليوم التالى بمجيء الجيران عندها، وسؤالهم عما حدث فلمَّا علموا أن زوجها اعتقل بتهمة انتمائه لحزب التحرير، وأنَّ

وقال لي: أنا ضابط تحقيق، وأساعد كل من يتعاون معي، وأبرز المستمسكات التي ضبطت معي، وكانت الأولى تحتوي على النقاط الأربعة التي ذكرنا. والثانية فيها هجوم عنيف على الحكام وتسفيه تصرفاتهم، وكان قد كتبها عضو اللجنة المحلية ((عبد الحفيظ الزعتري))، والثالثة فيها برنامج الحلقات الليلية والنهارية، وفي أي ساعة تعقد كل واحدة.

فسألني هل هذه الأوراق مسكت معك؟ قلت نعم. قال من أي حزب أنت؟ قلت: من حزب الله. قال: هل أنت من حزب التحرير؟ قلت: من حزب الله. قال : هل حزب التحرير من حزب الله؟ قلت: عرف حزب التحرير.

قال أجب بنعم أو لا. قلت أنت تملك السؤال، وأنا أملك الإجابة، فإن أردتَ أجبتُك بآية من كتاب الله، أو بحديث عن رسول الله ﷺ. أو ببيت شعر. فكرَّر القول، وكرَّرتُ الإجابة، فنهض من خلف الطاولة مُنفعلاً، ووقف على يَساري وأنا جالس على كرسيٍّ وضربني ثلاث لكمات.

فقلت له، لقد صرت شرطيًا، ولجأت إلى أسلوب الحمير((أسلوب المرافصة)) ألك عليَّ دين؟ ألا تستحي وقد كنت تقول

الشرطة جاءت لتبحث عن كتب ومنشورات في البيت، اعتذروا لها عن ظنونهم السيئة التي لم تكن على علم بها، قالوا لها:

عندما سكنتم البيت كانت الشرطة تحومُ حولَ البيت كلَّ يوم، وكنَّا نلاحظ ذلك، ونظنُّ أنَّها تأتي من أجلك، سامحينا على شكّنا فيك، وكنَّا نظنُّ أنَّكِ غير متزوجة، وأنَّكِ تسكنين مع أخيك لأنَّه يُشبهك كثيراً، من أجل ذلك كنا نتجنبُ زيارَتَك .

طبعاً تألمت أمِّي كثيراً للصورة السَّيئة التي كانت في أذهانهم، ولكن لحُسن حظِّها أنَّها لم تعلم بها إلاَّ بعد أن تبيَّن لجيرانها حُسنُ سيرتها وطهارتها وعفتها، واعتذارهُم لها عمَّا كانَ يجولُ في خاطرهم.

بأنك محقق؟ لقد جعلتني أستحي على حسابك. عُد إلى مجلسك، وحافظ على رزانتك الأولى.

فوقف مَبهوتـًا فاغر الفم، ولم ينبس ببنت شفة أي بكلمة، إذ لم يكن يتوقع ما سمع، فعاد إلى مجلسه، وسأل نفس السؤال، فقلت له: غيِّر سُؤالك، فقد أقمت عليه معركة. فقال هل تستنكر حزب التحرير؟ فقلت السؤال خطأ. فقال ما الصحيح؟

قلت السؤال يكون كالتالي: هل تستنكر أعمال حزب التحرير وتتبرأ من أشخاصهم؟ قال: فليكن السؤال كذلك. أجب.

قلت إنني مسلم، وأمتثل قول الرسول ﷺ: «من رأى منكم مُنكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

فقل لي ما هي أعمال حزب التحرير المُنكرة حتى أستنكرها! إنني حينما أرى مُنكرًا استنكره استجابة لله ولرسوله، لا لطلبك مني أن أستنكره، ولا أنتظرك حتى تطلب مني أن أستنكره.

وأما البراءة من الأشخاص، فالله تعالى يقول في الآية الرابعة عشرة بعد المائة من سورة التوبة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾. فدُلـَّني على أعداء الله لأتبرأ منهم. قال: هل انتهيت؟ قلت: لا، بقيت الإجابة القانونية.

قال: أجب إذاً. قلت: هل في القانون الأردني مادة تقول: «إنَّ من لا يستنكر حزب التحرير يعاقب؟» فلم يُجب.

فقلت: الجواب يُحتمل أن يكون كلمة واحدة من اثنتين لا ثالث لهما: إمَّا «لا» وإمَّا «نعم» . فإن كان الجواب «نعم» يكون القانون

الأردني أهمج قانون وجد، لأنَّك يا مُحقق لم تستنكر حزب التحرير، فتكون في نظر القانون الأردني مجرمًا تستحق العقوبة، وكل أفراد الجيش وضباطه كذلك. بل كل الموظفين والعمال والفلاحين وإن شئت قل كل الشعب الأردني مجرمين لأنَّهم لم يستنكروا حزب التحرير. وهذا غير معقول. ولذلك فالجواب الصحيح هو ((لا)). فسؤالك مَردودٌ قانونيًا.

فقال: ماذا تشتغل؟ قلت: مدرسًا. قال: ما تحصيلك العلمي. قلت: ما زلت أدرس في كلية الشريعة في جامعة دمشق.فقال: لقد مضى عليَّ ستة وعشرون عامًا في هذا العمل، وقد جنني حزب التحرير، وأنت قد خلصت عليَّ.

فقلت له: الله لا يعطيك العافية، ستة وعشرون عامًا، وما زلت رئيسا بثلاث نجم. وقلت بلهجة عامية ((ما هو بجيبوه من وراء الجمال ويحطوا له ثلاث نجم)) ستة وعشرون عامًا وأنت تظلم الناس؟

ألا تترك هذه الوظيفة، وتفتح لك مكتبًا، وتعمل مُحاميًا تدافع عن حقوق الناس المظلومين بدلاً من اتهامهم، ونصب الفخاخ لهم لتوقعهم في شَرَك الظالمين.

فقال: أنا متأسف. فقلت له: وماذا أعمل بأسفك؟ فقال: ما الذي تريده؟ قلت: أريده يوم المحكمة. قال: لابذلنَّ جهدي. ثمَّ قال: كم عدد أهلك؟ قلت ستة نفر. فقال: ما ذنبهم ((يعني أنِّي بعملي هذا أتركهم جوعى)).

قلت الذنب ذنبك، وهذا هو السبب الذي يجعلكم جبناء إلى هذا الحد، فلا تقفون في وجه الظالم خوفًا على الرِّزق، ألا تؤمنون أنَّ الرزق بيد الله؟ إنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

ثمَّ سألني عن فحوى الورقة الثالثة لأنَّها كانت مكتوبة بأرقام وحروف ورموز، ولا أحد يعرفها غيري. فلم أخبره بشيء وانتهى

التحقيق، وعدت إلى السجن، وبعد مضي خمسة عشر يومًا خرجنا من السجن بالكفالة ريثما نُطلب إلى المحاكمة.

المثول أمام المحكمة العسكرية في القدس

كنت مُداومًا في «مدرسة بلي» التابعة لوكالة الغوث. واذا بمدير التعليم «عيسى عطا الله» يبعثُ إليَّ يُخبرني بالمُثول أمام محكمة أمن الدولة غدًا.

وبعد الدوام جاءني شرطي إلى البيت، وطلب مني أن أصحبه إلى المغفر. وهناك أخبرني رئيس المخفر بأنَّ عليَّ مُحاكمة غدًا أمام محكمة أمن الدولة، وسألني عن قضيتي فذكرتُ له أنني من حزب التحرير الذي يعمل لإقامة دولة الخلافة.

وقلت له: إنَّ دولتك تُحارب الإسلام. وأخذتُ في الحديث فراقَ لهُ ذلك. وقال مَا دُمتَ جارًا لنا، فلا تبخل علينا بالزيارة؟ وطلب مني زيادة في الحديث، وجمع جنود المخفر ليسمعوا، وقال: إن شاء الله تعود بريئا وتزورنا.

وفي اليوم التالي ذهبت محفوظًا برفقتهم إلى المحكمة. وأودعتُ أنا وصديقي «عبد الرحيم المحتسب» قفص الاتهام. وكانت قاعة المحكمة غاصَّة بالمستمعين من المدنيين والعسكريين، وكانت المحكمة علنية.

ولما بدأ المدعي العام «فائق الغضبان» يتلو المبرزات التي ضبطت بحوزتي والمار ذكرها أثناء التحقيق. التفتُّ إلى المستمعين وكأن على رؤوسهم الطير، وقد بدا على وجوههم الوجوم.

وصرت أتوقع أن أحكم ثلاث سنوات، فلما انتهى المدعي العام من تلاوة بياناته، سألني رئيس المحكمة: هل تريد مناقشة المدعي العام؟ قلت: نعم.

ولكنـِّي لم أناقشه في مضمون المبرزات الثلاث، وما فيها من اتهامات الحكام . ولكني ناقشته في طلبه مني استنكار حزب التحرير فكان النقاش طبقـًا لما جرى بيننا أثناء التحقيق.

ولمَّا أجبتُ على موضوع الاستنكار من الناحية الشرعية أثـَّرت على عواطف المستعمين، فوقف ضابطٌ وقال: حرامٌ واللهِ أن يكونَ هذان متهمين!

ولمَّا انتهيت من الإجابة على موضوع الاستنكار من الناحية القانونية كنت ألاحظ أثناء النقاش أعضاء المحكمة يلتفت بعضهم إلى بعض مُستغربين حُسن الإجابة، والتلاعب بعواطف المستمعين. فقال الشاويش الذي يقود سيارة أعضاء المحكمة: لا بُدَّ من براءة المتهمين.

وتهللت وجوه المُستمعين بالبشر. فانتهى النقاش، واختلى أعضاء المحكمة للتشاور في إصدار الحكم، وأثناء ذلك تقدم المُدعي العام نحوي، وبشـَّر ((عبد الرحيم)) بالبراءة، وأخبرني بأنـِّي سأحكم بثلاثة أشهر أو بشهر واحد، فغمرتني الفرحة!

وتقدم ((إبراهيم أبو غزالة)) أحد أعضاء اللجنة المحلية لمنطقة الخليل والتي كنت حينذاك رئيسها. وكان يُريدُ أن يعرف ما يَدُورُ بيني وبينَ المُدَّعي العام، فأشرت إليه أن يرجع إلى مكانه.

عادَ القضاة إلى منصَّة المحكمة، وأعلن رئيسُها براءة ((عبد الرحيم)) وإدانتي بالسجن شهرًا أو استبداله بغرامة مالية قدرها خمسة عشر دينارًا أردنيا، فصفق المستمعون هاتفين: يحيا العدل! والحقيقة لولا وعد المُدَّعي العام لي أثناء التحقيق لكانت عقوبتي ثلاث سنوات حسب العادة.

وخرج القضاة، وتقدَّم المُدَّعي العام وقال لي: والله إنَّ كلَّ ما قلته صحيح ((يعني اتهامي بأنَّ حكام الأردن جواسيس لإسرائيل)) وَاللهِ

إنِّي أحب أن يكون كل الشباب مثلكم، ولكن العين بصيرة، واليد قصيرة!

وقال لي: هات الخمسة عشر دينارًا. وأعطاها بدوره لعسكري ليدفعها، ويُوافيني بوصل حتى لا يعترضني أحد. ثمَّ قال للجنود الذين أحضروني أن يتركوني وشأني. ولمَّا عُدت مَررتُ بالمخفر وأخبرتهم ببراءتي، وتكررت زياراتي لهم، وفي كل مرَّة أحدثهم عن ضرورة العمل للتغيير.

محاولة إنهاء عملي من التعليم
من قبل مراقب التعليم ((عيسى عطا الله))
ومدير منطقة الخليل لوكالة الغوث((إسماعيل طهبوب))

بعدما انتهيتُ من المحكمة في القدس، جاءني مراقب التعليم ((عيسى عطا الله)) يسألني عن تغيبي عن الدوام . وكان هو الذي بلغني بجلسة المحكمة، فلمَّا أجبته قال: ماذا حكمت عليك المحكمة؟ قلت له: سل المحكمة، ولا شأن لك بذلك، وإذا لم يُعجبك الجواب فاخصم اليوم الذي غبته.

وبعد فترة عاد من أجل الزيادة السنوية بالنسبة لي. ولم يقبل بتزكية المُدير لي مع أنَّهُ صاحبه ويثق به. فاضطر إلى دخول الصف وفحص الطلاب في اللغة الانجليزية، مع أنَّ اختصاصه في اللغة العربية.

فلم يخطئ أحد من الطلاب ولو بخطأ واحد، فاضطر قبول تزكية المدير لي. ولكنه اتفق مع مدير المنطقة بطلب من وكالة الغوث اللاجئين بإنهاء عملي من التعليم.

وعند نهاية العام جاءني الرَّد من مدير الوكالة العام بكتاب فيه لفت نظر لي يقول: إنَّ وقت عطلة المدارس ليست من حقك لتمارس فيها النشاط السياسي، إذ يتعارض ذلك مع التعليم. وبعد قراءتي

للكتاب أعطيته مدير المدرسة وقلت له: أعطه ((عيسى عطا الله)) لينقعه ويشرب ماءه.

إحراج مراقب التعليم ((عيسى عطا الله))
واضطراره أن يوجه لي كتاب شكر

كنت مربيا للصف الثالث الإعدادي في ((مدرسة بلي)) [٤] وكنت أعلم طلابه اللغتين العربية والانجليزية والتربية الدينية فأجرت وكالة الغوث في ذلك العام فحص تجريبي لشهادة الدراسة الإعدادية فكان لحسن الحظ أنَّ ثلاثة من طلاب الصف الذي كنت أشرف على تربيته من العشرة الأوائل، الأول والثالث والسابع.

فلما اجتمع مدراء المدارس صاروا يتساءلون: أين هذه المدرسة التي لا ذكر لها، ولا شأن، ويأخذ طلابها المرتبة الأولى والثالثة والسابعة؟ فقال المدير: هي المدرسة التي يدرس فيها المنفيون والمغضوب عليهم من الدولة. فلم يسع ((عيسى عطا الله)) إلاّ أن يكتب لي كتاب شكر على هذه النتيجة، فكان نجاحُ الطلاب صفعة له ولإسماعيل طهبوب.

محاولة ((جمال العواودة)) إدخالي منظمة فتح

جاء ((جمال العواودة)) رحمه الله إليَّ ذات ليلة، وأخذ يرغبني في الانتماء إلى منظمة فتح. وبعد جدال طويل وهو يعرض عليَّ دخولها كجناح سياسي، وأكون مسؤولا عن التعليم.

---

[٤] ((مدرسة بلي)) تقع قرب قرية ((كرمة)) من قرى دورا قضاء الخليل. وقد قال لي أستاذ اللغة الانجليزية في الجامعة الأردنية: إنَّ أبي كان يدرسهم بعد انتهاء الدوام المدرسي خارج المدرسة، تحت أشجار التفاح، وقال عنه: إنَّه كان مُخلصًا جدًا في التدريس.

وإن شئت ادخل كجناح عسكري، فأبيتُ، ولما اشتدَّ الجدل قلتُ له: إنَّ منظمة فتح تابعة لعملاء الإنجليز، فسبَّ الدين، وقال: حكمت عليها قبل ظهورها، وقبل أن يعرفها الناس؟

فقلت له: خذ مني خبرًا أحسن لك. قال: ما هو؟ قلت: بعثت وزارة الخارجية اللبنانية تطلب من الأردن تسليم مدير الأمن العام ((راضي العبد الله)) حيث أنَّهُ ثبت للحكومة اللبنانية أنَّهُ عضوٌ في شبكة التجسس لشولا كوهين الإسرائيلية.

وصدف بعد ذلك أن جاء ضابط المخابرات في الخليل فطلب من ((جمال العواودة)) أن يتعاون معه لمعرفة الجواسيس الذين يتجسسون في منطقة الخليل لصالح اسرائيل.

فقال له جمال: نعم، أأدلك على رئيسهم؟ قال: نعم، قال: رئيسهم رئيسك مدير الأمن العام ((راضي العبد الله)) فقال الضابط: دعنا من المزاح، فقال جمال: أنا لا أمزح، وإن شئت فاذهب واسأل عن البرقية التي جاءت من وزارة خارجية لبنان!

مدى تعلق الطلاب بالأفكار التي أغرسها في عقولهم

كانت علاقتي مع الطلاب دائمًا علاقة فكريَّة إلى جانب العلاقة التعليمية ، بعد انتقالي من منطقة الخليل إلى منطقة عمان التقيت بمعلم من معلمي ((مدرسة بلي)) فقال لي: لم أسمع بأحد يتعلق به طلابه به مثلك. فقلت له: ما الخبر؟

قال: جاء بعدك معلم معه ليسانس عربي، ودخل على الطلاب الذين كنت تدرسهم، وكان الدرس قصيدة لإيلياء أبي ماضي مطلعها: ((بئس القضاء الذي في الأرض أوجدني)).

فلما طلب المعلم منهم قراءتها بدؤوها بفعل((نِعمَ)) بَدَل ((بِئسَ)) ، فطلب منهم أن يُعيدوا تصحيحها لتصبح ((بِئسَ)) فأبى

الطلابُ وقالوا: قال معلمنا الأول: إمَّا أن تضعوا ((نِعمَ)) بدل ((بِئسَ)) أو تتركوا الدرس بكامله؛ لأنَّ ((بِئسَ)) فعل ذم ، والقضاء هنا بمعنى الله، وقراءتها بفعل ((بِئسَ)) كفر.

وحصل جدال طويل، مما استدعى حضور المدير، ولم يستطع المعلم والمدير أن يُغيِّرا فكر الطلاب أو يجبراهم على قراءة ((بِئسَ)) بدلاً من ((نِعمَ)).

فلمَّا اشتد غضبُ المُعلم قال لهُ مُديرُ المدرسة: لا تُتعب نفسك، فثقتهم بالمعلم السابق لا حدود لها، فلا أنا، ولا أنت، ولا مدير التعليم يمكنه أن يُلزمهم بقراءتها كما نُريد!

الانتقال من منطقة الخليل إلى منطقة عمان

بدأت أفكر في بناء بيت للسكنى فاخترت أن يكون في عمان قريبًا من والدي وإخوتي، وبالفعل اشتريت بيتًا مُتواضعًا مكونًا من ثلاث غرف، إحداها غير مسقوفة.

دخول لجنة الولاية والانتساب إلى جامعة دمشق

وصلتني ذات يوم رسالة من الأستاذ ((محمد هاشم الريان)) وهو أحد شباب حزب التحرير الذي درسته في حلقة من حلقات الحزب في السلط عام ١٩٥٨، أخبرني في رسالته أنَّه التحق بكلية الشريعة في جامعة دمشق، ويمكن لمن يُريد الدراسة أن ينتسب لها انتسابا.

فأرسلت إليه أخبره أنني سأنتسب في العام القادم لنفس الكلية، وبالفعل تمَّ انتسابي عام ١٩٦٢ لتلك الكلية، وكنت أتأخَّر شهرًا بعد انتهاء الامتحانات لأتفرغ للدعوة في دمشق، وبقيت مُواصلاً الدراسة حتى عام ١٩٦٧ ما عدا عام ١٩٦٤ الذي اعتقلت فيه في القدس فلم أتمكن من السفر لأداء الامتحان.

سافرت مرة لأداء الامتحان بوساطة القطار، ولم يكن معي تصريح لكوني مُعلما، فاعترضني عسكري برتبة شاويش، ولكني بقيت بالقطار حتى دخل الحدود السورية.

وقبل أداء الفحص بيوم جاءني عضو من حزب التحرير ومعه رسالتان، وطلب مني أن أذهب بهما إلى بيروت، فأخذتهما ووضعتهما في جيبي، وهممت بالسفر فاعترض الشاب علي وقال ضعهما في السباط «أي في الحذاء».

فلم أعرهُ انتباهًا ومضيت، فمررت بفرن يبيع الخبز، فاشتريت رغيفين ووضعت في كل رغيف رسالة، ولففت كل رغيف في قرطاس بعد أن اضفت لهما جُبنًا وفلافلاً، ووضعتهما أمامي في السيارة، فوصلت بيروت متأخرًا، فلم أجد المحل المُراد مفتوحًا، فبتُّ في الفندق، وطلبت إبريقًا من الشاي، وأخذت أحد الرغيفين وتعشيت عليه بعد إخراجي الرسالة منه.

وفي الصباح أكلت الرغيف الثاني، وعند العودة أعطيتُ رسالةً لأنقلها إلى الشام، وكانت كبيرة الحجم، فاستأذنت بالتصرف فيها كما أريد، فأعطيت الإذن، ففتحتها وفردتها وألبستها رغيف خبز واسع «شراكة» على شكل قمع وملأت القمع بالفلافل والبندورة والجُبن وغيره، وعندَ الحُدُود وأثناء التفتيش أخذتُ آكل منها فمررتُ بسلام.

التفتيش على الحدود الأردنية

كان المسافرون للأردن يخضعون للتفتيش، ولمقابلة المخابرات على الحدود. وكنت في كل مرَّة أحمل كتبًا أو رَسائل ممنوعة، وأتمكن من تمريرها، رغم المقابلة والتفتيش!

وفي إحدى المرات كنتُ راجعًا بعد شهر الامتحانات بوساطة القطار ومعي حقيبة « شنطة » فيها كتب ممنوعة، وكنت أضعها مع ما

معي من الألبسة كخليط أو كأنَّها منسوجة مع الألبسة ليَصعُبَ تفتيشها.

ولمَّا دخل القطار الحدود الأردنية دخل عليَّ شاويشٌ وطلب مني جواز السفر، فأعطيته إيَّاه فنظر إليَّ وقال لي: قبل سنوات مررتَ إلى سورية بغير تصريح، فقلت له ما رأيت مُفتشا أذكى منك، فقال: أين كنت؟ قلت في الجامعة. قال: الجامعة لها شهر منتهية من الامتحانات. وها أنت كائن في لبنان. قلت: كنت في زيارة لأخ لي، قال: ولم جئتَ الآن؟

قلت: بعدَ حُدُوث مُحاولة الانقلاب مُنعَ التجول في دمشق، فأحببتُ أن أغادر. قال بعد ما فتشني من إصبع قدمي الى مفرق رأسي: أخرج ما معك من الكتب الممنوعة. قلتُ: كل ما في هذه الشنطة ممنوع وفتحتها له، فتناول كتابًا فإذا هو مصحف، والثاني وإذا هو تفسير قرآن، والثالث وإذا هو كتاب فقه. وقال: ماذا تدرس؟ قلت: شريعة. قال: ومن حزب التحرير؟ أخرج النشرات وكتب الحزب، فقلت: فتش وكان كلَّما أراد أن يتناول كتابًا ينظرُ إلى قسَمَاتِ وجهي، فكنتُ أظهرُ ضحكة صفراوية، وظلَّ يُفتش ويقيم كتابًا بعد كتاب، وينظر إليَّ حتى لم يبق إلاَّ كتاب واحدٍ غير ممنوع، وما تحته من الكتب ممنوعة توقف عن التفتيش ثمَّ انصرف.

وأعدتُ الكتب إلى الشنطة وإذا بمفتش آخر، فخشيتُ هذه المرَّة ان يكتشفوا الكتب الممنوعة، فنظرت إلى المُفتش الجديد، وسلمت عليه بحرارة، وسألته: كيف حالك وأين أيامك؟ فظن أنِّي أعرفُه، فقال لي: هل درست في كلية الحسين في مدينة الخليل؟ فأدركت أنَّه شبَّه عليَّ.

فقلت: لا، قال: هل درست في مدرسة بركة السلطان؟ قلت: نعم، وإنِّي نسيت اسمك. فسمَّى اسمه وبلده وأنَّهُ من قرية

((دير الذبان)) وقال: أين جواز سفرك؟ قلت: أخذه الشاويش، وأظهرت تضجري من ذلك الشاويش.

وقلت لهُ: انظر إلى كتب هذه الشنطة كيف بعثرها ونثرها، وهو يفتش كأنـَّها مليئة بالمتفجرات. ويبدو أنـَّه اكتفى بتفتيش من سبقه، فسلم عليَّ وانصرف. ثمَّ جاء شاويشٌ ثالث من قبل الجمارك، فلم يجد شيئـًا يخصه.

وعبرتُ الحدود مرَّة بالقطار وكان معي كتاب ممنوع، فلما جاء المفتش فتحت الكتاب وأخذتُ أقرأ فيه، والمُفتش يفتش في أوعيتي دُون أن يهتم لما بين يَديَّ.

أمَّا لماذا كان هذا التشديد في التفتيش؟ فذلك كان بعد محاولة الانقلاب على ((حافظ أمين)) في سوريا. وقبل محاولة الانقلاب بيوم واحد رأيت ((عبد الرحمن المالكي)) في الجامع الأموي جالسـًا مع عسكري، فتجنبت الجلوس معه ظنا مني أنَّ بينهما سرًا يتحدثان فيه.

وفي صباح اليوم التالي ((يوم المحاولة)) أعطاني رسالة، وطلب مني أن أذهب بها إلى بيروت. فحملتـُها وحاولت السفر فلم أجد سيارة، وعند الساعة العاشرة صباحًا زحفت الدبابات إلى رئاسة الأركان، لمنع الانقلاب وكنتُ في شارع خالد بن الوليد، فلجأت إلى أحد الفنادق، ولم أتمكن من العودة إلى بيت ((عبد الرحمن المالكي)) إلا ّ عند المساء وسألني: هل ذهبت؟ قلت: لا، قال: أين الكتاب؟ قلت: ها هو، قال: أتدري ما فيه؟ قلت: لا، قال: فيه توقيت مُحاولة الانقلاب، ولو أمسكو به معك لقتلوك! فالحمد لله على السلامة. وفي اليوم التالي سافرت إلى الأردن، وجرى معي التفتيش سالف الذكر في القطار.

عام ١٩٦٧م عام المؤامرة على ((جمال عبد الناصر)). عام الهزيمة المصطنعة أمام إسرائيل. ذهبت في ذلك العام وقبيل المعركة

بأسبوع تقريبًا لأداء الامتحانات، وعند الحدود الأردنية منع المعلمون من الخروج من الأردن إلاّ بتصريح من وزارة التعليم، ولم يكن لدي تصريح.

وبعد الاتصال بمدير التعليم بوكالة الغوث سُمح لي بالمرور وكان حزب التحرير قبل ذلك بعام قد وزع بيانـًا قال فيه: بأنَّ الملك حسينـًا يُريد تسليم الضفة الغربية.

وفي صبيحة اليوم السادس من حزيران بدأ الهجوم الإسرائيلي على مصر، وشاعت الأخبار وجاء زملائي في الجامعة وهم ينادونني دع الدراسة، فالحربُ ابتدأت بضرب المطارات المصرية، فقلت: هذا مُتوقع قالوا: كيف؟ قلت: ((راحت)) أي ضاعت الضفة الغربية.

وقلت لـ ((حسن الأقطش)) ارجع بسرعة لتخرج أهلك من بيت لحم إلى عمان إذا كنت تريد أن تلحق بأهلك في قرية مليح.

فقال: هذه دعاية هدامة، فالعرب هم المنتصرون. فقلت لهم افتحوا على الإذاعة الإسرائيلية لنسمع ما يقوله اليهود، فأبوا عليَّ، وقالوا: هذه إذاعة عدو، فقلت لهم: إنَّ العرب من عادتهم أن يُصوِّروا الهزيمة انتصارًا لتضليل شعوبهم، ففي عام ١٩٥٦م كانت الإذاعات العربية تهلِّل وتكبِّر، والجيش الإسرائيلي يطلب من أهل غزة تسليم أسلحتهم!

وعند المساء غافلتهم وفتحت على الإذاعة الاسرائيلية، وإذا هي تطلب من أهل غزة تسليم أسلحتهم، فبكيتُ وأيقنتُ أنَّ الضفة الغربية سينتهي أمر تسليمها لليهود في تلك الليلة.

وخرجت من ((قرية جوبر)) وتوجهت إلى دمشق، وذهبتُ إلى بيت ((عبد الرحمن المالكي)) مسؤول حزب التحرير في الشام، وكان ملاحقـًا من المخابرات السورية ، فقرعت بابه ففتح لي وقال:

ستُحتل الضفة الغربية هذه الليلة، ثمَّ عُدت وكررت القول لـ «حسن الأقطش» فلم يقتنع.

وفي صبيحة اليوم التالي نزلنا إلى دمشق، وإذا بطلاب الجامعات من حلب وبيروت ودمشق يتزاحمون على الباصات، فلمَّا رآهم «حسن الأقطش» استأذنني بالذهاب، وطلب مني أن أحضر معي شنطته، ولكنه لم يستطع أن يصل إلى أهله لأنَّ اليهود كانوا على الجسر الفاصل بين الأردن والضفة الغربية.

وفي اليوم الثالث رجعت إلى عمان، فاذا الشوارع مزدحمة بالناس، يبحث الواحد عن أهله أو عن أولاده، أو يبحث الولد عن أمه وأبيه.

يمشي الواحد مذهولاً، ولا يكاد يُصدِّق ما يراه بعينيه، فقد كانت الهزيمة نكراء في ظاهرها، خبيثة في باطنها، حاكها عملاء الإنجليز مع إسرائيل ضد جمال عبد الناصر.

فاحتلَّ اليهود غزة وسيناء حتى قناة السويس، واستلموا الجولان والضفة الغربية استلاما، وسمَّاها اليهود حرب الأيام الستة، وسمَّى العرب خيانتهم بالنكسة.

استقالتي من سلك التعليم

وزع حزب التحرير ـ بعد الهزيمة ـ نشرة يذكر فيها خيانة الأردن بتسليم الضفة الغربية باتفاق مع اليهود، وكان ضباط الجيش العراقي منتشرين في شوارع عمان، فوصلتهم المنشورات وشهدوا هم والضباط الأردنيون بالخيانة العظمى، واعترفوا بأنَّ الجيش لم يقاتل، بل انسحب بغير قتال، وكنت يومها مشتركًا في التوزيع.

وفي المساء جاء ضباط من الأمن والمخابرات إلى بيتي وأمسكوا بي وأخذوا يفتشون البيت، وعندما أراد أحد الضباط أن يفتش البنطال هربت، فاندفعوا خلفي يطلبونني فلم يُفلحوا.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة فجاءوا ليلقوا القبض عليَّ، ولكني استطعت أن أفلت منهم بمساعدة أحد المعلمين، وبإيعاز من المدير.

وكنت أعلم أنَّهم لن يتركوني فقررت الاستقالة وقدَّمت الطلب، وتمَّت الموافقة على الاستقالة، وأخذت توفيري البلغ ستمائة وثمانون دينارًا أردنيا، وحاولت فيما بعد أن أسترجع بطاقة التموين من وكالة الغوث، فلم أفلح وبقيت مدة بلا عمل وبلا بطاقة تموين ولكنِّي لم أكترث.

في أحراج جبل الزهور ((**إحدى ضواحي عمان**))

هناك في الجنوب الغربي من عمان، وعلى طريق عمان القدس، حِرشٌ صغيرٌ من أشجار السَّرو، تسللت إليه لأطالع بعض المواد التعليمية المقررة في الجامعة السورية التي كنت على وشك السفر إليها لأقدِّم الفحص في تلك المواد.

وبعد الظهر تغديتُ، ونمتُ فلما فقت من نومي واستويت جالسًا، وإذا أحد أعضاء المخابرات يراني، ولا يَبعُدُ عنِّي أكثر من أربعين مترًا، ولم يكن مُتسع من الحرش خلفي إلاَّ سياج الحرش من الشيك الشائك.

فالتفت عضو المخابرات تجاه أصحابه، وصفر فجعلت الشجرة بيني وبينه، وانطلقت في الاتجاه الذي يجعل الشجرة بيني وبينه حتى يصل مكاني تحت الشجرة فلم يجدني. وقد تواريت عنه وانحرفت نحو مكان أصحابه، فرأيت سيارتهم ولا أحد فيها، فمررت بجانبها ونزلت إلى طريق عمان- القدس. ولجأت إلى محجَر مقابل الحرش، وفيه عمالٌ كثيرون، فدخلت بينهم ثمَّ صعدتُ المحجر، وإذا بقطيع من الإبل فسقتها أمامي متظاهرًا بأني راعي الإبل، فابتعدت عنهم وتركتهم يبحثون وسط الحرش.

إلى وادي عبدون ((**إحدى ضواحي عمان**))

توجهت بعد ذلك إلى وادي عبدون، ولم يكن مسكونـًا آنذاك، فجلست في ظل صخرة، وفتحت كتبي وواصلت الدراسة، وبقيت بذلك الوادي حتى المغرب، ثمَّ رجعت إلى جبل النظيف حيث بيتي هناك. وبينما أنا أمشي في طريق ضيق صاعدًا الجبل، وإذا بشخص منحدر بنفس الطريق، وعندما رآني وقف متسمرًا واجمًا فغلب على ظني أنـَّه يراقبني.

وبمجرد أن تجاوزته انطلق مُسرعًا في انحداره، فلمَّا اقتربت من بيتي رأيتـُهُ يراقبني، فغيَّرتُ الطريق، ودخلت بيتـًا لابن عمٍّ لي ونمت عنده. وفي الصباح أرسلت ابنته لتحضر لي بعض ما يلزمني لسفري إلى سوريا لتقديم الفحص فعادت ومعها أخي. فقلت له: أحضر لي سيارة، فلما حضرت السيارة ركبتُ وركب أخي معي وقلت للسائق: أسرع بنا قبل أن تداهمنا المخابرات.

فضغط على السيارة فأسرعت، ولكنَّ إحدى عجلاتها بنشرت، فنزلت منها وقلت لهما: لنلتقي بواد ناعُور عند دخلة كذا، ونزلتُ إلى الوادي، وفي طريقي عرَّجتُ على بيت المُختار، فلما رآني ذهل وفوجئ بدخولي، فقلت: هوِّن عليك، وكنت أتوقعُ أنَّ المخابرات تطلب منه مراقبتي والإخبار عنـِّي، لأنـَّه مختار منطقة سكناي، ولكنـِّي كنت واثقـًا بأنـَّهُ لن يخبر عنـِّي.

وكنت لا أعرف أنَّ أحدًا اختفى عنده فترة انتظاري مجيء السيارة. فلمَّا أردت الخروج أمسك بي وقال: ألا ترى الشرطة؟ وقد وقفت سياراتهم متباعدة بعضها عن بعض للمراقبة.

قلت له: انس أنـَّك رأيتني. ثمَّ خرجتُ وإذا بسيارة تنتظرني فركبتُ وقلت للسائق: هذه السيَّارات تراقبني إيَّاك أن تقف إذا طلبوا منك الوقوف.

فأقسم بأنَّه لن يقف ولو أخذ الشرطيَّ في وجهه. وتوجَّهنا إلى جبل عمان، فجبل اللويبدة مرورًا بجانب دائرة المخابرات العامة، فإلى دوار الداخلية، ثمَّ مُواصلة السير على الطريق العام إلى صويلح.

وهناك موقف للتفتيش فنزلتُ من السيارة ومشيتُ على الأقدام، ثمَّ ركبتُ بعد مجاوزة السيارة نقطة التفتيش، وعند جرش نزلتُ من السيارة حتى تجاوزت نقطة التفتيش.

وعند مفرق «النعيمة ـ إربد» لم نشعر إلاّ ونحنُ أمام نقطة تفتيش على الهويات، ولكنْ لحُسن حظّي لم يسألوني عن هويتي. وواصلنا السير حتى دخلنا إربد. ووصلنا مخيَّمها، وهناك نزلتُ وودَّعتُ أخي والسائق فعادوا إلى عمان.

ضيافتي عند محمد خليل الكواملة

«أبو كامل رحمه الله»

لم أخط سوى خطوات قليلة، فإذا بجارنا أيام سكنانا في مخيم عين السلطان / أريحا، واسمه محمد خليل الكواملة «أبو كامل» رحمه الله تعالى، فسلـَّم عليَّ بحرارة، وأقسم عليَّ أن أتناول الغداء عنده، فاستجبت له.

وكان له ولدٌ من حزب التحرير، والرَّجلُ متفتح، ولديه بعض الوعي فجلست وإيَّاه طول مدة تحضير الغداء، وعند الغداء حضر أولاده وكلهم يعرفونني، وبيني وبينهم مودة ورابطة فكرية قوية، فسألوني عن حالي فأخبرتهم بما جرى، وأشعرتهم بأني متوجه إلى الشام.

وبعد الغداء توجهت إلى صديق آخر، فأعطاني رسالة لصديق له تاجر في بلدة الرَّمثا، يوصيه عليَّ ليُسيِّرني مع بعض المُهربين لاجتياز الحدود الأردنية.

ولم أكن أعرف حينذاك أيَّ طريق أسلك. فأخذتُ الرِّسالة، وركبت الباص إلى قرية حوارة، ونزلتُ وسرتُ على الأقدام لأتجنَّب نقطة التفتيش على مربعة الرمثا-عمان-المفرق.

ووصلت الرمثا بعد آذان العشاء، وسألتُ عن المحل التجاري فاهتديت إليه، وأعطيتُ الرِّسالة لصاحبه. فاعتذر الرَّجل وأنكر العلاقة مع المهربين. وقال: إنَّ الوضع على الحدود خطيرٌ، ودوريات المراقبة شديدة وكثيرة، ونصحني أن أسلك الطريق العام.

فقلت له: الطريق العام واضح لكل من أراد السير عليه، وأنا لا أعرفك ولولا صديقك أعطاني الرِّسالة، لما مررتُ عندك، وأود أن أقول لك شيئًا، قال: ما هو؟ قلت:

إنـّي من قرية مرَّ عليها زمن قلـَّما نجد فيها من الناس من لا يمارس مهنة السرقة، فكان إذا وَصَفَ لأحدهم شيئًا ثمينًا في بلدة بعيدة في شارع كذا وفي بيت كذا، والغرض موضوع في المكان الفلاني في البيت، ذهب إلى تلك البلدة، وبحث عن البيت، وتخطى جميع الحواجز من أسوار وأبواب، وكلاب حراسة، حتى يصل إلى غرضه.

أوَتستكثر عليَّ أن أمرَّ عبر الحدود الأردنية إلى سوريا؟ فلا حاجة لي إلى مُساعدتك، ثمَّ تركته وسرت، واخترت أن أتـَّجه إلى الجهة الشرقية من الرمثا.

فلم أبعد أكثر من كيلومتر، وإذا بنقطة مراقبة فلما اقتربت منها وإذا باثنين ينطلق أحدهما الى اليمين، والآخر إلى اليسار، وانطلقت بدوري إلى الوراء، وعدت إلى الرمثا داخل القرية.

وبعد فترة قصيرة سلكت جهة الجنوب من الرمثا، وبعد ما قطعت ثلاثة كيلو مترات تقريبًا انحرفت جهة الشرق، وكنتُ أمشي

فـي الأرض المحروثـة بوسـاطة التكرتـور لظنــّي أن دوريـات الخيـل تتجنب السير في تلك الارض.

وصلتُ سلسلة من التلال وهناك افترشت الأرض ونمتُ، فلم أستيقظ إلاّ والمحـاق «القمر» يطلـع مـن الشـرق، فصـعدتُ تلـة عاليـة أريـد أن أنظـر منهـا إلـى أضـواء درعـا لأعـرف اتجاههـا، فشـاهدت أنوارها فسمعت صـوت حركـات قويـة خلفـي، فاختفيت فـي عقيـر مـن القشّ والشوك، وإذ بثلاثة خيالة يلاحقونني، فبقيتُ مُختفيـًا حتـى مَرُّوا عنـّي ولم يرونـي، وظلوا في اتـّجاه الجنوب حيث كنتُ مُتوجِّهـًا، غيـر أنـّي بعد ما رأيتُ أنوار درعا، توجهت جهتها نحو الشمال الشرقي.

وبعـد قليـل أحسسـتُ بدوريـة أخـرى تلاحـقُ مُهـرِّبين ويطـرد بعضهم بعضـا، فتبعتهُم مُسرعـًا مطمئنـًا أنـَّهم لن يَرجعُوا إلـى الخلـف، وبعـد نصـف سـاعة تقريبـًا ظهـرت سيـاراتان، ووقفتـا علـى رأس تلـة وأضـاءتا المنطقـة بكشـافين قـويين، فألقيـتُ بنفسـي علـى الأرض لـئلا يرونـي .

فلما طال بقاؤهما قمتُ فيمَّمتُ واديـًا عميقـًا لا تدخلـه خيلٌ ولا سيارات، فسرتُ إلى جانبه الأيسر حتى دخلت كرم عنـب، ومـن كـرم العنب دخلت مقبرة درعا الجنوبية، وحينها أمنت ثم توجهت إلى درعا الحديثة، واذا بمناد ينادي: الشام، الشام.

فركبت في الباص إلى دمشق وصلت السـاعة الثامنـة صباحـًا ومن دمشق توجهت إلى « قرية جوبر» بوساطة الباص، وعمدت إلـى بيت أصدقائي، وإذا هم على وشك الذهاب إلى الجامعة لأداء الفحص، فقلت لهم: هيئوا لي منامًا مُريحًا، فقد مضـى علـيَّ ثـلاث عشـرة سـاعة ماشيـًا.

ونمتُ حتى عادوا من الجامعة قريبـًا من السـاعة الثالثة مسـاء، وأخذوا يسألونني عن سفرتي، فقصصـتُ عليهم رحلتـي فقـالوا: أتقدم

الامتحان وأنت بهذا الوضع؟ فقلت لهم: إنَّ هذا لا يثنيني عن مواصلة المسيرة في الجامعة.

بعد انتهاء الامتحانات ذهبت إلى بيروت عدة مرَّات في مهماتٍ حزبيةٍ، ثمَّ رجعتُ بعد شهرين إلى الأردن تهريبًا حيث عُدتُ بنفس الطريق التي جئت منها، ولكن أثناء النَّهار بالأرض السوريَّة، وفي الليل في الأرض الأردنية، وبقيتُ في الأردن مدة ثلاثة أشهر ثمَّ جاء موعدُ فحوص التكلمة.

السفر إلى سوريا أيام الشتاء

لم أكن أحمل كتابًا أيام السفر تهريبًا، ولكنِّي كنتُ أعتمد على ملخصات أحملها في جيب « الجاكيت » المعطف الذي كنت أرتديه، بالرغم من ضخامة المناهج في جامعة دمشق، ولم يكن يهمني الشهادة بقدر ما كان يهمني فهم المادة.

وكذلك لا يهمني إلاّ مجرد النجاح، وبعض المواد ما كنت أحفظها إلاّ من خلال حفظي لنقيضها. وكانت طريقي عبر الأراضي الزراعية شاقة ومزعجة، فكنت أحتذي في قدميَّ جزمة لتساعدني في اجتياز الوحل.

انطلقتُ من عمان إلى إربد ثمَّ إلى قرية حوارة، وكانت الطائرات الإسرائيلية تحلق في سماء إربد ، فركبت الباص إلى الرمثا وكان الوقت مساء. وإذا بالدفاع المدني مُستنفرٌ داخل البلد ة، ويُطلب من الناس أن يذهبوا إلى بيوتهم، وإذا بموظفي الجمارك والجوازات يخرجون من الدوائر، ويتجهون نحو بُيوتهم، فسرت خلف بعض الموظفين الذين بيوتـُهم بعد دائرة الجوازات من الجهة السورية، واعتبرتُ نفسي واحدًا منهم، وليكن بيتي آخر البيوت.

وبالفعل سرتُ حتى وصلتُ آخر بيت، وحوله سورٌ عالٍ، فلجأت إلى السور لاحتمي من المطر، فأخذ المطر يزداد، وأخذ الجو

يزداد ظلمة، فغادرت المكان، وانطلقت نحو الطريق العام ((المُسفلت)) أي المعبد، ومشيت بسلام حتى وصلت نقطة للمراقبة على الحدود، فلم أجد بها أحدًا. فواصلت السير، وكلما لحقتني سيارة ألوِّحُ لها لعلها تحملني إلى مركز الجوازات السوري، فلم تقف لي سيارة برغم هطول المطر، الغزير وذلك بسبب وضعي المريب ((رجل يحتذي جزمة ويمشي ليلاً في شتاء قوي)).

ولم أكن أعلم أني مطلوبٌ للمُخابرات السورية، وكان همِّي أن أمُرَّ على مكتب الجوازات وأختم جوازي، ولكن عندما صرتُ على بعد مائة متر من مركز الشرطة، لاحظتُ لمعة ضوء تنبعث من سيجارة، فعرفتُ أنَّ ذلك مركز الأمن، فقلتُ في نفسي إذا مررت عليهم سيشتبهون فيَّ لكوني ماشيًا على الأقدام، ومبتلاً من المطر، وجواز سفري غير مختوم من مركز جوازات الرمثا.

فتحولتُ عن الطريق، ونزلتُ بأرض زراعية، وصرت أغوصُ في الوحل حتى رُكبي، ومرة توحَّلتْ رجلاي بالطِّين معًا حتى الركبتين، فلم أستطع أن أخرج إلاَّ بشقِّ الأنفس. ولم أشعر إلاَّ وأنا أمشي بين خنادق الجيش، فخشيتُ أن يُمسك الجيش بي، ويوجهون لي تهمة التجسس.

فقلت في نفسي: امش يا ولد وأنت رافع الرأس، ولن يُصيبك إلاَّ ما كتبهُ الله لك أو عليك. وصرتُ أخبط برجلي وكأنِّي أريد أن أتخلَّص من الطين العالق بالجزمة، وبالفعل مَرَرت بثكنة عسكرية يقف عند بابها ضابط.

وعلى مرأى مِنهُ أخذتُ أخبط وأزيل الطين، وكنتُ على حافة الطريق المُعبد بعد مركز الجوازات، وسرتُ على الطريق، ولم ألتفت خلفي، لئلا يشك الضابط فيَّ.

ولمَّا صرت على حافة العبَّارة للوادي العميق، وإذا بالسيل يعلو العبَّارة كثيرًا، فتوقفتُ عن السير، وإذا بسيارة جيش فأشرتُ لها فوقفت، وقال لي أحد الجنود: ماذا تريد؟

قلت: احملوني معكم فحملوني حتى اجتازوا السيل، وأمروني بالنزول. فسرتُ قليلاً ودخلتُ درعا التي تبعد عن الرمثا خمسة عشر كيلو مترًا.

ثمَّ ركبتُ حافلة ((باصًا)) أقلَّتني إلى دمشق، فكانت رحلة مزعجة حمدت الله على ما هيأ لي من الأمن حتى وصلت.

المخابرات السورية تبحث عني في جامعة دمشق

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة مُبكرًا، ولم أجد فيها إلاّ فراشين اثنين، فلما رأياني قال أحدهما للآخر: أهذا هو؟ فقال الآخر: لا، فقال الأول: بل هو، فقلت: من تعنيان؟ قال الأول: ألست يوسف السباتين؟ فقلت: بلى.

فقال المخابرات تسأل عنك. قلت: كيف؟ قال جاءوا إلى عميد الكلية، وسألوا عنك. فقال: هذا أردني والأردنيون أنهَوا امتحاناتهم ورجعوا إلى بلادهم، فسألوا: هل عليه إكمال؟ قال: نعم، قالوا: إذاً يأتوننا به من الحُدود عند عودته.

وبعد ذلك صرتُ ألاحظهم على باب مدخل الجامعة، فكنت اجتاز جانبًا من السور، وأدخل للفحص، ثمَّ أعود من حيث دخلت، وبعد انتهاء الفحص طلب مِنِّي أن أكتب موضوعًا في إحدى المواد المقررة - كراسة متواضعة - فاخترت ثلاثة مواضيع هي: الخلافة، والنهضة، والحدود العربية الإسرائيلية.

فلم يقبلها أحد من المدرسين بحُجَّة أنها سياسية، فذهبت إلى العميد باعتباره مُدرِّسًا للتاريخ، فاعتذر لعدم تفرغه، وأرسلني إلى ((الدكتور فيض الله)) فاختار لي موضوع شروط المزارعة،

كموضوع أصولي، فكتبت له الموضوع من سبعين صفحة، وسلمتُهُ له، وغادرتُ عائدًا إلى الأردن.

اجتياز الحدود الأردنية السورية في جو قارس

ركبت في الباص من دمشق إلى درعا، وتوجَّهتُ إلى درعا القديمة، ومنها توجهت إلى الجنوب، وكنتُ أحاذر أن يَراني رجال الأمن السوريون لكوني مطلوبًا إليهم، فلم أسلك الطريق القصيرة.

وبينما أنا سائر على حافة وادٍ وإذا بشخص يترقبُ ويقفُ بحالة مريبة، فمررت من جانبه وأنا مُتحسب أن يكون رجل أمن، ولكن مررت بخطواتٍ جريئة وكأني غير عابئ به.

فاستوقفني وسألني: هل قدمت من درعا؟ قلت: نعم، قال: هل رأيت الشرطة منتشرة في الشوارع؟ فقلت: لا، فغلب على ظنِّي أنَّهُ مُهرب، فقال: إلى أين؟ قلت: إلى الأردن. قال: سر مع الطريق، فهو طريق آمن.

وستواجه في طريقك قافلة، فقل لهم: سيروا فالطريق آمان، فسررت لتوجيهه إياي، وطمأنته لي بأنَّ الطريق أمان، فسرتُ والتقيت بقافلته وطمأنتهم.

ولما وصلت الحدود، وصارت الطريق مكشوفة أمام المراقبة الأردنية، جلست انتظرُ مغيبَ الشمس، ولكنَّ الجوَّ اكفهرَّ، وبدأت موجة عاتية من الرياح الباردة، وأخذت درجة الحرارة في الهبوط والمطر يتساقط.

وشعرت بالبرد، وصار جانبي الأيمن يتجمدُ شيئًا فشيئًا. وأخذ بطني يمغصني، فقمتُ وشجعني المطرُ على السير، وظننت أن المراقبة لو شاهدتني فلن تحرك ساكنًا خوفًا من الشتاء.

ونزلتُ من تلك التلال إلى السهول الزراعية الموحلة، فوصلت الرمثا وأنا مبتل بماء المطر، ووقفت على الطريق، وأشرتُ

إلى شاحنة، وركبتُ فيها إلى عمان، وجئتُ البيت ليلاً ففرح الأولاد بقدومي سالمًا، وكنتُ لا أخبرهم بالمشقات التي أواجهها لئلا تنتقل إلى أبي فيتألم.

بعض الملاحقات والمضايقات داخل عمان

كثيرة هي الحوادث الصغيرة بيني وبين رجال الأمن: من الأمن الوقائي، والمخابرات العامة، وكيفية التحايل عليهم، والانفلات من بين أيديهم في المساجد والطرقات، وأحيانا وضع النشرات السياسية في أوعيتهم فلم يشعروا بوجودها إلاّ في بيوتهم، ولن أذكرها لأنَّه ليس ثمة داعٍ لذكرها.

وكثير ما كنت أراقبهم من حيث يراقبونني، وأحيانا أشعرهم بأني غافل عن مراقبتهم، حتى إذا اطمأنوا انسللت من حيث لا يعلمون، فلم ينتبهوا إلاّ وأنا غائب عن أعينهم، فيندفعون خلفي يُريدون اللحاق بي فأكون قد سلكتُ طريقًا غير التي يتوقعون، حتى صار لديَّ خبرة مع الزمن أعرف أسئلتهم قبل أن يوجهوها لي وأعرف متى يراقبون، ومتى يكفُّون عن المراقبة، وأعرف الأمكنة التي يتواجدون فيها فأتجنبها. [٥]

---

[٥] كثيرة هي المداهمات في منتصف الليل التي كنَّا نتعرض لها في البيت، وكثيرًا ما كنَّا نصحو على وجوه المخابرات الصفراء المنكودة، وهي توقظنا من النوم، وأمِّي تحمل معها إبريق ماء لتسقينا، حتى تخفِّف من آثار الخوف قبل أن يداهمنا بعد أن ندرك ما يحدث.

نفرك أعيننا لنفتحها على أصوات المخابرات الهائجة، وأثاث البيت المقلوب والفوضى التي عمته. نترك الفراش، ونبحث عن أبي بصمت، ونتساءل هل اعتقل أم هرب، فإذا عرفنا أنَّه هرب تنفسنا الصعداء، وذهب عنَّا الخوف.

وكثيرًا ما كان لأمي الفضل في تهريبه، وعرقلة عمل المخابرات حتى يهرب. ففي إحدى المرات في أواخر الستينات اقتحم رجال المخابرات البيت وألقوا القبض على والدي، وعندما أرادوا الخروج به، قالت لهم أمي:

عملت لكم شايـًا، ألا تشربونه؟ فجلسوا لشرب الشاي وأخذ أبي يدور عليهم بكاسات الشاي، وفي النهاية ذهب مُسرعـًا نحو أمي الواقفة بالباب فأعطاها الصينية وخرج هاربـًا من البيت.

وبعد لحظات انتبه رجال المخابرات إلى أنَّ أبي غير موجود، فتركوا الشاي واندفعوا جميعـًا إلى الباب حتى يلحقوا به، ولكنَّ أحدًا لم يستطع الخروج، فتراجعوا قليلاً، ثم خرجوا واحدا وراء الآخر.

ولكن ذلك استغرق منهم بضع دقائق، كانت كافية لابتعاد أبي عن البيت. فرجعوا إلى البيت، واتهموا أمي بتهريب زوجها، واقتادوها مع أخي الرضيع، وعمِّي إلى المخفر في العبدلي.

مكثوا ليلة، ثمَّ أطلقوا سراحهم في الصباح، وبقينا نحن في المنزل مع بعض الأقارب الذين حاولوا طمأنتنا على أمي التي سيفرج عنها قريبـًا، ووالدي الذي نجا من الظالمين.

وكثيرة هي محاولات الاعتقال الفاشلة، فعندما كانت المخابرات تدق الباب أو ترن الجرس كان الدق شديدًا، والجرسُ يرنُّ بعصبية فنعرف أنَّ المخابرات بالباب فتشير لنا أمي بالسكوت التام، حتى يهرب أبي إذ كان يصعد إلى السطح، ثم يقفز على أحدِ البيوت المحيطة، وكان معظمها بيوت أقارب لنا متعاطفين مع أبي فيخرج من البيت الذي قفز إليه إلى الشارع بعيدًا، ثمَّ يغيبُ يومـًا أو بعض يوم ثم يعود.

فإذا تم الهرب فتحنا الباب للمخابرات صارخين في وجوههم أنَّ أبي ليس في البيت، إنَّه في الشام، فينظرون إلى بعضهم ويقولون: ملقنين. أي أنَّ الوالد علـَّمنا أنَّ نقول لكل من يدق الباب: إنـَّه ليس بالبيت، إنـَّه بالشام، ولا نفصح عن مكان وجوده أبدا. لكنَّ المخابرات ما كانت تلقي بالاً لما نقول بل تدخلُ البيت، وتعيثُ فيه فسادًا، وطالما كنا نستغل الفرصة، ونقوم بتعزيل البيت، والتخلص مما هو زائد عن الحاجة، وترتيبه بعد كل محاولة اعتقال.

وأما المخابرات فكانوا يُوَدَّعُون بالمسبات والشتائم من قبل إخوتي الصغار والدعاء عليهم بالانتقام منهم. ورغم ذلك فقد كانت أمي في الأيام المُعتادة تقف موقفـًا معاديـًا من الحزب وانتماء أبي إليه، لشدة ما كانت تعانيه

السفرة الأخيرة إلى سوريا من أجل الجامعة

انطلقت من عمان إلى إربد إلى الرَّمثا، ثمَّ انطلقت ليلاً، ولم يعترضني ما يُعكِّر صفوي ودخلتُ سُوريا. وهناك في دمشق ذهبت إلى الجامعة، وقابلتُ الدكتور «فوزي فيض الله» وأعطاني الرِّسالة، وله عليها حوالي عشرين تعليقًا، فأعدتُ صياغتها، ونقضتُ الأصل الذي بنى عليه الفقهاء جواز المزارعة، وبيَّنتُ أنَّ الدليل الذي استندوا إليه لا يصلحُ دليلاً على المزارعة، وإنَّما هو دليلٌ على

من غياب أبي عن البيت وانشغاله بأعمال الحزب، وتحملها وحدها مسؤوليات البيت.

كانت تدافع عن الدولة كلَّما قام أبي بانتقاد سياستها، حتى كنا نُسميها حزب معارضة، وكان أبي يقول لها: لو تعلمُ الدولة كم تدافعين عنها لأعطوك راتبا شهريًا.

كانت الدِّعاية ضد حزب التحرير شديدة، وكان الناسُ مُضللين، ليس من قبل الدولة فحسب، ولكن من قبل الفدائيين والإخوان المسلمين، والناصريين والشيوعيين، اتفقوا جميعًاعلى محاربته وتشويه سمعته.

كان الناس ينادون أمي بزوجة الخائن، وكانت تردُّ عليهم متسائلة: هل دخل بيتكم لسرقته؟ هل رأيتم منه عينًا شائنة؟ هل رأيتم أبا العز يسلك سلوكا سيئا؟

أما نحن أولاده فكنا نشتبك مع أولاد الجبل بالأيدي والحجارة عندما ينادوننا بأولاد الخائن.

وقد ثبت فيما بعد أنَّ كل من كان يُعادي الحزب هو الخائن، وبقي هو على نظافته وطهارته من أي شائبة، فلم يُداهن يومًا حاكمًا، ولم يتفق مع أيَّة دولة.

كانت أحاديثنا وحتى أحلامنا التي نراها بالليل تدور حول المخابرات واقتحامها البيت، ودفاعنا عن والدنا بسب المخابرات، وشتمها وضربهم بالحجارة والكرابيج.

المساقاة، وأوردتُ أدلةً كثيرةً على عدم جواز المزارعة، فأقرَّها الدكتور، وكتب النتيجة جيِّد جدًا.

فغادرتُ الجامعة، وبقيتُ أيامًا في دمشق، ثمَّ قرَّرتُ العودة إلى الأردن، وركبت من الشام إلى درعا في باص، وعندما نزلت في درعا دعاني أحد الركاب إلى بيته، وهناك سألني: إلى أين تريد؟ أخبرته أني أريد الأردن، ولكنِّي مطلوبٌ لمخابراتهم، ولم أخبره أني مطلوب للمخابرات السورية.

فأحضر لي شابًا نشيطًا، وسيَّرهُ معي ليُجنِّبني كمائن المُراقبة الأردنية. وعندما كنَّا على مقربة من الرمثا، قال لي الشاب: اجلس مكانك ولا تحرك ساكنا، أقبلت إلينا دورية من الخيالة، فأخذتُ أتنصت. لم أسمع شيئًا، فقلت له: لا أسمع حركة، فقال: ليس لك خبرة بهذا، فنحنُ أخبر، فالتزمتُ ما قال، وإذا بثلاثة خيالة قد عمدوا إلينا ومرَّ أحدهم من بيننا، والآخران واحدٌ عن شمالنا، والثاني عن يَميننا، فلم يَرونا.

وأمَّا الخيل فلا تلاحق إلاّ من يهربُ أمامها نتيجة تدريبها. فانطلقنا بعد ذلك، حتى دخلنا الرمثا بسلام، وعاد هو إلى درعا بواسطة الطريق العام. وأما أنا فركبت سيارة إلى عمان، وكان ذلك عام ١٩٦٨م.

التدريس في مدرسة الجهاد الثانوية

تيسَّر لي التدريس في ((مدرسة الجهاد الثانوية)) في ((جبل اللويبدة)) حيث كان مديرها ((محمد محمود العزة)) ذا خلفية شيوعية. وكان يسألني دائمًا عن بعض آيات القرآن المتشابهات التي قال الله فيمن يتبعها: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ ﴾.

فظننته من أولئك، وكنتُ أفسِّرها لـهُ بحيث لا أترك شبهة في المعنـى، وفـي آخر العـام الدراسـي أهداني كتابـًا من تأليفه بعنـوان: ((الله، الكـون، الإنسـان)) أثبـت بطريقتـه الخاصَّـة زيـف النظريَّـة الماركسيَّة.

التدريس في مدرسة المجد الثانوية

وبعد أيَّام ذهبتُ إلى مدرسة المجد في جبل عمان، وتعاقدتُ مع مديرها لتدريس اللغـة العربيـة. وفـي نهايـة العام وضعتُ أسئلة للصف الثالث الثانوي ((التوجيهي)) فاعترض الطلاب بحجة صعوبة الأسئلة.

فتدخل المُدير لتغيير موضوع التعبير الذي كان ((تحدث عن الاقتصاد في الأردن)). فطلب الطلابُ بدلاً منهُ موضوعـًا سياسيـًا فكتبت لهم بيت الشعر الآتي في وصف مؤتمر القمة العربية:

خافوا على العار أن يُحمي فكانَ   لهُم على الرِّباط لدعم العَار مُؤتمر

فاحتجَّ بعضُ الطلاب الضعفاء، لا لصعوبة الموضوع، بل لأنـِّي لم أمكنهم من النقل من الكتب، فقال المدير غـيِّر فكلُّ أسئلتك صعبة. فقلتُ له راقب طلابَ مدرستك، وأنا تاركٌ التدريس فيها لأنـَّكم تجار ولستم مربين.

التدريس في مدرسة الأردن الثانوية

درست سنةً واحدةً في هذه المدرسة، فكنتُ أدرِّسُ الصف التوجيهي اللغة العربية، والتربية الإسلامية، وأدرس الثاني الثانوي التربية الاسلامية، وموضوع الميكانيكا من العلوم، وأدرِّسُ الأول الثانوي، والثالث الإعدادي اللغة الانجليزية، والتربية الإسلامية.

التدريس في مدرسة ثانوية العاصمة

درَّست فيها سنةً واحدةً، كنتُ أدرِّسُ فيها التربية الإسلامية، ثمَّ بعد نهاية العام وهو عام ١٩٧٣م، تركت التَّدريس نهائيا، وتفرَّغتُ للعمل الحزبي.

السماح لمنظمة فتح بالعمل داخل الأردن

بهد هزيمة الدول العربية ـ أو التظاهر بالهزيمة ـ من قبل الأردن وسوريا أمام إسرائيل عام ١٩٦٧م بدا على أنظمة الحكم الضعف فقلَّتْ هيبتُها، وصار احتمال هدمها واردًا.

فأراد الحكم في الأردن أن يُشغل النَّاس في العمل الفدائي، فأتاح للمنظمات العمل داخل الأردن، وفتح حدوده لهم لمهاجمة إسرائيل ليشغلهم عن نفسه، ولكن بموافقة إسرائيل لأنَّ إسرائيل تحرص على الحكم في الأردن حرصها على نفسها.

فانتشر الفدائيون داخل المُدن الأردنية، وفي المخيمات الفلسطينية، والأرياف الأردنية، وصارُوا يُنادون: من أراد الجهاد فعليه الالتحاق بالمنظمات، ومن يَعمل ضد الأنظمة الخائنة ليثيرها علينا فهو خائن. وكانت أخبار المجموعات التي تنزل للقيام بالعمليات داخل إسرائيل تسبقهم إلى إسرائيل من قبل مخابرات الأردن، وجواسيس إسرائيل داخلَ المنظمات الفدائية، فتكون إسرائيل لهم بالمرصاد، فلم يكتفِ الحكام بتسليم البلاد لليهود، بل لا بُدَّ من قتل كلِّ من توفَّرت فيه الرُّوح الجهادية.

وكنَّا يومئذ نقوم بالزيارات المُكثفة لقواعد الفدائيين ولرؤسائهم، ونبصِّرهم بالسياسة المخططة لهم وهي: خدمة الحكام من جهة، وخدمة إسرائيل من جهة أخرى. أمَّا خدمة الحكام فبالمحافظة على كراسيهم، وأمَّا خدمة إسرائيل فبالوصول إلى ترويض الشعب الفلسطيني لقَبُول الصلح مع إسرائيل.

وكنَّـا نلاقي العنت الشديد أثناءَ المُواجَهة مع الفدائيين، وكنَّـا نصدرُ النشرات التـي تصمُ رؤساءهم بالخيانـة، وكنَّـا نـُضرَبُ منهم أحيانـًا، وكانوا يتعاونون مع المخابرات الأردنية للقبض علينا. وكانت الدولة تعمل لها تنظيمات داخل الفدائيين، تستطيع بوساطتها معرفة ميول كلِّ فرد في المنظمات الأخرى، وتتجسس عليهم.

اعتقالي من قبل إحدى منظمات الدولة

ذهبتُ ذات ليلة إلى مخيم الوحدات لوداع صديق لي، اذ فرَّغهُ الحزب لسُوريا، وبينما كنتُ راجعا لبيتي بجبل النظيف اعتـُقلت من قبل مُسلحين سلموني للمخابرات العامة الأردنية – وكانت المخابرات تفتش علـيَّ، وتبحث عنِّـي منذ فترة بسبب قيامي أنا وصبري العاروري، وياسر غيث بزيارة ((محمد منكو)) المدعي العام للمحكمة العسكرية التي كانت تتولى محاكمة شباب حزب التحرير بتهمة اشتراكهم في محاولة القيام بالانقلاب ضد نظام الحكم في الأردن، وبزيارة رئيس المحكمة آنذاك ((تيسير نعنانة)).

وكان ((محمد منكو)) قد استدعى المخابرات لاعتقالنا في بيته، فلما دخل ضابط المخابرات الغرفة التي نحن فيها لم يجد ((محمد منكو)) المدعي العام، فعرضنا عليه الجلوس فأبى، واذا بالمدعي العام ((محمد منكو)) قد دخل علينا ومعه القهوة.

فأخذنا كل فنجانه، أمَّا أنا فشربته بسرعة، ثمَّ قلتُ لـ ((محمد منكو)) نشكرك على استقبالنا في بيتك، وإن لم نتفق فنرجو أن نتفق في المرَّة الأخرى، وقلت لرفاقي: قوموا، فخرجنا قبل أن يتكلم مع ضابط المخابرات.

فوجدنا سياراتهم خارج البيت تنتظر، فقلت لصاحبي: أسرع بنا قبل أن يتخذوا قرارًا باعتقالنا- فركبنا سيارة تكسي، وذهبنا إلى

بيت «تيسير نعنانة» رئيس المحكمة العسكرية، وقرعنا باب بيته وأدخلنا بعد تردد.

ولما جلسنا أخذ يروح ويجيء دون أن يكلمنا، ودون أن يعرف هويتنا، فقلتُ له: ألا تجلس معنا نتحدث قليلاً ثم ننصرف، فجلس على مضض، وتحدثنا في أمر المعتقلين، ومحاكمتهم فوجدناه غاضبًا ساخطًا، فقمْنا وانصرفنا.

وفي اليوم التالي زرت عمَّ « محمد منكو» في مكتبه، وتحدثت معه عن لقاءنا مع ابن أخيه، وخوفتُهُ بالعواقب التي قد يتحملها هو لا ابن أخيه، ويبدو أنـَّهُ نقلها لابن أخيه ونقلها الآخر بدوره إلى المخابرات فكان ذلك سبب سخطهم عليَّ، وتشديد البحث عنِّي حتى تمَّ اعتقالي.

تعذيبي داخل المخابرات العامة
على يد المحقق « ذيب بدر»

أدخلوني الزنزانة في الليل، وعند الصباح أخذوني للمحقق « ذيب بدر» وسألني عن أعضاء الولاية في حزب التحرير، وعن «الشيخ تقي الدين النبهاني» المطلوب بتهمة محاولة الانقلاب، وكنت أعرف مكانه الذي يختفي فيه، كما سألني أسئلة مهمَّة كثيرة، وخاصَّة عن المطبعة التي تطبع فيها النشرات، فأنكرتُ معرفتي بكل ذلك، فأخذوني إلى ساحة التعذيب، وجاء اثنان من الجنود، وربطا رجليَّ بخشبة ورفعاها، وبدأ « ذيب بدر» يجلدني بكلِّ قواه وبكلِّ ما في نفسه من حقد، لأنِّي قد فلت من أعوانه يوم جاؤوني في الغابة، وفلت منهم بحيلة، فقد طمس الحقد على قلبه، وأعمى بصيرته، فصار يجلد بكلِّ عـُنف، ولم يقبل لاحد غيره أن يجلدني، فكان يجلدني في الصباح مرتين، وفي المساء مرتين، واستمر على هذا النهج أسبوعـًا كاملاً ينتظر منِّي الاعتراف، أو أن أترجَّاه تخفيف الضرب، فلم يسمعْ منِّي

طوال المدة إلا كلمة واحدة أردِّدها أثناء تعذيبي وهي ((يا الله)) كنت أردِّدها طوال فترة التعذيب، ولم أقل غيرها.

يوم الامتحان الصعب

من عادة المخابرات أنها تحاول – آخر المطاف- أن تفرغ حقدها في الشخص الذي تحقق معه اذا لم يُدل ٍ بشيء من المعلومات التي تريد، فتضربه وتعذبه بالوسائل التي لديها تعذيبًا شديدًا يفوق كلَّ ما تقدم من تعذيب.

ولذلك جاء المحقق ((ذيب بدر)) ومعه رزمة من عصي الخيزران، وأخذ يجلدني بكلِّ ما أوتي من قوة مصحوبة بأحقاده، وأنا أردِّد ((يا الله، يا الله)) فلا أزيد عليها، ولا أقول غيرها، حتى تكسَّرت كُلُّ العصي، ولم يَبقَ إلاّ قطعة عصا.

فلمَّا لم أقل إلاّ ((يا الله)) توقَّف عن الضرب، وأظهر غضبًا شديدًا، وكاد أن يتمزق من الغيظ، ثمَّ قال للجنود: خذوه فألقوه في جورة الامتصاص، فجرَّدوني من ثيابي، ولم يُبقوا عليَّ إلاّ اللباس الداخلي السفلي، وعَصَبُوا عينيَّ ببشكير، واقتادوني حتى حافة الجورة، فقلت لهم: أعيدوني إليه.

فأعادوني فقلت: ما الذي تريده؟ قال: كلُّ شيء سألتك عنه، فقلت له: أراك تعبًا، ما رأيك أن تطلق عليَّ رصاصة من مسدسك، فتريح وتستريح؟

فقال مستنكرًا: أنا أطلق عليك الرَّصاص؟ واللهِ لتموتَنَّ تحت يديَّ موتا بطيئا. فقلتُ مُتحديًا: واللهِ لو تقطعني إربًا إربًا ما حصلت منِّي على ما تريد.

فقال للجنود – وقد يئس –: خذوه إلى الزنزانة ، فجلستُ وأنا أشعر بقشعريرة، ولكنْ لا يُؤلمني شيء معيَّن، فكان أثناء الضرب

يضرب على القدم بشكلٍ طوليٍّ، بحيث يكون وقع العصا من الكعب إلى الأصابع.

وكنت أسمعُ أن قدمي المضروب ورجليه يتورَّمان، ولكنَّ الغريب أن قدماي لم يتورما، ولم ينزل الدم منهما، ولكن بعد فترة وأنا في السِّجن رحلت جلدة القدمين التي كانت تتلقى الضرب بعد موتها.

ضربة قاسية لجهاز المخابرات
أثناء أخذ الإفادة وكتابتها

جاء ((ذيب بدر)) صباح اليوم التالي وأحضروني إلى مكتبه وكلُّ ظني أنَّه سيواصل التعذيب، ولكنه قال: نريد أن نكتب الإفادة لتوقع عليها في النهاية، فقلت: نعم.

سألني ((ذيب بدر)) قائلا: من هم لجنة الولاية في الأردن؟ وكنت أعلم أنَّهُ يعرفهم، فقلتُ أنا وفلان وفلان حتى ذكرتُ السبعة، فنهض واقفًا وصارخًا ومستغربًا وقال: تقولها؟ – أي أسماء لجنة الولاية – بلا شيء - أي بدون مقابل.

ولِمَ لم تقلها من البداية، وتوفِّر على نفسك ما لا قيته من التعذيب؟ فابتسمت، وقلت له: لم أقلها لأمرين:

أحدهما لأريك أن عصاتك لا تنتزع مِنِّي ما لا أريد أن أقوله. والآخر أني أكره أن أهين نفسي بنفسي حينما أدلك على أصحابي، وأتخلَّى عن شهامتي ومروءتي.

فقال: ها أنت قلتها. فقلت: نعم، قلتها، لأنَّك تعرفها، وسؤالك عنها كان فضوليًا، ولو أنَّك لا تعرفها لما سمعتها منِّي أبدًا.

التلاعب بالمحقق

قال: وما يدريك أنـِّي أعرفها؟ قلت: وصلتك أسماؤها ليلة انتخابها، قال: كيف؟ قلت: من قبل جواسيسك عندنا. قال: وهل لنا عندكم أحد؟ قلت: نعم. قال: ولم تتركونهم بينكم؟ قلت: لا نعرفهم.

قال: كيف عرفتم؟ قلت أخبرنا الذين لنا عندكم. قال: وهل لكم عندنا أحد؟ قلت: نعم . قال: ومن هم؟ قلت: لا أدري.

قال: فكيف عرفت ذلك؟ قلت: جاءنا كتاب من القيادة، فأخبرنا بذلك. فقام وقد تغير وجهه، وأمر بإعادتي إلى الزنزانة وخرج.

عرفت بعد خروجي من السجن أنـَّه لم يترك أحدًا من أعضاء جهاز المخابرات إلاَّ نقله من دائرة عمان إلى غيرها، لكي لا يعرفوا ما يجري داخل دائرة المخابرات العامة.

وعاد بعد ظهر ذلك اليوم ليُكمل أخذ الافادة وأخذ يسألني عن المطبعة، فأجيبه بالنـَّفي حتى أمضى عدة أيَّام وهو يسأل نفس السؤال وأجيبه بالنـَّفي.

فلمَّا ضقت من أسئلته فكـَّرتُ في خطة لأتخلـَّص منه. فبتُّ ليلتي أفكـِّر، فلما جاء الصباح وجاء وكرَّر السؤال عليَّ قلت له: إلى متى سأبقى أخفي هذه الجوهرة؟ سأدلك عليها. قال أين هي؟ قلت: لا أعرف وصف الطريق، ولكن أذهب معك وأسلمها لك.

قال: في أي جبل من جبال عمان؟ قلت: ليست في جبل، فأصرَّ أن يعرف مكانها قبل أن يذهب. قلت: هي في مخيم الوحدات، وكنتُ أريد أن أذهب به إلى قاعدة من قواعد الفدائيين الخفية أملاً في أن يُمسكوا به وأتخلص منه.

فقال: أردتَ أن تقتل ستة جنود؟ قلت أولا تكون معهم. فقال: إذاً أردت قتلي؟ قلت: نعم. أردتُ أن أتخلص منك. فقال: لا نريدها،

يعني المطبعة. فصرت إذا ضايقني في السؤال عن شيء أقول: في الوحدات، فكفَّ عن السؤال.

وأراد الآخر أن يستغفلني، فقال: أمسكنا بصاحبك «صبري العاروري» أحد أعضاء لجنة الولاية، فقلت: وأين أمسكتم به؟ فقال: في طريقه إلى الزرقاء ـ وكان صبري مُكلَّفًا في حينها بالإشراف على منطقة الزرقاء ـ وقد بدأتُ أسمعُ صوتًا كصوته ممَّا جعلني أصدِّق أنَّهم أمسكوا به.

ولكنَّ بلادة المحقق من جهة، وكذبه من جهة أخرى، جعلني أدرك أنَّهم لم يمسكوا بـ «صبري العاروري». فأشعرته أنِّي مُصدِّق له. فصرتُ كلَّما شدَّد على معرفة أمر. أنكر أنِّي أعرفهُ، وأقول له: اسأل «صبري العاروري»، فإن قال لك أنِّي أعرفه، فتعال أخبرك عنه فيسكت. فاتخذتُ مخيم الوحدات، والأخ «صبري العاروري» سلاحين أحتمي بهما، وأخدعه وهو لا يدري.

اكتشافي جاسوسهم في «حزب التحرير»

وفي إحدى جلسات التحقيق سألني فيما إذا كنت قد قلت بأنَّ الملك حسين خائن في مكان ما في جبل الحسين بعمان، فتظاهرتُ كأنِّي كنتُ معَ شخصٍ أشك في إخلاصه، فقلت له: أفلان هذا يعمل معكم؟

فقال: نعم. ثمَّ مضى في التحقيق، حتى وقت الغداء ثمَّ انصرف، وعاد بعد الظهر يسألني عن كلام قلتهُ لشاب من شباب الحزب، ولم أقلهُ لغيره، فقال: هل سبق وأن قلت كذا وكذا؟

فتذكرت في نفسي أنَّ هذا الكلام لم أقلهُ إلاَّ لفلان، وهذا لم يُعتقل فكيف عرف المحقق أني قلته لولا أنَّ هذا الشاب هو الذي أخبره به؟ فهو إذاً جاسوسهم عندنا. فقلت للمحقق: لم أقل هذا القول، وبعد أيام انتهى التحقيق ووقعت عليه، ثمَّ نقلوني إلى سجن المحطة.

إلى سجن المحطة

نقلت من دائرة المخابرات العامة إلى سجن المحطة[٦]، وهناك التقيت بشباب حزب التحرير، وكانوا يومئذ ستة وثمانين شابًا، ومن بينهم أحد أعضاء قيادة الحزب، وهو «الشيخ أحمد الداعور» ـ رحمه الله ـ فرحَّبوا بي، وهنأوني بالخروج من المخابرات.

وكان «أبو أحمد الشيشاني» أمير الشباب في السجن، فأخفوني في الحمام، وأعدوا قلما وأوراقًا لأكتب للحزب ما حدث معي. وطلبت من الحزب أن يحقق مع الشاب حاتم فهو جاسوس في المخابرات. فلما ذهب «عبد الرحيم الرمحي» ليحقَّق معه هرب، ولم يعد للحزب. فكان تحقيق «ذيب بدر» مضرًا للمخابرات.

ولما وصل تقريري «الشيخ تقي الدين النبَّهاني» قائد الحزب وكنت أعرف مكانه في عمان، وهو يعرف بيتي أفتاني بقتل «ذيب بدر» ليس بصفتي حزبيًا، ولكن بوصفي شخصًا عاديًا؛ لأن الحزب لا يستعمل الناحية المادية.

ولكنْ بدلاً من أن أفكِّر بالانتقام منه، دعوت الله تعالى أن ينتقم لي منه. وبعد أيَّام مثلت أمام المحكمة العسكرية برئاسة القاضي «تيسير نعناعة». ولمَّا مثلت أمامهُ سألني: ما انتماؤك؟ ثمَّ أمر

---

[٦] أثناء النقل في الزنزانة المتحركة كان أبي يجلس إلى جانب متهم آخر، حُكم عليه بسنة أو أقل، وكان يصرخ ويُولول وأبي صامت، فضاق الشرطي ذرعًا به وقال له: أنت تصرخ وتولول من حكم سنة، والذي يجلس معك محكوم بخمس عشرة سنة وهو هادئ صامت.

فنظر الرجل إلى والدي وصرخ أأنت محكوم بخمس عشرة سنة، لم تصرخ ولم تتكلم؟ فقال له: أنا متوكِّلٌ على الله، وأملي به كبير في أن يعفو عنِّي، فتعجب الرَّجل ممَّا سمع ورأى.

الجندي بأخذي، فخرجت وأخذ الجندي ورقة من المحكمة، حيث كان الحكم جاهزًا قبل سماع إفادتي.

ودخل الجندي غرفة الطباعة وتركني، وكان الجندي الآخر على باب العمارة، فدخلت غرفة مجاورة، فلم أجد فيها أحدًا، وفيها شباك مفتوح يُفضي إلى حرش خلف دائرة المحكمة، فحدثتني نفسي بالهرب، وكان الأمر ميسورًا، إلاّ أنّني تذكرتُ أنَّ السِّجن أكثر استراحة من المطاردة والملاحقة خارج السجن.

وكان الشباب يتوقعون هروبي. فصبرت حتى جاء الجندي وسرتُ معه، فسألتهُ عن الحكم، فقال: خمسة عشر عامًا، ولمَّا وصلنا السجن استغرب الشباب عدم هروبي، وسألوني ألم تتمكن من الهرب؟ فقلت: كان بإمكاني ذلك، ولكنِّي آثرت البقاء معكم. فسألوني عن الحكم فقلت: مثلكم، وكانوا محكومين بنفس الحكم ما عدا الضباط العسكريين فكانت أحكامهم الاعدام[٧].

إذاعة بيان لحزب التحرير من الإذاعة الأردنية

جاءنا خبر من خارج السجن يطلب منَّا الاستماع للإذاعة يوم الجمعة ففتحنا جهاز الراديو، وإذا بالإذاعة تقول: بيان من حزب التحرير، فظنَّ بعضنا وكثير من النَّاس، ورجال الأمن المنتشرون في الأسواق أنَّ انقلابًا حدث ففرَّ رجال الأمن، وخاصة المخابرات منهم.

والواقع أنَّه لم يكن هنالك انقلاب، بل إنَّ أحد الشباب واسمه ((عبد الحليم الرمحي)) اغتصب جهاز ((الميكروفون)) المرتبط بالإذاعة

---

[٧] اتُّهم الحزب مرتين بمحاولتي انقلاب في الأردن: الأولى عام ١٩٦٩م، والثانية عام ١٩٧١م، وكان أبي من ضمن المتهمين فيهما، لكن لم يثبت عليه شيء، وقد كان أحد الضباط شهمًا، فتحمل المسؤولية وحده، واعترف على نفسه فقط بأنَّهُ هو الذي دبَّر للانقلاب وحده، ولم يتفق مع أحد، وقد حُكم الضابط وغيره بالإعدام، ثمَّ عُفي عنهم لعدم كفاية الأدلة.

من يد ((الشيخ عبد الله غوشة)) الذي كان يلقي درسًا في المسجد الحسيني الكبير في عمان، وبدأ بإلقاء بيان حزب التحرير، وظلَّ يقرأ البيان، وقبل انتهاء البيان أغلقت الدولة الجهاز إلاَّ أنَّ الشاب ظلَّ مُستمرًا في قراءة البيان حتى النهاية. ثم لاذ بالفرار، وكانت السيارة تنتظره فركبها وهرب، ولم تتمكن الدولة من إلقاء القبض عليه.

تصديق الحكم من رئيس الوزراء

دعيت صباح ذات يوم من قبل إدارة السجن للتوقيع على قرار الحكم، فأخبروني أني محكوم شهرين فقط، وخيروني بين إمضائها في السجن أو دفع ثلاثين دينارًا، فوقَّعتُ على الحكم، وعُدتُ إلى الشباب، وجمعت الثلاثين دينارًا وخرجت. وفوجئ الشباب بخروجي وظنوا بي الظنون، ولم أعلم ما السبب في تخفيف الحكم. وعند عودتي للبيت أخبرني جارٌ لنا بقَّال أنَّ ولدًا لـ((عاكف الفايز)) - رئيس مجلس النواب- جاءَ للبقَّال وسأله عن اسمي الكامل. وأخبرني أن أخي اتَّصل بأحد الرِّجال المُقرَّبين لـ((عاكف الفايز)) ليحُضَّهُ على العمل لإخراجي من السجن. وكان عاكف مَدينًا لواحدٍ من بلدنا، حيث تبرَّع لولد ((عاكف)) بكليةٍ من كليتيه، فكان ((عاكف)) يحتفظ بالمعروف لكل البلد. وبعث الحزبُ لي شابًا اسمه ((أحمد بيَّاعة)) يسألني بعض الاسئلة، فأخبرته فعاد يحمل الجواب للحزب.

ثم جاءني أحد الشباب ذو الاتصال المباشر بالشيخ ((تقي الدين النبهاني)) فوجدني مشغولاً في تكملة صورة للصخرة المشرفة، ورآني على أهبة الخروج. فقال لي: إلى أين؟ قلت: لمُواصلة العمل، وهذه الصورة أريد أن أقدمها هدية لصاحبي. فعادَ وأخبرالحزب بما سمع، فلم أشعر إلاَّ والشيخ ((تقي الدين النبهاني)) يدخل البيت، ويُسلِّمُ عليَّ ويهنيني بالسَّلامة، ثمَّ انصرف ومن في صحبته.

ثمَّ واصلت عملي ونشاطي الحزبي. وكان الوضع في الأردن مُضطربًا اضطرابًا شديدًا، والدعاية المُغرضة التي تحرك الجيش كبيرة جدًا، وكانت أعمال الفدائيين لا تقلُّ سوءًا، ووصلت العنصرية إلى حَدٍ لا يَستطيعُ أحد أن يوقفها. وكان المُخطط الإنجليزي الصهيوني العرفاتي الأردني على وشك التنفيذ، وكان للمخطط هدفان:

- الأول يقتضي تسليم الحكم في الأردن للفدائيين، وإخراج الملك حسين خارج الأردن، ثمَّ التدخل الإسرائيلي، بحجَّةِ أنَّ الحُكم الجديد حكمٌ إرهابي لا بُدَّ من القضاء عليه، وإعادة الملك حسين، وعقد صلح بينه وبين إسرائيل. إلاّ أنَّ أمريكا أدركت المُخطط، ومنعت من تنفيذ الجزء الأول منه، بمنع إسرائيل من التدخل، فتداركت بريطانيا الأمر، وأوقفت القتال.
- والثاني إيجاد الكراهية والعنصرية بين الفلسطينيين والأردنيين، بحيث لا يعود الخطر منهما في تعاونهما على إزالة الحكم في الأردن موجودًا. إذ ما زال في تلك الساعة المتآمرون على الإطاحة بالحكم من الأردنيين والفلسطينيين في السجن، وتريد إسرائيل أيضا أن لا يعود التعاون بين الطرفين لمحاربة إسرائيل، ولينته دور فتح الحدود للمنظمات الفدائية التي تهاجم إسرائيل من الحدود الأردنية.

تفتيش بيتي

داهم رجال الأمن بيتي ذات ليلة وفتشوه، ووجدوا مُسدسًا غير مُرخَّص لابن عمٍّ لي، فاعتقلوني ليلة في نظارة مخفر المُصدار في عمان، وكان بإمكاني الهَرَبُ إلاّ أنني كنتُ أعرفُ أنَّهم سيكتفون بمصادرته.

فطلبوا صاحبه ووضعوه في النظارة بدلاً منّي فحاولتُ إخراجه بوساطة «نايف الخريشة» رحمه الله. فقال مدير الأمن لي: تعاون مع هذا الضابط لإخراج قرابتك، ظنًا منه أنني أنا الذي في النظارة.

فقلت للضابط بعد أن خرجنا من غرفة مدير الأمن: ما التعاون الذي تريده؟ قال: ضد حزب التحرير، فقلت له: أنا العضو في حزب التحرير، وليس رهين النظارة. فلا حاجة لي في هذا التعاون، وليبق من في النظارة في النظارة حتى موعد المحاكمة. وأخيرًا حُولنا نحنُ الاثنان إلى المحافظ، وخرجنا بالكفالة، وصودر المسدس.

السفر لأداء فريضة الحج

تعاقدتُ عام ١٩٧١م مع وزارة الأوقاف لأكونَ مُرشدًا للحجاج، وكنت مسؤولا عن حمولة سيارة تحمل خمسين حاجًّا، وكانت رحلةً مُمتعةً حقًا لكونها لله تعالى. وقد ذكرتني تلك الرحلة بما حصل بيني وبين أمير الحديثة في السعودية قبل عشرين عامًا يوم أقسمتُ أني لا أعود إلى السعودية باحثًا عن رزق إلاّ أن أكون حاجًّا إلى بيت الله الحرام.

مداهمة بيتي عند منتصف الليل

وكان شاب اسمه «بدر الدين بدر» دكتور أسنان يعمل لإيجاد انقلاب في الأردن، وكان يُشعِر من يتصل بهم أنـَّهُ يَعملُ مَع حزب التحرير زورًا وكذبًا.

وكانت لهُ علاقة حميمة بـ «فنخير الشراري»، وكان فنخير يعمل في المخابرات التابعة للقصور، فوشى به فاعتقل واعتقلوا بعض شباب الحزب ظنا منهم أن لهم علاقة بالدكتور «بدر الدين بدر» فداهموا بيتي عند منتصف الليل.

ففررت منهم قبل أن يفتح الباب لهم، فلم يجدوني ثمَّ فيما بعد خرج الشباب الذي اعتقلوا بَعدَما تأكدت المخابرات أن لا علاقة للحزب بالدكتور بدر، أما الدكتور بدر فبقي في السجن لمدة ست سنوات.

التنقل بين عمان وبيروت

بعد انتقال قيادة الحزب إلى لبنان، طلب مني الشيخ «تقي الدين النبهاني» أن أوافيه كل شهر، فصرت أسافر بطريق البر، وكلما عُدتُ إلى الأردن أمر بغرفة المُخابرات على الحُدود الأردنية، ويسألونني عن أسباب سفري.

فكنت أشعرُهُم أنني أتاجر بالملابس القديمة، وببعض المواد الغذائية التي كنتُ أحضرُها معي لبيتي، فكنت إذا وافيت الحُدود وأنا أحمل رسالةً أبقيها في جيبي حتى يجري تفتيش السيارة، ثم أضع الرسالة في السيارة، وأذهب إلى غرفة المخابرات فيفتشونني فلم يجدوا شيئًا، فيعطونني كابونًا علامة على السماح بالدخول إلى الأردن، فاذا عدتُ إلى السيارة حملتُ الرسالة ووضعتها في جيبي، وهكذا في سفراتي البرية.

أحداث لبنان، وإيقافي في طريق الجنوب عند حاجز للقوات اللبنانية

بدأت أحداث لبنان بين الفدائيين والجيش السوري، واستطاع الجيش السوري إخراج الفدائيين من ظهر البيدر، أي من مدينتي صوفر وبحمدون، وتحولت الاشتباكات بين الفدائيين وحزب الكتائب في المنطقة بين عاليه وبيروت، فنضطر أحيانا أن نذهب إلى بيروت عن طريق الجنوب ذهابًا وإيابًا.

وفي إحدى السفرات وأنا عائدٌ من بيروت استوقفتني قوات «أحمد الخطيب» إحدى القوات اللبنانية، وفتشوا هوياتنا، وأنزلوني أنا

الوحيد من السيارة، وأخذوني إلى غابة كثيفة الشجر، وأوقفوني فترة بعد أن سألوني عن سبب مجيئي إلى بيروت، ولكوني فلسطينيـًا ومن منطقة الخليل، تشككوا في أمري، وأجروا اتصالات لاسلكية، ويبدو أنهم سألوا عني الأمن في بيروت، ثمَّ أطلقوا سراحي.

فلما عُدت إلى السيارة وإذا السائق منزعجٌ، فقلت له: ما الذي يزعجك؟ فقال: كيف لا أنزعج، وأنا المسؤول عن إيصالك إلى الشام؟ فبمجرد إنزالهم لك ظننت أنَّك لن تعود، فما أنزلوا شخصـًا إلاَّ قتلوه؛ لذلك أرجو أن لا تعُود إلى مثل هذه السفرة.

وسارت بنا السيارة حتى إذا وصلنا حاجزًا لقوات الصاعقة السورية، وسألونا عن هوياتنا أنزلوني وحدي، وحققوا معي، ولمَّا عُدتُ إلى السيارة وجدتُ السائق منزعجـًا أيضـًا فطمأنته فقال: إيـَّاك أن تركب معي مرة ثانية، فصرتُ بعد ذلك أسافر بطريق الجو لأتجنب تلك الحواجز المسلحة.

اعتقالي على الحدود السورية اللبنانية[٨]

خرجتُ من بيروت، والمطرُ ينهمرُ من السماء والثلج يتساقط بغزارة، وكانت طريقنا من خط الجنوب- بيروت- صيدا- النبطية- وادي البقاع- ولمَّا وصلنا النبطية أغلقت الطريق بالثلوج، فعدنا إلى بيروت، ثمَّ سافرتُ في اليوم الثاني.

ولمَّا وصلنا الحدود السورية كان ارتفاع الثلج أكثر من نصف متر، وهناك منعتُ من دخول سُوريا- وليتني عُدتُ إلى بيروت- ولكني دخلتُ على ضابط الأمن أستفسر عن سبب منعي

---

(٨) مرَّت علينا أيامُ اعتقال الوالد في سوريا شديدة، لم تمُرَّ علينا أيامٌ مثلـُها، ذهب عمِّي إلى الشام، وسأل عن أبي لكن لا جواب من دولة حزب البعث، ولم يعترفوا مطلقاً باعتقاله، ثمَّ ذهب إلى لبنان وبالاتفاق مع خالي الذي كان يعمل مع فتح تمَّ البحث عن أبي في لبنان، في كلِّ شبرٍ فيها لكن لم يظهر له أثر.

وقد ساهمت القصص والدعايات المغرضة في سوء حالة أمِّي . ففي كل يوم كانت النساء تنقل لأمِّي خبرًا عن جثة وجدوها في المكان الفلاني، ولم يتعرف عليها أحد لمَا أصابها من تشويه، أو وجود قتيل يشبه الوالد طويل وأشقر وعيونه زرقاء، أو وجود قتيل آخر أكلت منه دود الأرض، ووحوش الفلاء وطيور الفضاء، ثمَّ وصلتنا أخبار عن قتلى في لبنان، وأبي واحدٌ منهم.

وما زاد في مأساة أمِّي أنَّ أخي بلالاً وقع من فوق سطح البيت وتفتَّت طحاله، ونقلته إلى طوارئ البشير، واحتاج إلى إجراء عملية جراحية عاجلة، وسأل الطبيب أين والد الطفل فلم تجبه أمي وأصرَّ على حضوره، وأجهشت بالبكاء فقال لها: هل هو فدائي لا تريدين ذكر مكانه؟ إنَّه بطل! سأجري له العملية. وقد عرُفت فيما بعد أنها زبونة في قسم الطوارئ، وذلك من كثرة ما كانت تحضر إخواني للإسعاف لديهم بسبب مشاجرة أو وقعة.

فأخذ جواز سفري وأركبوني إحدى سيارات نقل الركاب، وأرفقوا معي رجل أمن لتسليمي في دمشق.

وكان بإمكاني الهرب على الحدُود، وأثناء سيرنا في شوارع دمشق، ولكن خشيت على الحدود أن أموت في الثلج، وفي دمشق خشيت أن أفقد جواز السفر لأنَّ الجواز كان مع الشرطي، وصلنا إلى مركز الأمن داخل دمشق، وسألني المناوب المسؤول عن انتمائي فأنكرتُ أنـِّي مُنتمٍ لجهةٍ أو لحزبٍ من الأحزاب، فأخرج مَلفـًا من الدُّرج وقال لي: أنت عضو لجنة ولاية في حزب التحرير، ومعك فلان وفلان حتى عدهم السبعة.

ثمَّ أمر بإرسالي إلى سجن اسمه «سجن الشيخ حسن» وهو مشهورٌ بضيقه، وعدم صلاحيته لسكن الدَّواب، ناهيك عن سكن البشر، وهناك أخذني المناوب وأدخلني في زنزانة مظلمة، تكاد تكون ثلاجة لبرودتها. وهي عبارة عن حمام طولها ١٨٠سم، وعرضها ١٢٠ سم، وارتفاعها ٢٠٠سم، مقسومة طوليا إلى نصفين:

- النصف الأول مرتفع ٦٠ سم مصبوب بالبطون «الإسمنت» مخصص للنوم.
- والنصف الثاني فيه «جورة» أي حفرة المرحاض، يعلوها حنفية ماء للشرب ولغيره، وكأس صغيرة من البلاستيك. وليس فيها ضوء كهرباء، ولا إبريق للاستنجاء، وإذا أردتَ أن تصلي فإنك تصلي جالسًا ووجهك نحو جورة المرحاض.

وقد طلبت من المناوب شمعة لأشعلها لأرى كيف أتصرف فأعطاني شمعه طولها ٥ سم، ولم يحضر لي فراشـًا ولا غطاء، فأخذتُ أصرخ عليه، فأعطاه المساجين عددًا من البطانيات فرشتُ بعضها تحتي، وتغطيتُ ببعضها الآخر، وبقيت فيها مدة ٢٣ يومـًا كانت أشدَّ عليَّ من سجن سنةٍ في سُجُون الأردن.

ولم يسمحوا لى بالخروج مع المساجين، وفي إحدى الليالي احتلمت من كثرة البرد وأردتُ أن استحم لأزيل الجنابة حتى أصلي فجلستُ قبال الحنفية لأغتسل، وملأت كأس البلاستيك التي لا تتسع لأكثر من ٢٠٠ ملغرام ماءً. وبدأت من قدميَّ فإلى ساقيَّ ففخذي فتجمَّدتْ كلُّ الأعضاء التي أصابها الماء من شدة البرد، فتوقفتُ عن الاغتسال.

ولحُسن حظي ذلك اليوم أخرجُوني مع المساجين، فكان بجانب زنزانتي غرفة يقيم فيها ثلاثة مساجين عندهم بريموس يسخنون عليه الماء، فأطلعت أحدهم على حالي، وطلبتُ منهُ ماءً ساخنًا فوعدني بذلك. فلمَّا أدخلونا إلى زنازيننا وافاني الأخ أبو أنس بـ « سفرطاس» ـ وهو وعاء صغير يوضع فيه طعام للمسافر ـ فيه ماءٌ ساخن لا يكفي لغسل رأسي، فصرت أملأ نصف الكأس بالماء الساخن، ونصفها بالماء البارد، وأدهن جسمي حتى انتهيت.

لم أعط مُصحفًا حسب طلبي، وكانوا يعطونني ليرتين سوريتين لأشتري بهما طعامي لمدة ٢٤ ساعة، وإذا أردت زيادة أدفع من نقودي وهم يشترون لي. ومكثتُ على هذا الحال سبعة عشر يومًا ثمَّ أخذتُ للتحقيق. وأردت أن أستفيد من المعلومات التي عندهم عنِّي دون أن يعلم المحقق أنِّي اطلعتُ على ما عندهم عنِّي لكي يُصدقوني فيما أقول فيما لا يعلمونه عنِّي.

فسألني المحقق العسكري وهو برتبة رائد: ما اسمك؟ وما جنسيتك؟ وما انتماؤك؟ وما مرتبك في التنظيم؟ ومن معك في لجنة الولاية؟ أجبته عليها كلها طبقًا للمعلومات التي عندهم حسبما سمعتها من المسؤول الذي سألني أولا ً.بعد ذلك أخذوا يسألونني عن نشاطي في الجامعة، ومن أعرف من شباب سوريا، وكنت أجيبهم كما أريد،

وهم لا يعرفون أصحيح ما أقولهُ أم خطأ. وبعد أسبوع من إجراء التحقيق أخرجوني، وعُدتُ إلى الأردن.

ولمَّا وصل الحزب خبري أني كنتُ في السِّجن، ثمَّ خرجتُ طلبُوا أن أعود إلى بيروت، فعدتُ واعتقلتُ على الحُدود السوريَّة الأردنية. ورافقني جندي من الحدود إلى دمشق، وهناك دخلتُ المسجدَ لأصلي العصر، وكان معي رسالة وضعتها تحت حصير المسجد، ثمَّ ذهبتُ مع العسكري إلى الدائرة السياسية، واحتججت عليهم باعتقالي. فوعدني المسؤول برفع اسمي عن الحدود.

ثم عُدتُ إلى المسجد، وأخذت الرِّسالة، وتوجَّهتُ إلى بيروت، وأخبرتُ الحزب بكلِّ ما حدث، وبعدها صرت أروحُ وأجيءُ دُونَ اعتراض. وفي إحدى السفرات بالجو، تعطل في مطار عمان نزول عجلات الطائرة، وأجرى الطيار ثلاثَ مُحاولات حتى نزلت العجلات فهنأوا الركاب بالسلامة.

آخر سفرة إلى لبنان

ذهبت إلى لبنان، ولمَّا دخلت البيت الذي كان الشيخ «تقي الدين النبهاني» يقيم فيه وجدتُ رصاص رشاش الخمسائة على بلاطة الغرفة مُقابل السرير الذي ينام عليه، وكان الجانب الشرقي من الغرفة مهدومًا نتيجة إصابته بالقذائف التي كان يُطلقها «حزب الكتائب» النصراني الماروني.

فسألت الشيخ لماذا تقيم هنا؟ ألا تذهب إلى داخل بيروت لتأمن صواريخ هذه القذائف، قال: فمن يخدمني هناك؟ قلت: أبو جمال. قال: ليته يخدم نفسه.

ويبدو أنَّ ابنته كانت تخدمُهُ، وتأتيهِ بينَ الحين والاخر، وتزوِّده بما يريد، ولمَّا جلستُ أنا وإيَّاهُ على مائدة طعام الغداء، رأيته لا يكادُ يستطيعُ أن يتناولَ الطعام، وكان يتساقط على صدره أحيانا.

فأحزنني منظرهُ، وقد كان مريضًا، وكان ضغطُهُ مُرتفعًا وحالُهُ يُرثى لها من الهم والحزن، فحثني على أمر أنا أعلم به منه، فعارضته، ولكنَّهُ كان حازما. فقمت بما طلب منّي، ولكن بطريقتي وكانت النتيجة كما توقعتها حين عارضته. ملاحقتي من قبل المخابرات من جديد.

ذهبتُ يومًا لزيارة رجل، وحصل جدالٌ بيننا إلى حدِّ اتهامي له بالعجز والمراوغة والكذب، فنهض مُسرعًا وقد اربدَّ وجهه وعبس وغضب، ولم يلتفت إليَّ وركب سيارتهُ وخرج وتركني في بيته، فقمت وانصرفتُ راجعًا، وبعد منتصف الليل داهمت المخابرات بيتي فهربت قبلَ أن يُلقوا عليَّ القبض، فاستنتجتُ أن اسمي قد عُمِّمَ على الحدود فبعثتُ للحزب أنّي لا أستطيع السفر إلى لبنان.

التقائي بالشيخ ((عبد القديم زلوم))

كان الشيخ ((عبد القديم زلوم)) يقيم في عمان فالتقيت به وأخبرته بوضع الشيخ ((تقي الدين النبهاني)) الصِّحيِّ وحضضته على السفر إلى لبنان لمساعدته. وحضر وفاة الشيخ ((تقي الدين النبهاني)) رحمهما الله تعالى رحمة واسعة . لقد كان لهما الفضل في تثقيفنا وتوعيتنا، ورعاية الحزب حتى غدا حزبًا سياسيًا عالميًا.

ولمَّا توفي الشيخ ((عبد القديم زلوم)) ـ رحمه الله تعالى ـ نظمت في رثائه قصيدة بعنوان: في الرثاء.

(٢٠٠٣م)

في الرثاء

سـلامُ اللهِ أبـا يوسـف كـُـلَّ يـــومٍ
على روحـك للتغيـير دومـًا تـنزعُ

قضيتَ ليالي العُمر تسعَى مُجاهـدًا
وتكشـفُ للناس الحقائـقَ كي يَعُـوا

ترى عَملَ التغيـير فرضًا وواجبـًا
تـهيب بالنـاس كي يُلبـُّوا ويسرعُـوا

ترى في التغيـير خيـرَ بـرٍّ لأمـَّـةٍ
تداعـى عليـها الكفر حقـدًا وروَّعُوا

وفـي كـُـلِّ قـُطــرٍ يُبتـلى أبنـاؤهـا
وتـهتـك أعراضـهـا والـهتـكُ يُوجــعُ

فـليس لها راعٍ فـيحمـي حياضهـا
وليس لها في ساحة العـزِّ موضعُ

وبالأمـس كانـت للشعـوب منـارةً
ومنها جمـوع الكـفــر هلعى تفزعُ

يـومَ كانَ الخليفــةُ يحمي ذمارها
يسوسهـا بالإسـلام بهــا يصـــارعُ

* * *

سـلامُ اللهِ أبـا يوسـف كـُـلَّ يـــوم ٍ
على روح لرضوان ربـِّي تطـَّـلـعُ

قــد كـُنت لنـا أخـًا عـزيزًا نـَوَدُّهُ
كريمًا وفي وقتِ المُلمَّاتِ صميـدعُ

فارقــت دنيــــا كالمتــاع ذميمــةً
وصرتَ لدار النعيم ونِعْمَ المرتـعُ

وحـــال دون لقائـنا لـك بـــرزخٌ
إلـــى يــوم القيامـــة لا يتصـــدَّعُ
بفقـدك يــا أخي فـقدنـــا عالمـــًا
جريئـــًا يقول الحـقَّ لا يتضَعْضَـعُ
فواجزعـــًا إذا فــرَّق الدَّهـرُ بينـــنا
وكـُلُّ امرئ يومـًا لـه الدَّهرُ فاجعُ
وما المرءُ إلاّ كالشهابِ وضوئـــهِ
يَحُورُ رَمادًا بعـد إذ هـو ساطـعُ
ومـا النـَّاسُ إلاّ كالـدِّيار وأهلـها
بهـا يــومَ حَلـُّوا وغدَوا بَـــلا قِعُ

* * *

أنجزعُ مِمـَّا قـد أصابـَـك يـا أخـــي
وأيُّ كـريـمٍ لــم تـُصبْــهُ القـــوارعُ
وداعـــًا أخـي يَـومَ القيامـّـة نـلـتقي
وقــد كـُنـتَ شـوَّاقـــًا لنـجمٍ سَيطلـُعُ
تطلـَّعـتَ نحـوَ الشـَّامِ تبغي طلوعَـهُ
لعلــــَّهُ بالإســـلام يبـــدو ويلمـــعُ
تلفـَّـــتَّ أخـــرى للعـراق مُيمِّمـــًا
لبغـدادَ فيهـــا العـــزُّ ومنهـا يـَنبُـعُ
تكـونُ خلافـةٌ بهـا النـَّاسُ تـَحتمي
من الكفـر إذ يُـوغـِلُ فـينـا وَيَصفـَعُ
هدى اللهِ أشرقْ وابعث النور ساطعًا
يـشـُقُّ ديـاجيـــر الظـَّلامِ ويـسطـَعُ
أعِـدْ شمســكَ الأولى بشيـرًا لأمـَّـةٍ
صـارت إلـى الإسلامِ حُكمـًا تتطلعُ

عَسى اللهُ يَحمي أمـَّةً طـالَ كربُــها
تهُونُ علـى الأعـداء ذلاً وتخضـعُ
* * *
ويـــرفَعُ نـيرَ الـــذلِّ مـن عن رقابنـا
يعودُ لنـــا العـــزُّ خصبًا يترعْـرَعُ
حملـنا الرسالـــة مـذ أن كـُنـَّا شبابًا
وَشِـبنـَا وللنـَّصر ِ دَومـًا نتطلـَّعُ
إن تـَـرَكَ الرِّسالـــةَ أبنـــاءُ أمـَّـــةٍ
فأنفـُسَهُمْ فـــي شـرعــةِ الحقِّ ضيعُوا
ومـــا تخلـَّت عنهـــا أمـَّة إلاّ هَوَتْ
وعــــادت في جهـــل ٍ لها تـتـمرَّغُ
ذرفـــنا دُمُـــوع المـُقلـتيـن تفجُّعـًا
فهـل مـرة أجــدى علينـــا التَّفجعُ؟
ألا عـُودوا لِحَمـل ِ رسالـَةِ ربـِّــكم
تسُودُوا شُعُوبَ الأرض ولكمْ تخضعُ
ومــن يتجنــَّبْ فـي الحيــاة زحامهـا
فلـيس لـــه في ساحـــة المجد موضـعُ
وأختـِمُ قـولـــي بالصَّلاة على النـَّبي
نبـيِّ الهُـدى فـــي المذنبيــن يشفـَـــعُ
* * *

اشتغالي أجيرًا في محل تجاري

كنـــت قــد تفرغــت للعمــل الحزبـــي، وبعــد مــوت الشـــيخ «تقي الدين النبهاني» طلبت إنهاء تفرغـي، وبعدَ إلحاحٍ منـِّي وُوفِقَ علـى طلبـي، فعملـت أجيـرًا براتـب شـهري قـدره مائـة دينـار أردنـي، وبعـد ثمانيـة أشـهر استقلت مـن عملـي، وعُـرض علـيَّ عملٌ آخـر،

فاشتغلت في محل لقطع السيارات وتغيير زيتها، وذلك لمدة عشرة أشهر.

ثمَّ اعتقلتُ وحُقِّق معي، وكـُتبتْ نتيجة التحقيق، ولمَّا رُفعت النتيجة لرئيس المخابرات لم يقبل النتيجة، وأغلظ القول للمحققين، وكتب حوالي عشرين سؤالاً ليحققوا معي من جديد بناء على هذه الأسئلة.

نـُبِّهتُ الساعة الواحدة والنصف ليلاً وأخذتُ إلى مكتب التحقيق، وإذا بخمسة محققين، منهم «عامر صالح جلـُّوقة»، و«عماد مدادحة»....الخ

وقالوا لي: إنَّ نتيجة التحقيق معك لم يقبلها رئيس المخابرات، والآن نريدُ أن تجيبنا على هذه الاسئلة، فخشيت أن يكون لدى رئيس المخابرات بعض الحقائق التي أخفيها، وكون الأسئلة كثيرة خفتُ أن تكون نتيجة أجوبتي متناقضة.

فصمَّمتُ في نفس اليوم على عدم الإجابة على أي منها. فقلت لـ «عامر جلوقة» رئيس التحقيق اقرأ عليَّ واحدًا منها. فقرأ فشعرت بخطورة الأسئلة ، فقلت: اقرأها عليَّ جميعًا، وأعدك وعد شرف أنِّي سأجيبك عليها جميعًا. فأخذ يقرأ حتى أنهاها. فقال: أجب كما وعدت، فقلت: الجواب على كل ما ورد فيها لا أعرف شيئًا عنها. وتوقعت حينها أن تنزل علي الضربات واللكمات والعصي منهم جميعًا، إلاَّ أن «عامر جلوقة» قال لي: إنَّهُ خجلان ماذا يقول لي.

ثمَّ قال: أراك تعبـًا، وأمر بإعادتي إلى زنزانتي، وبقيت مدة ستة أشهر، ثمَّ حولوني إلى سجن المحطة، فوجدت أكثر من ثلاثين شابـًا من شباب «حزب التحرير» في السجن، وكانوا يقضون مدة سجنهم البالغة ثلاث سنوات حكومية.

وعندما وصلنا سجن المحطة اختاروني أميرًا عليهم، وأقسم أحدهم أنه إذا لم أقبل الإمارة، فلن يكون أحد عليهم أميرًا، فقبلتُ على غير رغبة منِّي، وجدتهم موزعين في سبع غرف مع بقية المساجين.

دعاني مدير السجن «غالب الضمور» يومًا إلى مكتبه، وجمع ضباط السِّجن ثمَّ سألني على مسمع منهم فقال: هل الملك حسين عميل إنجليزي أو عميل أمريكي؟ قلت: يفهم من سؤالك إقرارُك بعمالة الملك، إمَّا أنـَّهُ عميلٌ إنجليزي أو أمركي، فهذا هو موضع الاستفسار.

وما دامَ الأمر كذلك فهو عميل إنجليزي. فقال نائبُ المدير: كيفَ يكونُ عميلاً إنجليزيًا وسلاحُنا ومُساعداتنا من أمريكا؟

قلت: هل حصل أن ذهب رئيس دولة لدولة أخرى فكلفته الدولة الأخرى أن يخرِّجَ لها من مركز تدريبها دورة ضباط؟ قال: لا. قلت: الملك حسين كلفته الملكة إليزبث أن يخرِّج لهم دورة ضباط أمن من أحد مراكز تدريبهم فسكت. فقال ضابط آخر: ما الفرق بينكم وبين الإخوان المسلمين؟ قلت له: نحن عندكم في السجن، وهم عندكم في مجلس النواب. فسكت الآخر.

فأمر مديرُ السِّجن بإعادتي إلى مكاني في السجن. وبقيتُ أبذل الجهد حتى تمكنت من جمع الشباب في غرفتين، وبدأ النشاط الحزبي في دراسة الحلقات في كتب الحزب، وفي زيارة بقية المساجين والكسب منهم وتدريسهم، وتحزيب مَن ينضج منهم في الثقافة الحزبية.

أرادت الدولة أن تـُخرجَ عددًا من المساجين لتحسين سمعتها، فكان لي صديق له علاقه بأحد رجال المخابرات، فاختارني من بين المساجين المرشحين للخروج، فخرجت بعد مضي سنتي توقيف.

اقترحت على الحزب في تقريري عن سلوك الشباب في السجن بعض الأمور فوافق عليها جميعها. وبعد سنتين فرغت للعمل الحزبي مرة ثانية.

وكانت الثورة الإيرانية ثم مُهاجمة العراق لها، وأخيرًا احتلال العراق للكويت، ثم مُهاجمة قوات التحالف الأمريكي المكون من مجموع ثلاثين دولة ـ بما فيها سوريا ومصر والسعودية ـ للعراق وإخراجه من الكويت، وكنتُ ألقي الدُّروس والخطب في المناسبات حسب الأوضاع المتغيرة.

وأخيرًا دخلتُ منطقة البادية التي تعتبرها الدولة وراء الخط الأحمر «بمعنى أنَّ العمل في أي نشاط سياسي محظورفيها» ونشرتُ فيها فكر الحزب، وخطبتُ خطبةً في زيزيا، وزَّعت الدولة على إثرها تعميمًا على الجيش أن إذا سمعوا أثناء خطبة الجمعة ما يُسيءُ إلى الدولة فعليهم أن يخرجوا من المسجد.

وكنت حينذاك قد اشتريت قطعة أرض مساحتها ٥٢ دونمًا، وعملتها مزرعة وكنت آوي إليها كلما اشتدت ملاحقاتُ المُخابرات لي.

اعتقالي عام ١٩٨٧م

اتصل بي شخص، وطلب مني أن ألتقي به في منطقة بيادر وادي السير، وذهبتُ إليه وبعد لقائي به، وانصرافي عنه، لحقتني سيارة المخابرات وألقوا القبض عليَّ، وفي دائرة المخابرات أخذ يحقق معي رجل يقال له «علي برجاق» ووجَّه لي تهمة بأني المَسؤول عن ضواحي عمان.

وبناءً على هذه التهمة يُريد أن يعرف تنظيم الحزب في تلك المنطقة لأنها في نظر الدولة داخل الخط الأحمر، وكون شباب

التنظيم فيها من البدو فهذا هو محل الخطورة، فكنتُ كلما أنفي التهمة يعيد «علي برجاق» التأكيد عليها.

والحقيقة أني لم أكن مسؤولا عنها، بل الذي كان مسؤولاً عنها شاب اسمه «عادل علي الشروف» وهو زوج ابنتي، وظلَّ المُحقق يُركِّز على هذه المنطقة، فكان يقول لي: أنت تذهب إلى زيارة زيزيا لتتصل بالناس لتنظمهم في الحزب.

فقلت له ذات مرة: يبدو أنَّك لا تفكِّر فغضب، وقال: كيف لا أفكر؟ قلت: هل تفكِّر أن شخصًا في سنِّ الستين يذهب ليلتقي مع ولد في سن الخامسة عشرة؟

فماذا يقالُ عن العلاقة بينه وبين ذاك الولد، والبدو يجهلون فكرة الاحزاب؟ فقال: لا أنت تذهب لتنظيم من هو في سنك، فقلت له: ها أنتَ لا تفكِّر بالفعل، فصرخ وقال: كيف لا أفكر؟ قلت له: إنَّ محمدًا ﷺ المبعوث من رب العالمين كان أكبر من استجاب لدعوته أبو بكر الصديق، وكان عمره آنذاك ٣٨ سنة، فكيف تريدني أن أذهب إلى وسط البدو وأدعو رجلاً في الستين لحزب التحرير، وهو لا يعرف إلاَّ رعاية الغنم؟ أجننتُ أنا حتى أقوم بهذه المهمة؟ فسكت. وصرتُ كلما فتح بابًا في التحقيق أغلقه عليه، حتى مضى خمسة أشهر وهو على هذا المنوال.

وفي إحدى الساعات وأنا راجع من الحمام إلى الزنزانة، رأيت «عادل الشروف» أمام «علي برجاق» يحقق معه، وبعد يوم أو يومين سألني «علي برجاق» عن عادل أين هو؟ قلت له: هو عندك، قال: لا، قلت: بل عندك، ولا حاجة للسؤال عنه، فقال: كيف عرفت؟ قلت: باللهجة العامية «هو إحنا بنقري أولاد هنا في السجن» نحن برغم تستركم وإغلاق الأبواب، حتى لا يرى الواحد منا الآخر، إلاَّ أننا نعرف كل من في الزنازن، ونعرف انتماءاتهم وأسماءهم

وقضاياهم، فكاد أن يصرع، وقال: عن طريق الدَّق على الجدران؟ قلت: احسبها كما تريد. فلما طالت المدة وهو لم يُغيِّر، أردتُ أن أتخلَّص منه بإحدى طريقتين، إمَّا بضربه لي على المعلومات الكاذبة التي سأعطيها له، أو بكفِّه عن التحقيق معي.

وكنت قد اكتسبت خبرة بكثرة تحقيقهم معي، وهو انهم يتنافسون في من يكون أقدر أثناء التحقيق على أخذ معلومات ذات فائدة من المتهم، ويَحسُدُ بعضهم بعضًا، وإنَّ حصول الواحد منهم على أخذ المعلومات يساعد في ترفيع رتبته.

ولما جاء ليحقق معي قلت له: افتح دفترك وامسك قلمك، وخذ مني «هذه الجوهرة» التي لا زلت أخفيها عنك. فأخذ استعدادهُ، وقال: هات. قلت: مَرَّ عليَّ أحد شباب الحزب، وقال: ألا تريد أن أبعث لك ب١٥ شخصًا يُريدون الدراسة في الحزب؟ وبالفعل بعثهم والتقيت بهم في مسجد القدس جنوب الوحدات. وقسمتهم قسمين، وعينت لكل قسم موعده، وصرت أدرسهم.

وإليك أسماءهم، فكتب أحد عشر اسمًا، فأخذ يمدحُني، ويشيد بي قائلاً: الآن أنت أبو العز، وكأنَّه أخذ مني جوهرة بالفعل، ولمَّا عاد للتحقيق، قال لي: هات أكمل ما عندك. فقلت: لم يبق شيء، قال: لم تُعطنا عُشر ما عندك. قلت: أعطيتك ١١ اسمًا، وتريدُ الآن تسعة أعشار أي ٩ ×١١ =٩٩ اسمًا، وهؤلاء يحتاجون إلى ورقة وقلم لأجل أن أخترعهم لك، لأنَّ الذهن لا يستطيع أن يَستوعبهم مثلما استوعب الأحد عشر.

قال: وهل الأحد عشر مخترعون اختراعًا وغير حقيقيين؟ قلت له: إذا كنتُ صادقًا فيما كنت أنفيه، فلا حاجة لاختراعٍ جديد، وإذا كنتُ كاذبًا فيما كنتُ أنفيه، وصادقًا في المعلومات التي أعطيتك إياها فهات قلما وورقة.

قال: أعد الأسماء التي ذكرتها لي. وكنتُ أحفظها فأعدتها، فقال: أسألك بالله أحقيقية هي أم غير حقيقية؟ فقلت: واللهِ ما فيهم أحد من حزب التحرير. فانفعل وألقى القلم، ومزق الورقة، وخرج من الغرفة وهو يقول: نحترمُهُم ويكذبون علينا.

ولم يأمر بإعادتي إلى الزنزانة، فجاءَ مُدير السِّجن، وأخذني إلى الزنزانة، فقلت في نفسي: الآن سيخبرهم أنَّ المعلومات كانت كاذبة، فيتشفى فيه من حَسَدَهُ في المرة الأولى على أخذه معلومات من شخص لم تستطع المخابرات أخذ معلومات منه منذ ثلاثين سنة حتى تلك اللحظة، وسينفجرون من الضحَّك والاستهزاء به، وكلُّ ظنـِّي أنَّ هذا حصل؛ لأنـَّهُ مُنع من التحقيق معي فيما بعد، واعتبروه فاشلا ً.

وفي موعد التحقيق جاءني المسؤول عنه وهو «عماد مدادحة» فلمَّا أحضرتُ إلى مكتبه قال: لماذا يا سباتين تتلاعب بالشباب، تشرِّق بهم وتغرِّب، وتكذب عليهم.

لقد أصرُّوا على أن يأخذوك إلى الساحة «يعني مكان ضرب وتعذيب السجناء» فرفضنا، فقلت له: هل تصدق التهمة التي يوجهها إليَّ وهي المسؤولية عن منطقة ضواحي عمان. فقال: لا. ولكنك تقوم بالزيارات لبعض الناس. فقلت له: ولماذا لم تنصحه أن يُغيِّرعن التهمة؟ ولماذا تتركة خمسة أشهر يقضيها من وقته فيما لا جدوى منه؟ وكأنـَّه شعر أنـِّي أتهمه في تركه «علي برجاق» يقضي وقته سدى. فقال لي: كم من الوقت لك عندنا؟ قلت: خمسة أشهر. قال: امض شهرًا آخر ثمَّ أمر بإعادتي إلى الزنزانة، ولم يحقـِّق معي في شيء، ففهمت من ذلك أنـَّهُ جاء ليكافئني على ضحكي وتلاعبي بـ «علي برجاق» ببشارتين: الأولى عدم الموافقة على ضربي، والثانية على أنـَّه سَيُفرجُ عنـِّي بعد شهر، فعدت متفائلا.

وفي تلك الفترة كان مدير سجن المحطة ووزير الداخلية وأحد كبار المسؤولين في المخابرات قد أمرُوا مساجين سجن المحطة أن يُديروا وُجُوهَهُم تجاه القصر الملكي، ويُصلوا للملك حُسين.

فأصدر الحزب فيهم نشرة شديدة اللهجة، فامتعض القصر والحكومة، وبدأت حملة اعتقالات الشباب، وأخذت المخابرات تضربهم ضربًا مُبرحًا وتعذبهم تعذيبًا شديدًا، لم يَسبق لها أن استعملت ذلك مع شباب الحزب.

وبينما أنا جالسُ وإذا بالمخابرات تخرجني من زنزانتي وتأخذني إلى غرفة التحقيق، وإذا بمجموعةٍ من المُحققين موجودين هناك، فأجلسوني على كرسي، وإذا بعطا أبو الرشتة «أبو ياسين» يدخلُ عليَّ المكتب، ويُسلـِّمُ علي معانقًا، فقال المحققون: ما هذا؟ فقال: لقد مضى على أبو العز فترة عندكم، فهل السَّلام عليه ممنوع؟ فقالوا:لا، ثمَّ سألـُوهُ على مسمع منـِّي فقالوا له: لمَّا سألك أبو العز من المسؤول فماذا قلت؟ قال: قلت: أبو عامر.

وكان في حينها مضروبًا، والدم على وجهه وعلى قدميه، ثمَّ أخرجُوه، وسألوني أصحيح ما قال؟ قلت: نعم، قالوا: ومن أبو عامر؟ قلت: لقد سألتموني في بداية اعتقالي، وقلت لكم: إنَّ أبا ياسين حينما سألته عن المسؤول قال لي: «أبو فلان» وكنت ناسيًا اسم عامر فها هو ذكـَّرني به.

قالوا: ومن أبو عامر؟ قلت: لو كنت أعرفه لما كان لذكر عامر حاجة، فأنا لا أعرفه، فأروني عدة صور فقلت لهم: لا أعرف من الصور إلاّ واحدة لشاب أنتم تعرفونه، وسُجنَ عندكم، واسمه «أحمد حسين» وهو الآن في بيروت.

فأعادوني إلى زنزانتي. وعند المساء أحضروا لي وللاثنين اللذين معي طعام العشاء، وعندما بدأنا نأكل بدأنا نسمع ضرب

العصي في ساحة التعذيب، وكانت قريبة منا فأخذ صاحباي يحصيان عدد الضربات فحصوا ستمائة ضربة، ثم سمعنا صوتا عاليـًا فوقف الضرب. ثم خرج المضروب وأدخلوه في زنزانة رقم ١٢ وهو في حالة خطرة.

وبعد يومين نقلوا الشابين اللذين كانا عندي في الزنزانة وبقيت وحدي، وبعد الظهر أدخلوا عليَّ رجلاً طويلاً مورَّم القدمين، يبدو على وجهه الحزن، فسلـَّم عليَّ واستقبلته باحترام، وبعد الجلوس سألته: من أين جئت؟ قال: من زنزانة رقم ١٦؟ قلت: ومن فيها؟ قال شاب من حزب التحرير وذكر اسمه ((وأنا الآن ناسيه)) فعرفتُ أنـَّه من زيزيا، فقلت: أمعه أحد؟ قال: معه ١٤ شابـًا من بني صخر حولوهم إلى قيادة البادية، وجاءوا به إلى المخابرات.

قلت: وما سبب مجيئهم؟ قال: وزع حزب التحرير نشرة يتهم فيها وزير الداخلية، وكبارالمسؤولين في المخابرات، وطاقم السجن بإجبار المساجين على الصلاة للملك حسين.

فقلت: منذ متى وأنت في الزنزانة رقم ١٦؟ قال: بتُّ فيها ليلة واحدة . قلت: وأين كنت قبل ذلك؟ قال: في زنزانة رقم ١٢ قلت: أأنت الذي ضربوك قبل يومين؟ قال: نعم، قلت له: أتدري كم ضربوك؟ قال: لا أدري. قلت له: ستمائة ضربة، ثمَّ سمعنا صرخة، فتوقف الضرب. فماذا كانت الصرخة؟ قال: لمَّا أوقفوا الضرب قلتُ لهم: أكملوا أيها الجواسيس.

فقلت له: أشهدُ أنـَّك بطل. ولماذا يضربونك، فأخبرني أنـَّهُ من مُخيم بلاطة في فلسطين، قتل حارسًا إسرائيليًا، وفرَّ إلى مصر ولكن الحكومة المصرية سفرته إلى الأردن، والمخابرات تهدده بتسليمه إلى إسرائيل، وطلبوا منه أن يتعاون معهم.

قلـت: ومـاذا قلـت لهـم؟ قـال: قلـت: أنـا عمـري ٢٩ عامًـا، والمؤمن يعيش على الأغلب ستين عامًا، ولـي أم وأخوات، ولا أريد أن أمضـي بقيـة عمري قوادًا فقالوا: أنحن قوادون؟ قلت وماذا أنتم إلا ّ َ هكذا ففعلوا ما بـي ما سمعت. قلت لـه: اطمئن، ما عـادُوا يضربونك، فقد نجحت في الامتحان، فالضربة هذه كانت الاخيرة.

ولمَّا حانَ وقت خروجي جاءني «علي برجاق» وقال: نريدُ أن نكتب الإفـادة. فكتبها وعندما وقعت عليها قال: إذا جاء دوركم - أي إذا أخذتم الحكم- فماذا تعملون بنا؟ قلت: كما تدين تدان. قال: هل ضربك أحد؟ هل سبَّـك أحد؟ قلت لـه: لا يقال حينئذٍ أنك احترمت يوسف السباتين، ولكنَّ دم أبو الرشتة الذي كان ينزفُ على وجهه وقدمية لن يذهب هدرًا، وَوالله ليمزقنَّ جلدك.

فلم يستطع سماع هذا القول فخرجَ مُسرعـًا، وكأنما في يدي سوط وأريد أن أضربه. وبقيتُ وحدي فجاءني جنديٌّ وقال لـي: هات حوائجك وتعال معي، وأدخلني على «عماد مدادحـة» فقال عماد: في عام ٨٢ احترمناك، وها نحن في عام ٨٧ احترمناك، ولكن في المرة القادمـة. فقلت: لا تكمل فأنا أعرف ما تريدُ قوله. والجواب عندي حاضر، ولكن ما دمت احترمتني أولاً وثانيًا فاجعل خاتمتها احترامًا أحسن لـي ولك. فقال للجندي أوصله إلى الطريق، وقال لـي مع السلامة فأخذني الجندي وأخرجني خارج مبنى المخابرات.

دعوة عرس

دعاني أحد الشباب على الغداء في مخيم الطالبية - زيزيا- بمناسبة عُرس أخيه، وحضر اثنان من المخابرات للتعرف عليَّ من على بُعد، فبمجرد ملاحظتي لهم عرفت أنهم مخابرات وبعد الغداء رجعت إلى عمان.

زيارة القسطل

بناء على دعوة من شبلي خالد السطام

ذهبت في سيارة لولدي ((عزالدين)) ولم نجد شبلي، فجلسنا مع من في الديوان ننتظر مجيء شبلي. ودار حديث سياسي بيني وبين ((سامي الفايز))، واذ بمسؤول من الأمن في زيزيا قد أقبل في سيارة ((لاندروفر)) فقال ((سامي الفايز)): غيمت. بمعنى كُفُّوا عن الحديث السياسي.

فدخل الرَّجل وقال: ديمقراطية ((بمعنى واصلوا حديثكم)) فقال ((سامي الفايز)) نحن نتحدث في الرزق، فقلت: بل نتحدث في السياسة والخلافة. فلمَّا طال انتظاري، ولم يأت شبلي قمت، وعندما ركبت في السيارة ناداني ((سامي الفايز)) وقال: يا أبا العز، لم نتعرف فقلت له: سأزورك وأعرفك على نفسي، وانصرفتُ وعلمت فيما بعد بأن رجل الأمن جاء لاعتقالي حسب قوله لصاحب لي.

محاولة اعتقالي في جبل النظيف[٩]

كنت في تلك الأيام أجري اتصالات بوجوه القبائل مثل ((فيصل الجازي)) و ((نايف الخريشة)) و((حامد صقر)) و((شبلي الفايز)) و((سالم الجريبيع)) وغيرهم.

وأتصل بالخطباء في منطقة البادية، وكانت الأوضاع السياسية مضطربة بعد وقف القتال بين العراق وإيران، وبعد إخراج العراق من الكويت، وبعد انفضاض مؤتمر مدريد نتيجة محادثات

---

[٩] قضية مؤتة تمَّ فيها تلفيق تهمة من الدَّولة ضدَّ حزب التحرير، يجري فيها اتهامة بقلب نظام الحكم، وذلك بالاتفاق مع طلاب جامعة مؤتة الجناح العسكري. ولكنَّ التهمة ظهر بطلانُها، ولم تستطع المخابرات حبك خيوط عقدتها.

أوسلو، وبعد فك الارتباط بين الأردن والضفة الغربية، صار الملك حسين يسعى للصلح مع إسرائيل.

فكان يخشى أن يُنزل ((حزب التحرير)) نشرة يفضحه فيها، ويثير الشعب عليه، خاصة وأنَّ الدول العربية وخاصَّة سوريا يعارضون ذلك بشدة، فأراد أن يُدبِّر خطة يُشغل فيها ((حزب التحرير)) والقبائل معه، فذهب إلى دائرة المخابرات العامة واتفق مع ((مصطفى القيسي)) على اعتقال الطلبة العسكريين في جامعة مؤتة، واعتقال العاملين داخل الخط الأحمر - منطقة البادية- من ((حزب التحرير)) وتوجيه التهمة لهم بأنهم يريدون اغتيال الملك حسين أثناء الاحتفال في جامعة مؤتة.

فاعتقلوا ستة طلاب عسكريين واعتقلوا ((اسماعيل الوحواح)) القادم من اليمن، وهو تحريري واعتقلوا ((هلال الشموط)) وهو راجع من الحج وهو تحريري أيضًا، وبقيت أنا و((وليد شاهين)).

فجاء اثنان من المخابرات لاعتقالي في جبل النظيف، وبينما كنت متوجهًا لصلاة الجمعة في مسجد طارق بن زياد، وإذا بشخص يناديني: يا أبا العز فوقفت فقال: سؤال ثمَّ صافحني، فقلت له: اسأل. قال: ليس هنا السؤال. قلت فأين إذا ً؟ قال: هناك في السيارة، فأدركت أنَّهُ مخابرات، فرفضت فأمسك بي وأراد أن يسحبني إلى السيارة، فاستعصيت عليه، فنزل ضابط من السيارة وأمسك بي وسحبني فوضعت رجلي في مقدمة سيارة واقفةٍ، وجذبتهما فمرَّ عليَّ شخصٌ فسأل: ما الأمر؟ فقال: مخابرات، فانصرف الرجل.

قلت لا أذهب معكما حتى أغيِّر لباسي هذا، فوافقا مرغمين، فسار أحدهما معي، وأمَّا الآخر فطلب النجدة لمساعدتهما ثمَّ لحق بنا، فلما وصلنا البيت لم نجد به أحد ًا فدخلت إحدى غرف البيت، وغيرت

ملابسي، وطللت عليهما من شباك قريب لهما، وطمأنتهما بأنـّي آخذ في تغيير ملابسي.

وكنا في الطابق الثاني، وهناك شباك يُطلُّ على طريق ضيـّق خلف البيت وقريب منه عمود كهرباء، فأمسكت بإحدى ظرفتي الشباك حتى اقتربت من العمود، وألقيتُ بنفسي تجاهَهُ، فأمسكت به وانحدرت بوساطته إلى الأرض.

ثم لجأت إلى بيتٍ في الحي، وأمَّا رجلا المُخابرات فظلا ينتظراني خلف الباب، حتى جاءت النجدة، وهي سبع سيارات كما قيل، وعلى رأسهم «علي برجاق».

وفتح الباب وأخذ يفتش البيت غرفة غرفة، فلم يجدني، ثم فتش بيوت إخواني، وأخذ ولداً لجيراننا، وسأله عنـّي فلم يفده، فلطمَهُ على وجهه، فسبَّ الولد دينهُ وقال: أنا لم أهربه، ولكنَّ رجالك هؤلاء هُمُ الذين مَسكوه من المسجد، وضحك عليهم وأتى بهم إلى البيت، وأغلقه وتركهم خلفه وهرب.

فترك الولد وأخذ يضربُ الرَّجلين، ثم أخذ أخي ليريَهُ بيت ابنتي في قرية «أم البساتين» وهناك سأل ابن ابنتي عن أبيه فصرخ الولد في وجهه وقال: «مش هان» أي ليس موجودا هنا. فعاد طريقه من حيث أتى فوجد «عادل الشروف» زوج ابنتي فاعتقله، وهكذا فشل في البحث عنـّي.

أمَّا أنا فخرجتُ من البيت الذي لجأتُ إليه، وعدت في الليل إلى بيتي، وبقيت فيه حتى خفَّ التفتيش عني، فخرجت إلى إحدى ضواحي العاصمة، ولبثت أسبوعا وأثناء الأسبوع سمعتُ خطابـًا للملك حسين يتـّهم أناسـًا برسم خطة لاغتياله.

ولم أعرف أنَّ أحدًا معتقل من شباب الحزب، وإنـّما سمعت أنَّ بعض الطلاب في جامعة مؤتة معتقلون. ولكن الأخبار في الإذاعة

ذكرت أنَّ الدولة قد ألقت القبض على المتهمين ما عدا اثنين فارِّين من وجه العدالة ولم تذكر الإذاعة الأسماء.

وفي اليوم التالي كنتُ جالسًا مع جماعة، وكنت أقرأ في جريدة شيحان، وقرأت فيها أسماء الثمانية المعتقلين، فعرفت اسم «هلال الشموط» أمَّا « إسماعيل الوحواح» فما كنت أعرفه.

فلمَّا قرأتُ اسمَي الفارِّين من وجه العدالة، وإذا هما أنا و« وليد شاهين» فاستغربت الخبر وقلت لجلسائي: واللهِ إذا كان المتهمون مثلي فما يوجد مؤامرة، والأخبار كلها كاذبة ومزيفة. ويبدو أنَّ الملك يخطط لأمرٍ خطيرٍ.

ثمَّ عُدتُ لبيتي من طريق خفي، وكنت أقضي وقتي من العصر إلى منتصف الليل في ديوان ـ جامع الزعاترة- ثم أعود إلى بيتي، وهكذا طوال المُلاحقة والمطاردة، ولم تعُدِ المخابرات لتفتيش بيتي لاستبعادها عودتي إليه.

محاولة اعتقالي في المزرعة

كنت في المزرعة ومعي عامل يشتغل فيها. وكنت أرى رجلاً يجلسُ على رأس رابية تطلُّ على المزرعة، وعلى غير العادة، فشككتُ في أمره، وبعد ثلاثة أيام رأيتُ الرَّجل ينحدر نحو المزرعة وهو يتكلم بصوت عالٍ، غير أني لا أرى من يتكلم معهم، فمشيت تجاه آخر المزرعة.

فالتقيت بالرَّجل، وإذا بيده كماشة، فسألته: ماذا تريد؟ قال: أريد طريقًا من المزرعة لكي يَمُرَّ منها تركتر. فالتفت نحو باب المزرعة، وإذا بسيارة ينزل منها مسلحون فأدركت أنـَّهم مخابرات، وأنَّ الرَّجُل متواطئ معهم، فمشيت نحو العامل، وأظهرتُ أنـِّي مُتـَّجهٌ نحو باب المزرعة.

ورأيت أنـَّهُ من الصعب الفرار منهم، لأنـي إن فررت على مرأى منهم سيطلقون علـيَّ النـار، فأخذت أرمـي الحجـارة التـي فـي المزرعـة وأقذفها خـارج الشبك وأتراجـع نحـو آخـر المزرعـة حيـث يوجدُ الرَّجل المتواطئ معهم. فمشيتُ خلفهُ فعمد إلـى شبك المزرعة وقصَّه بالكماشة، ودخل المزرعة، وأمَّا أنا فبقيت أمشي رويدًا رويدًا، لأشعرهم أني لا أحسُّ بهم.

وكان أمامي وادٍ سحيق وذو انحدار شديد، فلما تواريتُ عن أعينهم أخذت أرجع إلـى الـوراء مـع سفح الـوادي بانحـدار بطـيء، فرأيـت تركتـرا آتيـا مـع طريـق خلفـي، فخشـيت مـن فيـه أن يـدلوا المخابرات عليَّ، فتواريتُ عنهُم حتى مَرُّوا.

ثم سلكت طريقهم حتـى ابتعدت عن الـوادي. فوَصَلُ التركتـر وكان عليه ثلاثة مُسلحين انضموا إلـى من كـانوا فـي السيارة وانحدر الجميع خلفي، يظنـون أنـي انحـدرت في الـوادي، وظلـوا يفتشـون من الساعة التاسعة صباحا وحتى الثالثة مساء، فلم يَعثرُوا عليَّ.

فعادوا بسياراتهم والتركتر منهكي القوى لا يلوون علـى شـيء ثم إنـِّي عدتُ إلى المزرعة بمجرد أن خرجتْ سياراتهم والتركتـر من المزرعة وأمضيت تلك الليلة واليوم التـالي، ثمَّ رجعتُ إلـى بيتـي فـي عمان. وقد نظمت في هذه المحاولـة الفاشلـة لاعتقـالي قصيدة بعنـوان: ((تمني العيش بأمان)).

(٢٠٠٣م)

تمني العيش بأمان

ألا ليـتَ شِعـري هَــلْ أبيتــنَّ ليلــةً
بـأرض أمــنٍ آمَــنُ مِمَّن وَرَائيــَـا
مَضــتْ سنــونٌ وأيــَّـــامٌ وأشهــــرٌ
وأنــا غيــرُ مُطمئــنٍ فـي مَناميــَـا

تـُلا حقني الذئاب فـي كـل موضـــع
لتأكــل لحمـي وتبــري عظاميـــــا
شعـاب المشقـَّر وواديهــا شاهـــدٌ
على مختارهــا والأمــن إذ تلاقيــــا
وجاء البعض منهم فـي سيارة لهـــم
بنادقـُهُـم مُصوَّبـــةٌ تجــاهيـــــــا
وآخــرون طوَّقـوني فـي تـركـتـــرٍ
مـن الأمـــام وباقـيهـم مــن ورائيـــا
ففكرتُ فلـم أجـد لي منهم مهربـًا
تذكــَّرت حينـهـــا أيـَّــام شبـابـيـــا
فحاولــتُ لعلـِّي أجــد لـي حيلـــــةً
مشيتُ ببطءٍ كـي لا يـُسرعـُوا خلفيـا
فتحـدَّرتُ فـي وادٍ سحيــقٍ حينهـــا
وأشعرتهم أنـِّي إلـى القعــر جاريـــا
وما إن غـبت بعيـدًا عـن نظراتهـــم
رجعتُ القهقرى مع السفح مستخفيـا
هم غربوا إلى الوادي يبغون قبضتي
وأنا وجهت وجهي إلى الشرق ماشيا
ولمـَّـا بعــدتُ وقـــد أمنــت شـرَّهم
راقبتهــم فـــي وادٍ كثيـــر المخابيـــا
ثلاث ساعات صبحًا وأخرى مثـلهـا
مسـاءً يتبعـــون فـــي الـوادي آثـاريا
عادوا بخفـَّي حـُنينٍ وقـد تحطـَّمـُوا
ولـم يجلبـُـوا معهــم إلاَّ المخازيـــا

حادث انقلاب تركتر ((الجرار))

بينما كنت أحرث في المزرعة بوساطة تركتر صغير، دخلت في منطقة وعرة وذات انحدار. فانقلب بي وصرت تحته، ودخلتْ قطعة حديد طولها ٣ سم وعرضها ٢ سم في رجلي اليسرى.

ولكن التركتر لم يثبت فوقي، بل انقلب مرَّة أخرى، فخرجت الحديدة من رجلي، وانبعث الدَّمُ منها فذهبت، مُسرعا إلى مزرعة مجاورة، واستعنتُ على ايقاف النزيف بعامل مصري. ثمَّ رجعتُ إلى عمان، وذهبت إلى مستشفى البشير فأعطوني إبرة ضد التسمم.

إصدار محكمة أمن الدولة الحكم

في قضية مؤتة عام ١٩٩٤م

بعدَ جلسات عدة أصدرت محكمة أمن الدولة الحكم بالإعدام حتى الموت، ثمَّ خفـَّفت عن بعض المحكومين إلى السجن المؤبد، وعن عدد آخر الى خمس عشرة سنة.

وأمَّا أنا و((وليد شاهين)) و((إسماعيل الوحواح)) فبقي حكمنا الإعدام. فهجمَ أهل المحكومين على المحكمة وكسروا زجاجها، وخرج المُحامون يقولون: بأنَّ المحكمة لجأت إلى الإقليمية البغيضة حيث أبقت حكم الإعدام على الفلسطينيين.

بعدَ صُدُور الحُكم أبى عليَّ أولادي إلاَّ أن أخرج من البيت، فخرجتُ إلى ضاحية، وأقمتُ ببيتٍ جميلٍ فيه كلُّ ما أحتاجُهُ، فلبثتُ فيه ثمانية أيام، ثمَّ عدتُ إلى بيتي في جبل النظيف في عمان.

دور محكمة التمييز

بدأ دَورُ الاتصال بقضاة التمييز من قبل أهالي المحكومين، صارت الدولة تضغط عليهم ليوافقوا على أحكام محكمة أمن الدولة، ولكن لعدم قناعة القضاة بجريمة المتهمين قدَّم رئيس المحكمة استقالته.

وتزايد الضغط من الدولة، وكثرت الاتصالات من الناس بالقضاة، فصاروا بينَ أمرين: إمَّا الموافقة على الحكم، وإمَّا الاستقالة، فاستقال رئيس المحكمة الثاني والثالث.

واستدعى رئيس الوزراء الشاهد الوحيد في القضية، وسأله عن شهادته فقال: شهدت وأرجُل المخابرات على عُنقي أي جبرًا عني، فأمره بالانصراف.

ويبدو ان الملك حسينًا أحسَّ أنَّ لجنة حقوق الانسان والمحامين الذين جاءوا من مصر ليرافعوا عن المحكومين، واتهام القضاء الأردني بالظلم جعل الملك يخشى على سمعة القضاء، خاصة وأنَّ ثلاثة من رؤساء محكمة التمييز قدَّموا استقالاتهم. أعطى الضوء الأخضر لرئيس الوزراء أن يترك القضاة ليبتُّوا في القضية حسب قناعاتهم.

فاستدعى رئيسُ الوزراء «زيدُ بنُ شاكر» رئيس محكمة التمييز وقال له: احكم في القضية حسب قناعتك، وكان صلح وادي عربة قد حصل ومرَّ بسلام، فدعا القاضي المُحامين، وقال لهم: غدًا الجلسة. وفي اليوم التالي حضر المحكومون إلى قاعة المحكمة وأصدر الرئيسُ الحُكم بعدم وجود قضية، وبرَّأ الجميع من التهمة الملصقة بهم.

وبدأت الاحتفالات بخروج الشباب من السجن بريئين من تهم المخابرات الكاذبة، وجرى التحدي أثناء الاحتفالات لأمن الدولة ومخابراتها، ومحكمة أمنها واختفت المخابرات، ولم يَطُل الوقت حتى أحيل «مصطفى القيسي» مدير المخابرات العامة على التقاعد. وفي رأيي لأنَّهُ لم يُحسِن تخريج الفلم الذي رسَمَهُ الملك حسين.

اعتقالي من أجل القضية نفسها

بينما كنت جالسًا في محل تجاري في وسط عمان، وإذا بالمخابرات تدخل المحل تريد تفتيشه، فوجدوني جالسًا فاعتقلوني، ولم يُحقِّقوا معي في القضية، وإنَّما أحالوني لـ «محمود عبيدات» مُدَّعي عام محكمة أمن الدولة، وهذا كان يعلم أني لن أحكم على نفس القضية، لأن محكمة التمييز نفت القضية نفيًا باتًّا.

وبدل أن يَسألني عن علاقتي بالقضية، سألني أمسلم الملك حسين أم كافر؟ فأدركت أنَّهُ يُريدُ حبسي ثلاث سنوات بتهمة إطالة اللسان «قدح مقامات عليا» فقلت له: اسأل عزالدين الخطيب مفتي المملكة، فقال: أنت تعرف. قلت: لستُ مُجتهدًا ولا مُفتيًا، ولن أسقط في الحفرة التي حفرتها لي، فأنا مُتَّهم بمحاولة قتله لا بتكفيره، فالعب لعبة غيرها فهذه مكشوفة.

فتحوَّل للسؤال عن اتصالي بـ «هلال الشموط» فأنكرت معرفتي به أو بغيره من طلاب الجامعة العسكريين، وأكثر من الاسئلة، فقلت له: ضع مائة سؤال كما تريد، والإجابة على الجميع النفي. وكان المحامي «محمد مهيار» حاضرًا الجلسة، فحولني المُدَّعي العام إلى السجن لبينما تتمُّ المحاكمة التي لا معنى لها، فأمضيت خمسة أشهر ونصف حتى تمَّتِ المُحاكمة، وبُرِّئتُ من جميع التهم المُسندة إليَّ.

وكان الأصل أن لا أحاكم لعدم وجود قضية، لكنَّ ضغط المُخابرات هو الذي جعل المدعي العام يحيلني على المحكمة لأبقى مدة طويلة في السجن ولولا الاتصالات والاعتراضات لأبقوني مدة اطول.

الزلزال الشديد

كان الحزب قد عين «محمد نافع» أبو رامي معتمدًا للحزب في الأردن، وبعد مضي فترة معينة، عيَّنهُ الحزبُ مندوبًا عن القيادة في الأردن، وكان هذا الرجل يطمعُ في قيادة الحزب، وهو في الكويت، ولكن لم يستطع هناك أن يعملَ شيئا؛ لأنَّه لم يكن مَسؤولا، ولأنَّ الكويت لم تكن تصلح للعمل ضد القيادة.

فلما جاء إلى الأردن، ومعه عدد آخر من شباب الكويت، وصار مسؤولاً، صار مَثلُهُ مَثلَ الضابط الذي يريد أن يقومَ بانقلاب، لكن لكونه بعيدًا عن الجيش في بلدٍ آخر لا يستطيع العمل، فإذا عاد إلى البلاد، وتسلَّم قيادة يستطيع حينئذ أن يقوم بانقلاب.

وهذا «محمد نافع» مثله مثل هذا الضابط فلما استلم عمادة الحزب أخذ يتودَّدُ إلى المشرفين على الحلقات، وينقلُ من لا يطمع في إطاعته عن الحلقة، ليلحقه بمسؤولية أخرى، مثل الزيارات الفردية أو الجماعية، ويُكرِّهُ الشباب في المسؤولين الذين هم في مكتب الأمير، ويتهمهم بالفساد زورًا وبهتانًا، ويعملُ على إضعاف النشاط الحزبي، ويعزو هذا الضعف للقيادة، حتى صوَّر القيادة بأنَّها صارت تهذي، نتيجة للمرض العُضال، ويقول: يجب تغييرُها، ولمَّا حصلَ صلحُ وادي عربة لم يحرك ساكنًا.

وحدثَ أن قتل «أحمد الدقامسة» ستَّ فتيات يهوديات، ذهب الملك حسين على إثرها إلى إسرائيل، يعزي أهاليهن، وشن حملته على «أحمد الدقامسة» الذي وقف إلى جانبه كلُّ النَّاس في الأردن إلاّ «محمد نافع». ولمَّا وصل خبر المُؤامرة على قيادة الحزب للأمير فصل خمسة أعضاء من الحزب ومعهم «محمد نافع» ولكنَّ هؤلاء كانوا قد رتَّبوا الأمور ترتيبًا دقيقًا، فوُجدتْ مُعارضة قويَّة ضد القيادة واعضاء مكتب الامير.

وانتدبني الحزب للتحقيق في هذا الأمر، ولم يكن لديَّ علمٌ بكلِّ ما يَجري، إذ منذ سَنواتٌ طويلةٌ لم يكنَ لي علاقة بالنَّاحيةِ الإداريـَّة، وما كنت أعرف ((محمد نافع)) ولا عن مسؤوليته.

وبعد الاتصالات المتكررة، والاجتماعات وسماعي لكثرة الانتقادات كتبت تقريرًا بأنَّ معظم الشباب ينتقدون أعضاء مكتب الأمير، ولكن لا دليلَ لهم على ذلك وانتهى الموضوع بأن أصدر هؤلاء بيانًا باسم ((حزب التحرير)) فصلوا الشيخ ((عبد القديم زلوم)) وأخاه ((عبد الحليم زلوم)) و((محمود عويضة)) و((أبو عماد)) وغيرهم. فجاء الرَّد من الحزب بمقاطعة هؤلاء، وفصل الكثير منهم، وعدم مجالستهم أو الحديث معهم باعتبارهم ناكثين للعهد، ولم يمكث ((محمد نافع)) طويلاً حتى وافاه أجلـُهُ قبل وفاة الشيخ ((عبد القديم زلوم)) الذي كان يصفه ((محمد نافع)) بأنـَّهٌ على وشك الموت، وهو يهذي.

موت ولدي ((بلال)) وهو من شباب الحزب واعتقالي سنة ١٩٩٨م

كان ولدي بلال رحمه اللهُ نشيطـًا في حمل الدعوة، وكان مُصابـًا بمرض الرَّبو نتيجة عملية القلب المفتوح للمرة الثانية، وكان قبلها قد أجريت له عملية إغلاق أمعاء، وقبلها عملية كبد. وعند وفاته تعبت كثيرًا من الاستقبال لكثرة المُعزين الذين جاءوا من أنحاء عديدة. وبعد أسبوع اعتقلتني المخابرات من وسط سوق عمان، ولاحظوا عليَّ التعب، فحولوني إلى طبيبهم ولا أدري ماذا كان قراره، إلاّ أنـَّهم حولوني إلى سجن الجويدة أنا و((يوسف العوضي)) و((علي الصمادي)) و((أبو عماد)) و((مصطفى الشاعر)). بتنا ليلة واحدة، وفي اليوم التالي أطلقوا سراحي أنا و((علي الصمادي)) و ((أبو عماد)) وأبقوا ((يوسف العوضي)).

محاولة اعتقالي مرَّة أخرى

كانت المخابرات تلاحق ولدي محمدًا باعتباره من حزب التحرير، وبتهمة توزيع نشرات في الكرك، وبعد ثلاثة أشهر جاءوا إلى البيت ليلقوا القبض عليه، ففرَّ منهم دون أن يَرَوهُ أو يدخلوا بيته، وهربت أنا دُون أن يَرَوني.

وعند التنفتيش وجدوا كتابـًا باسم الحزب، وصادروا الآلة الكاتبه، وانصرفوا بعد أن أخذوا أولادي «عزالدين» و«عبد الله» و«أحمد» ونسيبي « محمد دقة» الذي كان عندي في البيت وأودعوهم السجن، وظلوا مدة شهر حتى برأتهم المحكمة، أما أنا وولدي «محمد» فقد حكمتنا المحكمة غيابيًا سنتين وستة أشهر، وبقينا فارِّين من وجه الظلم، حتى صدر عفو عامٌ بمناسبة تولي الملك عبد الله الثاني الحكم.

حادث خطير لانقلاب التركتر «الجرار»

كنت ذات يوم أحرث في المزرعة، فانقلب التركتر في منطقةٍ وعرة وعند كومة من الحجارة الصغيرة، واستقر فوق النِّصف الأسفل من جسمي، فتهشم كوع يدي اليسرى، وبدأ الدَّمُ ينزفُ منها، وأخذت أتألم من رجلي لكونها فوق الحجارة الصغيرة، وتحت ثقل التركتر.

وصرت أنادي على جار لي في مزرعة مجاورة، لعلـَّه يَسمعُ النداء فينادي جارًا آخر لنا لينقذاني، ولكنـَّهُ كان يَسمع النداء، ولا يدري أين المنادي.

ولمَّا كانت يدي اليمنى طليقة أخذتُ أسحب الحجارة التي تحت رجلي لعلي أستطيع سحبها من تحت التركتر، فصرتُ كلـَّما سحبتُ حجرًا يهبط التركتر على رجلي، فصرتُ كلما اسحب حجرًا أضعه تحت التركتر لمنعه من الهبوط.

فاستطعت بهذه الطريقة أن أسحب إحدى رجلي. وبينما كنتُ على وشك سحب الرجل الأخرى واذا بجاري الذي كنتُ أناديه يلتفتُ نحوي فيرى التركتر فوقي، فأقبل مُسرعـًا وحاول رفع التركتر، ولكنه لم يستطع إلا مُجرد تحريكه، فسحبت رجلي الأخرى.

وأخذ بيدي فقمتُ وتوكأت عليه حتى وصلت الغرفة فغسلت يدي المهشمة بالماء البارد وجاء أخ لجاري، ومعه سيارة فأوصلني إلى الطريق العام، وركبت الباص إلى مادبا، وهناك أرسلني أحد أقاربي إلى المستشفى، فقطبوا جروحي وقرَّروا لي البقاء في المستشفى لمدة أربعة أيام.

وجاءت الشرطة وحقَّقت معي، وكتبت تقريرها وبعثته إلى ناعور لكون الحادث وقع في منطقة تابعة لها. فخرجتُ من غرفتي لأرى قرابتي، وإذا بشرطي يتبعني ويسألني أين تريد؟ قلت له: أبحث عن قرابتي الذي أحضرني بسيارته.

فسكت الشرطي ثمَّ عُدتُ إلى الغرفة، ثم خرجتُ مرَّة أخرى وإذا الشرطي يلحقني ويسألني مرة أخرى، فشككت في الأمر فلما حضر أولادي إلى المستشفى، قلت لهم: خذوا إذنـًا لي من المستشفى بالخروج، فأخذوا لي إذنـًا بالخروج على عاتقي لا على مسؤولية الطبيب.

وقلت اخرجوا بي من باب آخر بعيدًا عن أعين الشرطة، يبدو أن هناك قضية أمن لها علاقة بي. فخرجنا ورجعنا إلى عمان، وعند المساء اتصل بنا أمن ناعور، وطلبوا حضوري بحجة أنهم يُريدُون أخذ ((كروكة)) في الحادث.

فقلت لهم بوساطة التلفون: الحادث حصل داخل مزرعتي، وليس على الطريق العام، ثمَّ إنـّي أنا المُتضرر وليس أحد غيري، ولا أشتكي على أحد، ولا يستطيع راكب دراجة الوصول إلى ذلك المكان.

فقالوا: لا بُدَّ من حُضورك. فقلت: لا أحضر. فقالوا: أتدري من يتكلم معك؟ قلت: لا، قال: العقيد فلان. قلت: أنعم وأكرم، فإذا تمكنت آتيك.

وعاد واتصل في الليلة التالية فقلت: لأخ لي رُدَّ عليه، فردَّ عليه وقال: لقد رجع المطلوب إلى مزرعتِهِ، والتركتر تحطم، ثمَّ كلفت شخصا ليستطلع سبب طلبهم لي فجاءني بعد أن استفسر عن السبب فقال: لك اسم عندهم على الكومبيوتر. فأنت مطلوب للأمن، فقلت: هذا الذي توقعته في المستشفى، ولكن رجلي ورمت وانتفخت، فذهبت إلى مستشفى البشير، وأجروا لي عملية جراحية، وأخرجوا الماء والدَّم الفاسد، ووضعوا فتيلاً لتسهيل التغيير عليها في الأوقات المناسبة فبقيت أغير عليها حتى شفيت بحمد الله.

تكليفي بمتابعة خطباء المساجد

بعد إعفاء الحزب لي من العمل للتنظيم الشعبي، كلـَّفني بمتابعة خطباء المساجد، فكنت أوجِّهُ الخطباء، وأكتب لهم مواضيع فكرية تصلح لالقائها خطبًا ودروسًا في المساجد.

وكنت أهتمُّ كثيرًا بالأفكار التي ترفع مُستوى التفكير وإيجاد الوعي لدى المستعمين، وأحض الخطباء على تنزيل ما في الخطب والدروس من أفكار على الوقائع والأحداث اليومية أو الاسبوعية، وأحيانا أعطيهم أحاديث نبوية منتقاه لافتتاح الحديث مع الناس في المساجد وفي المناسبات وبقيت مدة سنتين على ذلك حتى أنهى الحزب تفرغي مع بداية عام ٢٠٠٤م.

السعي في طلب الرزق
مع بقاء تكاليف حمل الدعوة

لم أستطع الاعتماد على إنتاج المزرعة؛ لأنَّ قلة الأمطار جعلت إنتاج المزرعة أقل من تكاليفها، وقلة وجود عمال يخدمونها لعدم قدرتي على دفع أجورهم، جعلها تتراجع في النمو لدرجة أنَّها في هذا العام لم يعط زيتونُها شيئًا، كما حصل ذلك قبل أربع سنوات إذ لم أقطف منها نصف كيلو زيتون.

فكَّرت في تأليف كتُب فرأيت أنَّ الكتب التي يُقبل النَّاسُ على شرائها هي الكتب التي لا تقبل نفسُ المُفكِّر أن يشغل نفسه بها.

وكنت قد جربت سابقًا في تأليفي كتاب البيوع القديمة والعاصرة الذي يَستفيد منه التجار والمُحامون فطبعتُ مِنهُ ألف نسخة كلفتني النسخة ١٤٠ قرشًا.

وقد مضى على تأليفه أربع سنوات لم أحصل على أكثر من نصف تكاليفه، ولا زال قسم منهُ عندي، وقسم يقدر ب٤٠٠ كتاب ما زالتْ عند دار البيارق التي صفاها صاحبها، وهَرَبَ إلى قطر. وألَّفت كتابًا آخر بعنوان «الاستراتيجية الأمريكية» ولم أحصل حتى الآن على شيءٍ من مبيعاته.

حادث تدهور سيارتي بي

في هذا العام ٢٠٠٤م فقدت أعز صديق لي، وقد تأثرت كثيرًا لموته، حتى إنِّي نظمت قصيدة بعنوان: « موقف الحشر» ، وكنت نهار دفنه حاضرًا، وكان العزاء في جمعية الدوايمة في البقعة، وسهرت تلك الليلة حتى صلاة الفجر. فلمَّا رجعت من الصلاة إلى من كنتُ ساهرًا معهم وجدتهم نائمين، ولم أكن متعودًا على النوم بعد الفجر، فقلت في نفسي: أذهب إلى إربد، وأحضر عددًا من كتاب

((الاستراتيجية الأمريكية)). فركبتُ سيَّارتي، وذهبت إلى إربد، وأحضرت معي بعض الكتب.

وفي الطريق في منطقة جرش نعستُ فما أفقتُ من سَهوتي إلاّ والسيارة تنحدر بي وتهوي في الوادي، حتى ارتطمت في الجبل وقلبت على اليمين فضرب رأسي في الزجاج الأمامي، وصدري في مقود السيارة، وشدَّ الحزام على عـُنقي وكتفي، فحللت الحزام وأخرجت قدمي من تحت الستيرنج ((مقود السيارة)) استعدادًا لفتح الباب. واذا بركاب باص قد نزلوا وأحاطوا بالسيارة، وأقعدوها ففتحت الباب. وخرجتُ والدَّمُ يقطر من فمي ويدي.

فغسلت أماكن الجروح وأسعفوني بمحارم الفاين، وانقطع الدَّمُ وهنؤني بالسلامة. ومختصر الكلام أنَّه بعد أن كنت أطمع في الاستفادة من الكتاب خسرت ٦٠٠ دينار على تصليح السيارة، ولكني حمدت الله على السلامة.

(٢٠٠٣م)

موقف الحشر

ألا يا صاحبي هل لنا من تلاقيا
وهل بعد الفراق تدري كيف حاليا
أجوب الديار أطوف كل يومي
لعلِّي ألتقي مرَّةً بأترابيا
أتاهم هادم اللذات في غفلة
فوا أسفًا وحزنًا على أصحابيا
ألا إنِّي غدًا للاحقٌ بركبهم
فلم يبق منَّا على الدنيا بواقيا
فيا ترى كيف حالي وراء برزخ
أظل فيه إلى القيامة ثاويا

وحتـى ينفـخ إسرافيـل فـي صـوره
وتعـود الأرواح إلـى الأجسـاد ثانيـا
ويــوم الديــن أبعــث فيــه مجـرَّدًا
من كل ثوب مكشوف العـورة عاريـا
أحــث الخطا لموقف الحشر مسرعـًا
أجيـب علـى كـــرهٍ صوتـًا مناديـا
يقـول هلمُّــوا إلـى موعـــد ربكـــم
يفـوزُ مــن كــان عنـــه الله راضيـــا
وأمكـُـث فيــه أربعيـن عامـًا واقفـًا
في حيرة لا أدري ما الذي يجري ليـا
ويُنصــب الميــزانُ لِلخلــق كـُلـِّهــم
وتـــلك ساعـةٌ أخشى فيها امتحانيـــا
أفـرَدُ بعيــدًا عـن أولادي وزوجتـــي
ولا يـهمُّـــي حـــال أبـــي أو أمِّيـــا
ولا إخـوتـــي ولا أبنـــاء عشيـــرتي
أفـدي بهم جميعـًا مـن النـار أحشائيـا
فيـــا لهـــول الجحيـــم إذا تأججــت
وسـيـق إليهـــا الظالمـــون تواليـــا
تسمـع مـن على بُعـدٍ صـوت زفيـرها
فتنظـــر فيهـــا الكافـريـــن بواكيـــا
ربِّ أجرنـــي مـن جحيـــمٍ أوقـدتهـــا
لكــــلِّ منـافـــقٍ للكـفـــر مواليـــا
حتـــى إذا نـــادى منـــادٍ صائـــحٍ بنـــا
ألا فاسمعـوا مــن الله حُكمـًا جاريـا

قــد ولــَّى كــل واحــد ما كــان عابـدًا
وكـــان فــي الدنيـا راضيـــًا بـــه واليـا
فتنـطلـــق الأقـــوام لمعـبـوداتـهـــم
تقذفهـم فـــي نـــار الجحيــم بواكيـــا
ويـنـطلـــق المؤمنـــون بأنـوارهـــم
إلــى جنـَّات النـَّعيـم ونعـــم الروابـيـا
ويســـاق المنافـقـون رغـــم أنوفـهـم
إلــى الــدرك الأسفــل في النــار تواليا

حادث سير آخر

وبعد عام من حادث السير الأول، كنت في مزرعتي وكان اليوم يوم جمعة، فذهبت إلى قرية المشقر لأداء صلاة الجُمعة في مسجدها، وأثناء رجوعي إلى المزرعة كان أمامي منحدر حاد ومتعرج، يقارب طوله ٧٠٠ مترًا.

وعند بدايته هوَّرت بي السيارة، وصرتُ أضغط على فراملها، فلم تتجاوب معي، وأخذت السيارة تزداد تسارعًا واحترت ماذا أعمل لأنَّ على يساري واديًا عميقا وعلى يَميني مرتفع، فصار همَّي أن أضبط السيارة لتظل على الطريق، بالرَّغم من التعرجات ((الكوربات)).

ولمَّا انتهيتُ من المُنحدر، كانت سرعة السيارة كما ظننتها آنذاك تزيد على مائة كيلومتر في الساعة، وفي تلك اللحظة طارت قطعة كرتون من داخل السيارة، وحالت بين وجهي وزجاج السيارة الأمامي، فحجبت عنِّي الرؤية، فاصطدمت السيارة بعمود كهرباء ذات ضغطٍ عالٍ فوقفت السيارة فجأة فارتطم جسمي بمقود السيارة وبالزجاج الأمامي وبالتابلو.

وتخيَّلتُ أنَّ جسمي قد ارتطم بصخرة عاتية بقوة شديدة، فأزلت قطعة الكرتون من على وجهي، فرأيت عمود الكهرباء، وقد شق طريقه عبر مقدمة السيارة قريبًا من الكرسي الأمامي الذي على يميني فحمدت الله ان لم يكن معي أحد.

فنزلتُ من السيارة، والدَّمُ ينزفُ من رأسي وأنفي ويدي، وأحسست أنَّ أضلاعي وقفصي الصدري قد تكسرت، وجريتُ مُسرعًا نحو مزرعة قريبةٍ منِّي، وطلبت من العامل فيها أن يوافيني بالماء، لأغسل رأسي ووجهي، لعلَّ النزيف ينقطع، فلم ينقطع فاستلقيتُ على ظهري، ورفعت يديَّ إلى أعلى، فخفَّ النزيف قليلا ً.

واتصلت بأحد أولادي بواسطة الخلوي، فجاء ومعه خالهُ وابنُ خالِهِ، فأخذوني إلى مُستشفى النَّديم بمأدبا، فأخذوا صورة لرأسي ولصدري وكانت النتيجة أن لا كسور فيهما فحمدت الله على ذلك.

وغادرتُ عائدًا إلى بيتي، ولم أذهب إلى مستشفى ولا إلى طبيب حتى شفيت تمامًا والحمد لله، وطلبتني شرطة ناعور كما طلبتني يوم حادث التركتر من قبل فلم أستجب لطلبهم.

حادث آخر

بعد أسبوعين تقريبًا من حادث السيارة، ذهبت إلى المزرعة لأقطف ثمر الزيتون، وبعد عدة أيَّام من العمل، أصبتُ بقشَّةٍ في عيني اليمنى، وظننت أنَّ الإصابة بسيطة، كما هي العادة بالإصابات أثناء القطف بوساطة ورق الزيتون.

لكنَّها في اليوم التالي اشتدت عليَّ، فتألَّمتُ كثيرًا فذهبت إلى الطبيب، ولما فحصها وجدها مجروحة، فقطَّرها عدة قطرات، ثمَّ عصبها، وقال: لا تفتح العصبة إلا في الغد الباكر، وخذ هذه القطرة واقطرها أربع مرات في اليوم لمدة ثلاثة أيام، وراجعني ولما راجعته وجدها قد التئمت والتحم الجرح والحمد لله.

بيع المزرعة

في عام ٢٠٠٤م وفي أواخر فصل الخريف، وبعد نزول المطر، حرثت المزرعة للمرَّة الأولى، وكنت أثناء الحراثة أشعر بالتَّعب. ولمَّا حان وقت الحراثة للمرَّة الثانية، بدأت أحرث وأحسست أنَّ الأرض قد تصلبت، وصعُبَ على التركتر السَّير في بعض جنباتها، ودخل بي تحت شجرة زيتون، فأردت أن أتلافى جذعا من جذور الشجرة فتعرضت له بيدي فكاد كتفي أن ينخلع.

وقفز المحراث «التركتر» على سلسلة «حائط من الحجارة» فكاد أن يسقط، وخشيت أن ينقلب مثلما انقلب بي المحراث في المرات السابقة، وقلت في نفسي: إن كنت قد نجوت في المرَّات السابقة، فإني أخشى أن تكون هذه القاضية.

فحزمت أمري على بيعها قبل خرابها، لأنها آخذة في التأخر إذ تأخر إنتاجها خلال السنوات الثلاث الأخيرة لعدم العناية بها، فإنَّ أعلى إنتاج لها كان ٤٣ تنكة زيت، ثمَّ نزل إلى ٢٢ تنكة، ثمَّ الى ١٣ تنكة، ثم في هذا العام انخفض إلى ٤ تنكات.

فكلَّفت سمسارًا ببيعها، فجاء بمشترٍ بثمن زهيد لم أحصل منهُ إلاَّ على مبلغ تسعين ألف دينار أردني، فاشتريت قطعة أرض للسكن بمبلغ ثمانية آلاف وخمسمائة دينار أردني، واشتركت مع عدد من الأصحاب في تجارة مواد صحية بمبلغ خمسة وخمسين ألف دينار، وفتحت محلا تجاريا «بقالة» بمبلغ سبعة آلاف دينار.

وببيع المزرعة قد سرَّ بعض الأهل، ولامني بعضهم الآخر، وأمَّا أنا فلم آسف لبيعها، ولم أفرح لثمنها، لأنِّي موقن أنَّ ما فعلته موافق لما قُدِّر في الأزل وبرضاي.

محاولة عمل هوية شخصية

شعرتُ يوم التوقيع على بيع المزرعة أنَّ الدوائر الرَّسمية في الدولة لا تقبل الموافقة على إنجاز المعاملات إلا بإبراز الهوية الشخصية التي تحمل الرقم الوطني.

فاضطررت لعمل هوية، وعمل الهوية بدلاً من الضائعة يحتاج إلى قرار من مركز الأمن في المنطقة التي يَسكنُها طالب الهوية.

وكانت هويتي في حكم الضائعة؛ لأنَّهُ كان لي سنتان أبحث عنها فلم أجدها، فذهبتُ إلى منطقة سحاب، وقدَّمتُ طلبًا للحصول على هوية بدل الضائعة.

فلما عرضوا اسمي على جهاز الكمبيوتر، وجدوا أنِّي مطلوبٌ للمخابرات، ولمركز الأمن في ناعور، بسبب حادث التركتر قبل عدة سنوات، وبسبب حادث تدهور السيارة الأخير، فسألوني ألك سيارة رقمها ٥٩٧٨٣٦ قلت: نعم، فقالوا: اذهب إلى ناعور تجد هويتك.

وكنت أعلم أنَّ هويتي لم تكن بالسيارة، لأنَّ الحادث كان قبل شهرين، وفقداني للهوية كان قبل سنتين، فشعرت أنَّ الضابط الذي طلب مني أن أذهب إلى ناعور، لا يدري أنني أعرف أنني مطلوب لمركز أمنها.

فلربما أراد أن أذهب بنفسي، فيستلموني هم بدل أن يُسلمني هو. فاحترت في نفسي أأذهب إلى ناعور ويسلموني بدورهم إلى المخابرات أم أذهب إلى المخابرات أولاً وأقصر الطريق، وأنا مضطر إلى الهوية؟

فقررت أن لا أذهب لأي منهما، وفي صباح اليوم الثاني صليتُ ركعتين، ودعوت الله تعالى أن يغنيني عن مقابلتهم، ويكفيني

شرهم، فعُدتُ أفكِّر في الهوية، وكلـَّما فكـَّرت يلوح في مخيلتي أني وضعتها في مكان نسيته مع الزمن.

فأخذتُ أفتش من جديد، فلاح لي كيسٌ من البلاستيك معلقٌ على مسمار في حائط الغرفة التي كنت فيها، فتناولته وفتشته وإذا بالهوية فيه، فكانت فرحتي شديدة أن أغناني الله عن مقابلتهم.

تكليفي بتدريس حلقة أسبوعية

اجتمع لدي خمسة من الشباب الكبار في السن فدرستهم في كتاب المفاهيم السياسية لحزب التحرير، وكنت في نفس الوقت مشغولاً بتأليف كتاب يتعلق بأحداث الشرق الأوسط، وهو كتاب حصاد ثمانين عامًا من الكفاح.

حادث سير ثالث

كان لابنتي « أم معاذ » موعدُ إجراء عملية تمييل في المدينة الطبية، وكانت تسكن في قرية « أم البرك » فذهبت إليها في اليوم الموعود، وأخذتها وولدها معاذاً في سيارتي، ولمَّا صرنا قريبًا من منطقة ناعور، ضرب العجل الأمامي، فانقلبت بنا السيارة في مزرعة محاطة بسلك شائك، ولم يحصل لنا من الضرر إلاّ الشيء البسيط أصاب ابنتي وولدها.

وأما أنا لم أُصب بشيء، فخرجنا من السيارة، واتصلت بولديَّ أخبرتـُهما أنَّ السيارة تعطلت فجاءا بسيارة أحدهما، ونقلونا إلى المدينة الطبية، حيث أجريت لابنتي العملية المطلوبة، وباتت ليلة واحدة، ثمَّ خرجت بسلام والحمد لله.

شرائي مزرعة صغيرة من جديد

كان أبو العز رحمه الله تعالى قد كتب هذا العنوان في مذكراته بخط يده، لكن وافاه أجله قبل أن يتم كتابته.

نماذج من الكلمات والخطب التي كتبتها للخطباء
إطلالة شهر رمضان
وما تثيره من مشاعر في نفوس المسلمين

إخوةَ الإيمانِ والإسلامِ:

يُهِلُّ عَلينَا هِلالُ رَمَضَانَ في كُلِّ عَامْ، ونَحنُ نَتمنَّى أنْ يَكونَ حَالُنا في رَمَضَانَ القَادمِ خَيراً مِنهُ في كُلِّ مَا مَضَى مِنْ أعوَام، فإذا أحوَالُنَا تَسُوءُ عَاماً بعدَ عَام، فلمْ نُغَيِّرْ مَا بأنفُسِنَا حَتَّى يُغَيِّرَ اللهُ مَا بنَا، وَنظَلُّ نَعيشُ في أوْهَام.

فإلى مَتى هَذا الوَضعُ المُزري العَجيبْ؟ وَإلى مَتى هَذا الصَّمتُ الرَّهيبْ؟ يُهِلُّ عَلينَا شَهرُ القُرآن في كُلِّ عَام، فإذا بنَا قَدْ عَطَّلْنَا أحكَامَهُ، وَلمْ نَقبَلْ نِظامَه.

يُهِلُّ عَلينَا هِلالُ رَمَضَانَ في كُلِّ عَام، يُذكِّرُنَا بأيَّامِ عِزٍّ هَنيَّة، فإذا أيَامُنا سُودٌ وَحَالُنا رَدِيَّة. يُهِلُّ عَلينَا هِلالُ رَمَضَانَ في كُلِّ عَامٍ، يُذكِّرُنَا بأيَّامِ الشَّهامَةِ وَالرُّجُولَةِ وَالبُطولَةِ، فإذا بنَا نَفقِدُ الشَّهامَةَ وَالرُّجُولَةَ وَالبُطولَة، يَستغيثُ بِنَا إخوَةٌ لنَا بِجوَارنَا، فإذا الشَّهامَةُ قَدْ فُقِدَتْ مِنْ دِمَائِنَا، فَلا شهَامَةَ وَلا بُطولَةَ، وَلا نَخوَةَ وَلا حَمِيَّة.

تغيرتِ المُرُوءَةُ وَاضمَحَلَّتْ
فوَجْهُ الشَّهمِ مُصفرٌ سَقيمُ
وَأفعَالُ الرَّذيلَةِ قَدْ تَبَدَّتْ
وَأخْلاقٌ لَنَا لا تَستَقِيمُ

يُطِلُّ عَلينَا شَهرُ الصيِّامِ في كُلِّ عَامٍ، يُذكِّرُنَا بنخوَةِ المُعتصِمِ الذي أقسَمَ حينمَا وَرَدَهُ خَبَرُ المَرأةِ المُسلمَةِ التي استغاثتْ بهِ ألاَّ يَجلِسَ حَتَّى يُغيثَهَا، فمَا أكثرَ المُستغيثينَ وَالمُستغيثاتِ فِي فِلسطينَ، وَفِي غَيرهَا مِن بلادِ المُسلمينَ، يُقتَلُ أبناؤهُمْ، وَتُهدَمُ

بُيُوتـهُم، وَتـُقتـَلـَعُ أشجَارُهُمْ، وَتـُنهَبُ أرَاضِيهمْ، وَيُعذبُونَ في السُّجُون ِ، وَيُمنـَعُ إسعَافُ الجَرحَى وَمُعَالجَةُ المُصَابينَ برَصَاص ِ أعدَائهمْ، وَلا مِنْ سَامع ٍ، وَلا مِـنْ مُجيب...!! يُطِلُّ عَلينَا شَهرُ الصيِّام ِ في كـُلِّ عَام ٍ، يُـذكـِّرُنـَا بالانتصَارَاتِ وَالفتوحَاتِ وَإذا الهَزَائِمُ تلازمُنا وَالفتـُوحَاتُ لأعدَائِنا وَليسَ هَذا هُـوَ العَهدُ بالمُسلِمين:

عَهِـدنـَا المُسلميــنَ أبَـــاةَ ضَيـم ٍ
غـَـدَاةَ الـــرَّوع ِ بأسُهُـم شـَدِيــــدُ
إذا مَـا استـُنفِـــرُوا نـَفـَرُوا خِفـَافـَـاً
يَحُـــثُّ خـُطاهُـــمْ عـَـــزمٌ أكِيـــدُ
فمَا لهُمُــوا نـَسُـوا الإســلامَ حتـَّى
تـَغـَشـَّاهُمْ عَلـــى الدَّهْـر ِ الجُمُـــودُ
دَعَــا دَاع ِالجهَـــادِ فـَلـَـمْ يُـلبُّـــوا
وَلا فـقِهُــوا النـِّـــدَاءَ غـَدَاةَ نـُــودُوا
ألـَــمْ يتـَنسَّمُـــوا خـَبَـــرَ الأعَـــادِي
أمَــا سَـمِعُـوا بمَــا فـَعَلـَتْ يَهُـــودُ
إنْ دَامَ هَـــذا الحَـــالُ يَـــا مَسعُــــودُ
لا وَطـَــــنٌ يبقـَـــى وَلا حُــــدُودُ
وَلا رجَــــالٌ مُسلمُـــونَ صِيـــــدُ
يَستـَنفِــــرُونَ إذا عـَــــدَتْ يَهُـــودُ

يُهِـلُّ عَلينـَا هِلالُ رَمَضَانَ في كـُلِّ عَام، يُـذكـِّرُنـَا بتاريخِـنـَا وَانتصَارَاتِنـَا، يُـذكـِّرُنـَا بيَوم ِ اليَرمُوكِ، وَيَوم ِالقادِسيَّةِ، فإذا اليَرمُوكُ يَروي أعدَاءَنـَا بمِيَاهِهِ العَذبَـةِ، وَإذا القادِسيَّـةُ صَارَتْ هَدَفاً لِلغارَاتِ الأمريكيَّةِ، لـَيسَ ذلكَ فحَسْبُ، بَـلْ حَشـَدَتْ جُيُوشَـهَا، وَأبحرَت بمُدمِّرَاتِـهَا، وَحَرِّكـَتْ أسَاطِيلهَا، وَاتـَّجَهَتْ صَوبَ العِرَاق ِ

لِتُصلِيَهُ بغارَاتِ طـَيَرَانـِهَا، وَتفجيرَاتِ صَوَاريخِهَا، وَلِتَصُبَّ عَلى المُسلمينَ نـِيرَانَ حِقدِهَا الدفين، وَهِيَ في زَعْمِها تـُريدُ تـَحريرَ العِرَاقِ وَإنهَاءَ حُكم صَدَّام الظـَّالم ِ المُستبَدِّ، وَهِيَ في زَعْمِهَا أيضاً تـُريدُ تجريدَ العِرَاق ِ مِنْ أسلحَةِ الدَّمَار ِ الشـَّامِل ِ فإذا هِيَ أشـَدُّ ظـُلماً وَاستبدَاداً مِنْ حُكم ِ صَدَّام، وَإذا أكذوبَةُ أسلِحَةِ الدَّمَار ِالشَّامِل ِ تـَنكشِفُ.

وَالحَقيقة أنَّ هُناكَ أهدَافاً أخرَى خـَفيَّة تريدُهَا أمريكا مِنَ العِرَاق، إنـَّهَا وَلا شكَّ تـُريدُ تـَغييرَ خارطـَةَ المِنطـَقةِ، لتـُعيدَ صِيَاغـَتـَهَا عَلى النَّحو ِالذي تـَشَاءُ وَعَلى الشـَّكل ِ الذي تـُريدُ : دَولـَةٌ شِيعيَّةٌ في الجَنـُوبِ، وَدَولـَةٌ كـُردِيَّةٌ في الشـَّمَال ِ، وَثالِثـَةٌ سُنيَّةٌ في الوَسَطِ، تـُريدُ أنْ تـَزيدَ مِنْ تـَفـَرُّق ِ المُسلمينَ، وَأنْ تـَحُولَ دُونَ عَودَةِ دَولـَةِ الخِلافـَةِ إلى الحُكم، التي تـَلمُّ شعْثَ المُسلمينَ وَتجمَعُ شملـَهُمْ، لِتـَضْمَنَ لِنفسِهَا الهَيمَنةَ وَالبـَقاءَ، وَترسِيخَ النـُّفـُوذِ لأمَدٍ طويل ٍ. إنـَّهَا تـُريدُ أنْ تضَعَ يَدَهَا عَلى كـُـلِّ الطـَّاقـَةِ التي في الخليج ِ، لِتستأثِرَ بهَا، وَلِتتحَكـَّمَ بالدُّول ِ الصِّناعيَّـةِ التي لا غِنى لهَا عَن ِ الطـَّاقـَةِ. فمَا هُوَ مَوقِفُ المُسلمينَ مِنْ إخوَانـِهِمُ المُستضعفينَ في فلسطينَ وَفي العِرَاق ِ وَفي كـُلِّ أرض ٍ يُذكـَرُ فيهَا اسمُ اللهِ ؟ فهَلْ مَا زَالتْ رَابطـَةُ العَقيدَةِ تـَربـِطُ بَينَ المُسلمينَ فـَيَنصُرُ بَعضُهُمْ بَعضاً؟ أمْ أنهُمْ أصبَحُوا مُكبَّلينَ بالأغلال يَصدُقُ فيهِمْ قولُ الشَّاعِر:

فبَعـــدَ كِيـَـــان ِ إيمَـــان ٍ غـَدَونـَــا
كِيَانـَــــاتٍ شـَدِيـــدَاتِ السَّـــــوادِ
تـَزعـَّـــمَ كـُــــلَّ وَاحِـــدَةٍ عَمِيـــلٌ
وَكـُرهُهُمُـــــو لِشَـــرع ِ اللــهِ بَـــادِ
وَهَـــذا الحَـــالُ إذ يُـنبيـْكَ عَـنهُـمْ
خـَـزايَــا خـَانِعِيـنَ لِكـُـــلِّ حَـــادِ

وَأصبَحْنَـا كَمِثـل ِغـُثـَـاء سَيـل ٍ
نـَمُـرُّ بـِلا حِسَـابٍ أو عِـدَادِ
أو ِالأيتـَامُ قـَدْ فـَقـَدُوا أبـَاهُمْ
وَلا أمٌّ تـُزَوِّدُهُـمْ بـِـزَادِ
نـَهيمُ عَلـى الوُجُـوهِ بكـُلِّ أرض ٍ
وَنـَركـَعُ خـَاشعِـينَ لكـُلِّ حَـادِ
وَحُكـَّامٌ لـَنـَا رَفعُـوا شِعَـاراً
بفَصْل ِ الدِّيـن ِعَـنْ حُكـْم ِالعِبـَادِ
إلـى دَكـَّارَ قـَدْ وَفـَدُوا جَميعـاً
ليـُلغِـيَ جَمعُهُـم فـَرْضَ الجهـَادِ
وَصَـارَتْ دَعـوَةِ الجهـَادِ جُرْمـاً
يُحَـارَبُ أهلـُهَـا فـي كـُلِّ نـَادِ

يُطِـلُّ عَلينـَا شَهرُ الصِّيام ِ في كـُلِّ عَام ٍ، فإذا أمَّةُ الإسلام ِ مَدُوسَةٌ تحَتَ الأقـدَام، لا تكادُ تـَنتـَهيَ مِنْ مُصيبةٍ حَتـَّى تنزلَ بهَا مُصيبَةٌ أشـَدُّ عَلـى يَدِ أعدَائها وَعَلـى أرْضِهَا وَفي بلادِهَا، وَبَينَ الحِين ِ وَالحين ِ يُعلِنُ عَدُوُّهَا الحَربَ عَليهَا، لا لِشيءٍ إلاَّ لأنـَّهَا مُتمَسِّكةٌ بإسلامِهَا وَدِينـِهَا.

فـَقـَدْ شـَنـُّوا عَلى الإسلام ِ حَرْبـاً
وَحِقـدُ قـُلـُوبـِهـِمْ لـَونُ السَّـوَادِ
ففي الصُّومَال ِ قـدْ حَدَثـَتْ مـآس ٍ
يَمُوتُ الشَّعبُ جُوعاً في البَـوَادِي
وَفي بُرْمَـا تقاصـرَتِ المَنـَايـا
ألـُوفٌ يُطـرَدُونَ مِـن البـِلادِ
وَفي كشميـرَ قـدْ طـُلـَّتْ دِمَـاءٌ

وَهُـدِّمَــتِ المَسَاجِــدُ بالأيـــــادِي
وَفي بَيرُوتَ قَـد ذهَبَـتْ ضَحَايَـــا
وَشاتِيــلا وَصَبـــرَا في جِهَـــــادِ
مَوَارنَـــةُ الكتائِـــبِ مَـا تَـوَانَـــوا
وَمِـنْ غَيــظٍ يَعُضُّـونَ الأيَـــادِي
فَصَبُّـوا حِقدَهُــمْ في كُـلِّ بَيـــتٍ
فَمَـــا لِلعَهـــدِ فيهِــمْ مِـــنْ وِدَادِ
وَفي حَــرْبِ الخليـجِ أتَـتْ عُـلُـوجٌ
رُمُــوزُ الكافـرينَ مِـنَ الأعَـــادِي
ألـُوفُ الجُنـُودِ مِنَّــا قَـد أبيـــدَتْ
عَلى أرْضِ الكُويتِ وَفي الحَمَــادِ
وَفي الهرسِـكِ ذبْـحٌ ثـُـمَّ حَـــرْقٌ
بأيدي الصَّرْبِ أعْدَى مَنْ نُعَــادِي
فَـكَمْ أنـْثـَى بَكارَتـُهَـا أزيلَـــــتْ
تَصِيحُ لِـرَبِّهَـا حَقـَّاً تـُنـَـــادِي
تـُوَلـولُ مِـنْ عَظيمِ الخَـطبِ تــدْعُو
جَيشــاً للكريهَــــةِ وَالطَّـــــرَادِ
وَفي كـُوسُوفَـا أحْـدَاثٌ جِسَـــامٌ
يَـئِنُّ لِهَولِـهَـــا صُـــمُّ الجَمَـــادِ
ألـُوفٌ يُحْـرَقـُونَ بكـُلِّ حِقــــدٍ
وَتقطيـعُ الـرُّؤوسِ مَـعَ الأيـــادِي
وَأعرَاضٌ تـَهتـَّكـَتِ انتِقـَامــــاً
فَلا غَـوثٌ لِمَنْ تـَبكِـي تـُنـَــادِي
وَفـي الشيشَـــانِ دُودَاييــفُ فيهَـــا
طويــلُ البَـــاعِ رَمْـزٌ لِلجِـهَـــادِ

فَحَرَّرَهـــَا بـِهِمَّتِــــهِ وَلَبَّــــى
نـــدَاءَ اللهِ أهْـــــلٌ لِلرَّشــــادِ
عَليــهِ سَــلامُ رَبِّـي كـُـلَّ يَـــومٍ
فرَحمَتـُــهُ تـَــدُومُ ، وَفـي ازديَـــادِ
تنـَادَى الـرُّوسُ حِـقداً بَعـدَ حِيـنٍ
إلـى الشيشـانِ نـُخضِـعُ مَنْ يُعَـادِي
ألـُوفُ الجُنـدِ قـَدْ زَحَفـَتْ تِبـَاعـاً
بدَبَّابَـاتِهِـــمْ طـَـــوعَ المُـنـَــادِي
فـَدُمِّــرَتِ البـِـلادُ وَمَـــا عَـليهَـــا
وَهُجِّـرَ أهلـُهَـــا صَــوبَ الأعَــادِي
وَفـي الأفغـــانِ أحْـدَاثٌ جِسـامٌ
فـَــوَا أسفـَا عَـلى تِلـْـكَ البـِـــلادِ
فأمريكـــا تـَشُـــنُّ عَليهَـــا حَرْبـاً
وَتـُلقِـي الرُّعْـبَ مَا بَيـــنَ العِبـادِ
صَوَاريــخٌ تـُدَمِّـــرُ كـُــلَّ شَـــيءٍ
تـُمَهِّدُهـــا لتنزيـــلِ الأعــــادِي
وَيَرحَـــلُ أهلـُهَـــا مِنهَـــا اتـّقــاءً
شُـرُودَ الكـُفـرِ مِــنْ أهـلِ الفسَــادِ
تـَرَى الضُّعَفـَاءَ فـِي وَضـعٍ بئيسٍ
وَمِـنْ جَـورِ العِـدَا تبكِــي تـُنـَـادِي
وَلـَمْ يَجْـرُؤ مِــنَ الحُكـَّامِ كلـْـبٌ
يُجيــبُ بِجُـرأةٍ صَــوتَ المُنـَـادِي
وَصَـارَتْ دَعْـوَةُ الإسـلامِ جُرْمـاً
يُحَــارَبُ أهلـُهَـــا فــي كـُـلِّ نـَــادِ

إرْهابيُّــونَ سَمَّوهُــمْ عِــدَاءً
وَوَصْــمٌ بالتطَّــرفِ وَالفسَــادِ
جُيُــوشٌ جُــرِّدَتْ أبَــداً عَليهــمْ
تـُحاربُهُـم تـُقاتلـُـهمْ تـُعـَــادِي
تَشُـنُّ هُجُومَها فــي كـُـلِّ يَــومٍ
عَلـى أهــلِ التـُّقــى أهـلِ الرَّشَـادِ
فتـَحْبسُهُـمْ وَتـَـقتـُـلُ مَــنْ أرَادَتْ
وَتـعــدِمُ كـُــلَّ دَاعٍ لِلجهَــادِ
ولا ذنـْــبٌ لـَهُــمْ إلاَّ دُعـَــاءٌ
إلــى الإســلامِ حُكـْمـاً لِلعبَــادِ
بِـرَبِّــكَ أيـُّهَــا الغـَافِـي تـَيـَقـَّــظ
فـَهَـلْ بَعـدَ الفظائـعِ مِنْ رُقـَـادِ؟
فهَــذا الكـُفـرُ أبْـــدَى ناجـِذيــهِ
وَليـسَ أمامَـنـَــا غـَيـرُ الجـِهَــادِ

إخوةَ الإيمانِ والإسلامِ:

مُنذ أنِ انتهَى الاتحَادُ السُّوفييتيُّ عقَدَ بُوشُ الأبُ اجتمَاعاً لِدُوَلِ حِلفِ الأطلسيِّ، وَقالَ لهُمْ: ((لقدِ انتهَينـا مِنْ عَدُوِّ الشَّمَالِ، وَالآنَ يَجبُ أنْ نـَتـَوَجَّهَ إلى عَدُوِّ الجَـنـُوبِ، إلى المُسلِمينَ فهُمْ أخطـَرُ عَلينـَا مِنَ الاتـِّحَادِ السُّوفييتيِّ))!

وَأخـَذ يَضَعُ المُخطـَّطاتِ لِلقضَاء عَلى الإسلامِ، باعتبَارِهِ المَبدَأ الوَحيدَ الذي يَتعَارَضُ مَعَ الرَّأسمَاليَّةِ الكافرَةِ. وَقـَدْ جَاءَ وَلـَدُهُ بُوشُ الابنُ يُنفـِّذ مَا خـَطـَّطَ لـَهُ أبُوهُ، فاصطنـَعَ فِكرَةَ الإرهَابِ، وَاتخذهَا وَسيلةً لِضَربِ كـُـلِّ دَولـَةٍ مُسلِمَةٍ، وَهَاهُوَ مَاضٍ فِي تـَنفـِيذِ خـُطـَّتِهِ.

وهَــذا بُــوشُ وَجـَّـهَ كـُـلَّ هـــمٍّ
إلى الإسـلامِ ذي الدِّيـنِ الأصيـلِ
وقـدْ وَضـعَ المخطـَّطَ مُنــذُ حيـنٍ
وأنـْتـُـمْ فِـــي مَنـَــامٍ أو مَقيـــلِ
ودَوَّخَ أهلنـَــا فِـــي كـُـلِّ قـُطـْــرٍ
وَرَوَّضَهُـــمْ بأسلـُـــوبٍ هَزيــــلِ
وَحُكـَّـــامٌ لنـــا سَمِعُـــوا أطاعُـــوا
تـَخلـَّوا عَــن مُحَارَبَـــةِ الدَّخِيـــلِ
وَمَنـَّـاهُــم حَيـــاةَ العِـــزِّ زُورًا
وَلــمْ يَقبَــلْ بِـهَــا غَيــرُ الذليـلِ

يُطِـلُّ عَلينـَا شَهرُ الصـيّامِ في كـُـلِّ عَامٍ، يُـذكـِّرُنـَا بأحْوَالِنـَا، يَهيبُ بِنـَا لِنـُلقِيَ الذلَّ عَنْ كـَوَاهِلِنـَا، يَهيبُ بِنـَا لِنَستعيدَ أيـَّامَ مَجدِنـَا وَعِـزِّنـَا، يَهيـبُ بِنـَـا لِنعُـودَ إلـى دِينِنـَـا، فهُـوَ مَصـدَرُ قـُوَّتِنـَـا الـذي يُشجِّعُنـَـا عَلـى مُوَاجَهَـةِ أعدَائِنا، يَهيـبُ بِنـَـا لِنرفعَ رُؤوسَنا، بَعدَ أنْ طَـالَ بالأرضِ التصَاقـُنـَـا، يَهيبُ بِنـَـا لِنصـرُخَ فِـي وُجُوهِ الظـَّالِمينَ، لِيَكـُفـُّوا عَنْ ظـُلمِنـَا، يَهيبُ بِنـَا لِنـَلحَقَ بالمُجَاهِدِينْ، وَنخُوضَ غِمَارَ الحَرْبِ مَعَ المُستعمِـرِينَ وَالمُحتـلـِّين.

لـَقـَدْ آنَ الأوَانُ لِكي نتخلـَّصَ مِنْ هَذا الوَاقعِ الفاسِدِ، وَأنْ نـَنطـَلِقَ مِنْ هَذِهِ القـُيُودِ، وَذلكَ بجَعلِ الإسلامِ وَحدَهُ نِظاماً لِلحَيَاةِ، لِيَعُودَ لـَنـَا عِـزُّنـَا وَمَجْدُنـَا، فيتـَوَحَّدَ شـَمْلـُنـَا، وَتجتمِعَ كـَلِمَتـُنـَا عَلى إمَامٍ وَاحِدٍ في دَولـَةٍ وَاحِدَةٍ، يَصُومُ المُسلِمُونَ كـُلـُّهُمْ في يَومٍ وَاحِدٍ، وَيُـفطِـرُونَ فِي يَومٍ وَاحِدٍ، وَيفرَحُونَ كـُلـُّهُمْ في يَومٍ عِيدٍ وَاحِد، فيَرضَى عَنهُمْ رَبُّهُمُ الوَاحِد.

لـَقـَدْ غـَدَتْ وَقائِعُ حَيَاتِنـَا لا تـَدَعُ لِمَنْ في قـَلبهِ ذرَّةٌ مِن إيمَانٍ، أو لـَدَيهِ قليلٌ مِنَ الغـِيرَةِ عَلى دِينهِ وَأمَّتِهِ أنْ يَنـَامَ في هَذا

الوَاقِعِ الفَاسِدِ الذي يُقاسِي النَّاسُ فيهِ مَرَارَةَ الظُّلمِ وَالضَّياع، يَجُوعُونَ وَبلادُهُمْ أغنَى بِقَاعِ العَالَمِ ثروَةً بترولية، يَلهثُونَ وَرَاءَ الرَّغيفِ، وَأموَالُ المُسلمينَ تُدَّخَرُ في البُنوكِ وَالمَصَارِفِ الأورُوبيَّةِ وَالأمريكيَّةِ، يُقيمُونَ بهَا مَصَانعَ الأسلِحَة التي يُذلونَ المُسلمينَ بهَا، أو تُصرَفُ أموَالُهُمْ في بنَاء القُصُورِ وَالمَسَارحِ وَمُدنِ المَلاهِي وَبرَكِ السِّبَاحَة وَالنَّوَادِي اللَّيليَّة.

إنَّهُ مِنْ سُرَى اللَّيلِ يَطلعُ الفَجْرُ، وَلا بُدَّ لهذا اللَّيلِ مِنْ آخِرٍ، وَإنَّ اللَّيلَ مَهمَا طالَ فلا بُدَّ مِنْ طُلوعِ الفجرِ، وَإنَّهُ كُلَّمَا اشتَدَّ سَوَادُ اللَّيلِ اقترَبَ طُلوعُ الفجْرِ، وَإنَّ الشَّبابَ هُمْ عُدَّةُ التَّغييرِ، وَهُمُ الذينَ نَصَرَ اللهُ تعَالى بهمْ رَسُولَهُ ﷺ حيثُ قالَ عَنهُم: «نُصِرتُ بالشَّبَابِ» وَهُمْ رجَالُ المُستقبلِ، وَالأملُ بمشيئةِ اللهِ تعَالى مَعقودٌ عَليهمْ، وَإنَّ الخلافَةَ بَدَأتْ بحَمدِ اللهِ بشَائرُهَا تَلوحُ بالأفُقِ، فإلى إقامَةِ دَولةِ الخِلافةِ التي يُعَزُّ بهَا الإسلامُ وَأهلُهُ، وَيُذلُّ بهَا الكُفرُ وَالنِّفَاقُ وَأهلُهُ نَهيبُ بكُمْ أيُّهَا المُسلِمُون.

ظَهَرَت أنجُمُ الشَّبَابِ تَلُوحُ
وَبَدَا شَذا الطِّيبِ مِنهُمْ يَفُوحُ

وَتفتَّقت عَنْ خَفايَا نُفوسِهِمْ
آمالُهُمُ العَرِيضَةُ والطُّمُوحُ

فلعَمرِي إنَّهُمْ سَادَةٌ
يُبتَنَى لِلمَجدِ مِنهُمْ صُرُوحُ

إنِّي لأرجُو أنْ يَكونُوا قَادَةً
وَعَلى أيدِيهِمْ يَكُونُ الفُتُوحُ

ساعَـــــةُ مُكاشفَـــــة

قالَ اللهُ تـعَالى في مُحْكَمِ كِتَـابـِهِ وَهُوَ أصْدَقُ القائلينْ:﴿قـُـلْ إنَّ رَبي يـقذِفُ بالحَقِّ عَلاَّمُ الغيُوبِ، قـُـلْ جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبديءُ البَاطِلُ وَمَا يُعيدُ، قـُـلْ إنْ ضَللتُ فإنَّمَا أضِلُّ عَلى نفسِي، وَإن اهتـَدَيتُ فبـِمَا يُوحِي إليَّ رَبِّي إنـَّهُ سَميعٌ قـَريبٌ﴾.

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلامِ:

يَا مَنْ يَتمَسَّكونَ بالكِتابِ، يَا رَهْطَ الأبرَارِ، تعَالـَوا إلى سَاعةٍ مِنَ المُكاشـَفـَةِ وَالمُحَاسَبَةِ وَتقييمِ الذاتِ، تعَالـَوا إلى وَقفـَةِ صِدْق في مَقامِ الحَقِّ، تعَالـَوا إلى لـَحْظةِ استشرافٍ عُلويَّةٍ نسمُو فـَوقَ ارتكاسَاتِ الحَمأِ وَالطـِّين، تعَالـَوا نـَقِفُ بَينَ يَديْ رَبِّنـَا، نـُـقـَيـِّمُ مَا لنـَا وَمَا عَلينـَا، مَا قدَّمنا وَمَا أخـَّرنا، تعالـَوا فإنَّ لهذهِ الوَقـفـَةِ مَا بَعدَهَا، فاليومَ مِضمَارٌ وَغـَدا السِّباقُ، يَا قومُ مَا لِلعَبَثِ خُـلِقنـَا، وَمَا ابتـُعِثـْتُ أمَّـتـُنـَا إلا لتظـَـلَّ مَشغُولـَة بـِجِدِيَّـةِ الحَياةِ، وَارتيادِ المَعَالِي، وَقِيـَادَةِ الرَّكبِ، وَاكتسَابِ الفضَائل، فـَليَخلُ كـُـلٌّ مِنـَّا بنـَفسِهِ وَيَعلـُو في آفاقِ ذِكرَيَاتِهِ. هَلْ مَرَّ بأحَدِكـُم يَومٌ ذاقَ فيهِ طـَعمَ العِزَّةِ ؟ هَلْ دَنتْ فكانتْ قابَ قوسَين أو أدنـَى؟.

ليتَ شِعريْ هَلْ هَجَرَتـْنـَا أمْ تخـَلـَّينـَا عَنهَا؟ ألا تـرَونَ أنَّ العَذابَ يُصَبُّ عَلينـَا صَبًّا؟ أمَا ترَونَ أنَّ الفِتـَنَ تـُحيطُ بـِنـَا إحَاطـَةَ السِّوَار بالمِعصَم؟ ألا تـرَونَ أنَّ يومِنـَا أشَدُّ عَلينـَا مِنْ أمْسِنـَا؟ أمَا ترَونَ أنـَّا نـَفـقِدُ عَزيزا غائبا عَنـَّا مُنذ نـَيِّف وَسَبعينَ سَنة؟ لا طـَعمَ لِحَياتِنـَا وَلا لِوُجُودِنـَا بدُونِهِ، ألا تـرَونَ أنَّ الشـَّكوَى وَالتـَّشَكِي لا يَرُدَّانِ حَقـَّا وَلا يَرفعَانِ ضَيما، وَلا يَنكآنِ عَدُوًّا؟ ألا تـرَونَ أنـَّنا بحَاجَةٍ الى عَزمٍ وَارَادَةٍ، وَمُثابَرَةٍ لِتـَغيير هَذا الحَال؟

يَا أولي الألبَابِ، وَأولي النـُّهَى وَأولي الحِجَى! أفبَعدَ هذِهِ الأحوَال مِنْ مَزيدٍ؟ أوَلمْ يَأتِكمْ نـَبَأ أجْدَادِكم العِظام ِ كيفَ كانـُوا يَفتـَحُونَ الأرضَ، وَيُحَرِّرُونَ الشُّعوبَ، يُخرِجُونـَهُمْ مِنَ الظـُّـلـُمَاتِ إلى النـُّور ِ، وَمِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ رَبِّ العِبَادِ، وَمِنْ جَور ِ الأديَان ِإلى عَدل ِالإسلام، وَمِنْ ضِيق ِ الدُّنيا إلى سِعَةِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ. كـُـلُّ ذلكَ وَهُمْ يَحمِلونَ ألويَةَ الحَقِّ وَالعَدل ِ.

أيُّها الأحبَّة: كـُنـَّا نـَأتِي الأرضَ نـَنـْقـُصُهَا مِنْ أطرَافِـهَا غـَالِبينَ فاتِحينَ مُنتصِرينَ، وَعِندَمَا ذهَبَ سَنـَدُنا، ذهَبَتْ ريحُنـَا وَذهَبَتْ أرْضُنـَا وَضَاع جَاهُنـَا، وَزَالَ مِنَ الأرْض ِسُلطانـُـنـَا يَومَ أنْ أعْلِنَ نـَعْيُ الخِلافـَةِ لِلمُسلِمينَ، وَسَكتـُوا عَنْ ذلكَ وَلـَمْ يَبذلـُوا المُهَجَ وَالأروَاحَ فِي سَبيل ِإعَادَتِهَا لِلحَياةِ، يَومَ أنْ فـَقـَدَتْ أرْضُ المُسلمينَ حَارِسَهَا وَسيِّدَهَا وَحَامِيهَا، يَومَ أنْ بَكتْ أرْضُ الإسْلام ِ عَلى الأعِزَّةِ وَعَلى العِزَّةِ التي كانـَتْ ترْفـُلُ بـِهَا، يَومَ أنْ اسْوَدَّ أدِيمُ الأرْض ِ حُزنا ً، يَومَ أنْ دَاسَتْ سَنـَابـِكُ الأعْدَاءِ ثـَرَى أرْضِهَا الطـَّهُور ِ، يَومَ أنْ زَفـَرَتْ الأرضُ حَسَرَاتِهَا، آهٍ عَلى أيـَّام ِ الفتح ِ، آهٍ عَلى أيـَّام ِ الجهَادِ.

لقـَدْ ضَاعَتْ أرْضُنا يَومَ غـَرَزَ العَدُوُّ رَايَاتِهِ فِي إهَابِ أدِيمِهَا، يَومَ أنْ جَاسَ العَدُوُّ خِلالَ الدِّيار ِ، لمْ تـَعُدْ تـَعْرِفُ هَذِهِ الأمَّة ُ لـَونَ السَّمَاءِ وَالضِيَاءِ، يَومَهَا انكفـَأتِ الأرْضُ حَزينـَة ً تـُدَاعِبُ ذرَّاتـُهَا أجْسَادَ شُهدَاء ِ اللهِ في أحْشَائِهَا تهْمِسُ إليهِمْ وَتـُنـَاجيهِم وَتستـَنـْهِضُ رُجُولتـَهُم أن ِ استـَيقِظـُوا فقـَدْ قـَدِمَ الغُرَبَاءُ، هُبُّوا فقـَد ِ استأسَدَ الجُبَنـَاءُ، انتفِضُوا جَاهِدُوا فـَقـَدْ بَغـَى الأشقِيَاءُ، أغيثـُونِي فقـَدْ نـَكـَصَ عَلى أعقـَابـِهِمُ الأبنـَاءُ، أنجِدُونِي فقـَدْ غشيَنِي الأعْدَاءُ، أعِيدُوا لِي نُصْرَتِي فـَبـِغـَير ِ وَلِيٍّ أمْرِيْ مَالِي مِنْ هَناءٍ وَلا مِنْ رَجَاء ... أنـَا فِلسطينُ، أنـَا حِطـِّينُ، أنـَا اليَرمُوكُ، أنـَا عَينُ جَالوتَ، أنـَا أرْضُ

الشُّهَدَاءِ، وَأرْضُ الأنبيَاءِ، أنَا الأقصَى وَمَا حَولَهُ، أنَا مَوطِنُ الإسْرَاء، أنَا الأرْضُ قَدْ زُوِيَتْ لخَيرِ الأنبيَاءِ، فتبَارَكتُ، وَبَارَكتُ النُّجَبَاءَ الأصْفِيَاءَ... ...

أيُّها الأحبَّة: إنَّ أعداءَنا مَا نَامُوا حَيثُ نِمنَا، وَلا غَفِلُوا حِينَ غَفِلنَا عَن وَاجِبِنَا، ألَمْ يَأنِ لِلعُقَلاءِ مِنْ هَذِهِ الأمَّةِ أنْ يَرْجعُوا إلى رَبِّهِمْ، وَيَعترفُوا بخَطِيئَتِهِمْ وَيُمسِكُوا عَن اللَّجَاجَةِ فِي بَاطِلِهِمْ؟؟ أليسَ بحَسْبنا مَا نَحْنُ فيهِ، فَشَلٌ إثْرَ فَشَلٍ، وَلَطَمَاتٌ تِلْوَ لَطَمَاتٍ؟.

هَلْ حَصَدنَا غَيرَ الشَّوكَ الدَّامِي؟ كانَ عَلى هَذِهِ الأمَّةِ أنْ تغضَبَ لرَبِّها غضَبا مُنبعثاً مِنْ عَقيدَتِها وَإرَادَتِها؛ إنَّ غضَبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلى قُريشٍ يَومَ نَقَضَتْ عَهدَهَا قَدْ جَاء بالفتحِ العَظِيمِ، وَإنَّ غَضَبَ الرَّشيدِ قَدْ أدَّبَ عُلُوجَ الرُّوم، وَإنَّ غَضَبَ المُعتصِمِ للهِ قَدْ أحْرَقَ عَمُّوريَّة، وَمَا حَولَهَا وَذادَ عَنْ أعْرَاضِ المُسلمينَ!

أمَّا غَضَبُنا نَحْنُ فزَفَرَاتٌ وَانفِعَالاتٌ بلا عَمَلٍ وَلا إرَادَة، غَضَبُ الضَّعيفِ الكَلِيلِ أمَامَ مَاردٍ مُجرمٍ. فأيُّ غَضَبٍ يَكونُ لِلفْتِ أنظَارِ العَالم وَنحْنُ نُهمِلُ مُرَاقبَةَ اللهِ، وَقَدْ اتَّخذنَاهُ وَرَاءَنَا ظِهريًّا، وَأمِنَّا مَكرَهَ، فَلا يَأمَنُ مَكرَ اللهِ إلا القَومُ الخَاسِرُونَ.

لا أيُّها الأخوَة، مُعَادَلَتُنَا غَيرُ مُتَوازِنَةٍ وَطريقُنا مُلتوية عَرْجَاءُ، وَمَن ارتجَى مِنْ أعدَائِهِ أنْ يُنصِفُوهُ فَعَليهِ أنْ يَستقيلَ مِنَ الحَياةِ وَالتاريخِ وَالوُجُودِ، فمَنْ لَمْ يَنفعْهُ الحَقُّ ضَرَّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لمْ يَستقِمْ بِهِ الهُدَى جَارَ بِهِ الضَّلالُ.

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلامِ:

إنَّ أولويَّاتنا قدِ اختلَطَتْ عَلينَا، وَإنَّ قضَايَانَا المَصيريَّة قدِ اختلَّتْ مَوَازينُها، وَإنَّ مَوَاقِفَ الصِّدقِ فِي حَياتِنَا قَدْ تضَاءَلَتْ بَلِ

اندَثرَتْ، وَإنَّ مُثـُلـَنـَا العُليَا قدْ أبْهِمَتْ حَتى سَألَ سَائِلٌ: أأنتـُم أضْلَلتـُم هَؤلاءِ أمْ هُمْ ضَلـُّوا السَّبيل؟.

فنادَى بِهمْ مُشفِقٌ: ـ عَلى طَريق ٍأبْلـَجَ ـ يَا أغْرَاضَ المَنَايَا، يَا رَهَائِنَ المَوتِ، يَا مَنْ غرَّ ّتـْهُمْ الفِتـَنُ، وَحِيلَ بَينَـهُمْ وَبَينَ الحَقِّ مَسَافَاتٍ، بِحَق ٍ أقولُ لـَكـُم: هَلـُمَّ إليَّ فمَا نـَجَا مَنْ نـَجَا إلا ّ بمَعْرِفـَةِ نـَفسِهِ، وَمَا هَلكَ مَنْ هَلكَ إلا ّ مِنْ تـَحتِ يَدِهِ.

لا نـُرِيدُ أنْ نـَظلَّ نـَتـَمَسَكَ بِمَقـُولـَةِ عَبدِ المُطـَّلِبِ: ((إنَّ لِلبيتِ رَبا ً يَحمِيهِ)) صَحِيحٌ أنَّ اللهَ هُو رَبُّ كـُلِّ شَيْءٍ، وَمَليكـُهُ وَلكنـَّهُ انتدَبـَنا، وَابتعَثـَنـَا لنـَكـُونَ قـُوَّتـَهُ الضَّارِبَة وَسَيفـَهُ المَسلـُولَ المُسْلـَطَ وَعَذابَهُ النـَّازِلَ عَلى أعدَائِهِ، وَعِقابَهُ الأليمَ عَلى مَنْ عَصَى وَأبَى وَاستكبَرَ. فالقـُدسُ لنـَا وَفِلسطينُ لنـَا.. وَالعِرَاقُ لنـَا وَكـُلُّ بِلادِ المُسلمينَ لنـَا، فـَلا تـُميتـُوا عَلينـَا دِينـَنـَا هَدَاكـُمْ اللهُ، وَلا تـَقتـُلـُوا العِزَّةَ في نـُفوسِنـَا، وَاعْرفـُوا قدْرَ أنفـُسِكـُم وَقليلا ًمِنْ ذاتيةِ الاحتِرَام ِ وَاحتِرَام ِالذاتِ.

إخوةَ الإيمان ِ وَالإسلام ِ:

ارفـَعُوا رُؤوسَكـُمْ بأعْظـَم ِشَرَفٍ وَأعَلى وِسَام ٍ، وَاستـَعلـُوا بدِينِكـُمْ، وَاستـَعِزُّوا بعِزَّة رَبـِّكـُمْ، وَتـَيـَقـَّنـُوا مِنْ هَيمَنـَةِ دِينِكـُمْ عَلى الدُّنيـَا قريبا ً، وَعْدا ً لا يُخلـَفُ، وَإرَادَة ً لا تـُهْـزَمْ، وَصِدقا ً مُنجَزا ً إذا صَدَقتِ العَزَائِمُ. يَقولُ ﷺ:« كـَيفَ بكَ يَا ابنَ حَوَالـَة إذا نـَزَلـَتِ الخِلافـَة ُ الأرْضَ المُـقدَّسَة فهُنـَاكَ الزَّلازلُ وَالبلايَا وَالأمُورُ العِظامُ وَالسَّاعَة ُ يَومَئذٍ أقرَبُ مِنْ ْيَدِي هَذِهِ مِنْ رَأسِكَ».

إيَّاكـُمْ وَدُعَاة الذلـَّةِ، الفـُظـُوا مِنْ وُجُودِكـُم أهْلَ المَسكـَنـَةِ وَالصَّغـَار، وَالذينَ رَضُوا أنْ يَكـُونـُوا مَعَ الخَوَالِفِ مِنَ النـِّساءِ وَالصِّبيَان ِ وَأشبَاهِ الرِّجَال ِ، حَاوِلـُوا إنعَاشَهُمْ مَا وَسِعَكـُمْ جُهدُكـُمْ، وَبادِرُوا إلى النـَّجَاةِ فقدْ دَقـَّتْ سَاعَة ُ المُـفاصَـلـَة. ألا وَإنـَّكـُم فِي أيَّام ِ

أمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أجَلٌ، فمَنْ قصَّرَ في أمَلِهِ قبلَ حُضُورِ أجَلِهِ فقدْ خُيِّبَ عَمَلـُهُ. ألا فاعْمَلـُوا بالحَقِّ لِيوم ٍلا يُقضَى فيهِ إلا ّ َ بالحَقِّ تـُنزَلـُوا مَنَازِلَ الحَقِّ. لا تـُبَرِّرُوا عِبَادَ اللهِ استسلامَكـُمْ لِلنـَّكـَبَاتِ بجراحِكـُمُ الغَائِرَةِ، وَدِمَائِكـُمُ النـَّازِفـَةِ، وَتـَخـَلـِّي النـَّاس ِ عَنكـُمْ، وَتآمُرِ العَالـَم ِ كـُلـِّهِ عَليكـُم.لا تفعَلـُوا ذلكَ. فوَالذي بيدِهِ مَلكـُوتُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ لـَمِيتـَة ٌ في طـَاعَةِ اللهِ خـَيرٌ مِنْ حَيَاةٍ في مَعْصِيـَتِهِ.

إخوة َ الإيمان ِ وَالإسلام ِ:

لمَّ َا كانَ يَومُ اليَمَامَةِ في حُرُوبِ الرِّدَةِ، جُرِحَ أبُو عُـقيل ٍ الأنصَاريُ، وَرُمِيَ بـِسَهْم ٍ فوَقعَ قريبا ً مِنْ فـُؤادِهِ، فـَأخرَجَ السَّهمَ، وَقـَدْ وَهَنَ نِصفـُهُ الأيْسَرُ، فجُرَّ إلى الرَّحل ِ، فلمَّا حَمِيَ القِتـَالُ، وَانـهَزَمَ المُسلمُونَ أمَامَ جَيش ِمُسَيلِمَةَ، وَانحَازُوا إلى رِحَالِهِمْ، وَأبُوعُـقيل ٍوَاهِنٌ في جِرَاحِهِ، فبَينمَا هُمْ كذلكَ إذ نادَى مُنادٍ: يَا للأنصَار ِ، اللهَ، اللهَ، الكرَّة َعَلى عَدُوِّكـُم أخلِصُونـَا وَاخلـُصُوا إليـنـَا، فنـَهَضَ الأنصَارُ رَجُلا ً رَجُلا ً، يُمَيَّزُونَ.

يَقولُ ابنُ عُمَرَ: فنـَهَضَ أبُو عُـقـَيل ٍ يُرِيدُ أنْ يَقـُومَ لِلجهَادِ، فقلتُ: الى أينَ يَا أبَا عُـقيل؟ أفيكَ قتالٌ ؟ قالَ: قـَدْ نـَوَّهَ المُنادِي باسْمِي، قالَ عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ لـَهُ: إنَّ المُنادِي يَقولُ: الأنصَار وَليسَ الجَرْحَى. فقالَ: أنـَا رَجُلٌ مِنَ الأنصَارِ أجيبُهُ وَألـبِّي وَلـَو حَبْوا ً، فـَتـَحَزَّمَ أبُو عُـقيل ٍ وَأخَذ َ سَيفـَهُ بيَدِهِ مُجَرَّدا ً، ثـُمَّ جَعَل يُنادِي يَا مَعشَرَ الأنصَار ِ، كـَرَّة ً كيوم ِحُنين فاجتمَعُوا يقدُمُونَ المُسلمينَ وَاقتحَمُوا عَلى عَدوِّهِمُ الحَدِيقـَة َ، وَاختـَلطـَتِ السُّيوفُ بالأجسَادِ وَ قـُطِعَتْ يَدُ أبي عُـقيل ٍ المَجرُوحَة ُ مِنَ المِنكـَبِ فـَوَقـَعَ عَـلى الأرْض ِ، وَبهِ مِنَ الجرَاح ِ أربَعَة َ عَشَرَ جُرحا ً كـُـلّ ٌ وَاحِدٍ مِنها قاتلٌ، وَقـُـتِـلَ عَدُوُّ اللهِ مُسَيلِمَة.

قالَ ابنُ عُمَرَ: فوَقَعْتُ عَلى أبي عُقيلٍ وَهُوَ صَريعٌ بآخِرِ رَمَقٍ فقُلتُ: يَا أبَا عُقيل! قالَ لبَّيكَ ـ بلِسَان مُلتاثٍ ـ قالَ: لِمَن الدَّبْرَة؟ قُلتُ: أبشِرْ، قُتِلَ عَدُوُّ اللهِ مُسَيلمَة، فرَفَعَ إصبَعَهُ إلى السَّمَاءِ يَحْمَدُ اللهَ، وَالتحَقَ بركبِ الشُّهَدَاءِ.

هَاهُمْ آباؤنا وَأجْدَادُنا! فيَا مَعشَرَ المُنهَزِمِينَ أمَامَ عَدُوِّكُمْ، يَا مَعشَرَ المُبَرِّرينَ لِهَزائِمِكُمْ وَاستِسلامِكُمْ ألا تتَأسَّونَ بهؤلاءِ الجُرْحَى المُشرفينَ عَلى المَوتِ؟!

إنَّ مِنْ سُرَى الليلِ الدَّاجي تنبَثِقُ تبَاشيرُ الصَّباحِ. وَبَعدَ الغرُوبِ شُرُوقٌ، وَلِكُلِّ ليلٍ نهايةٌ، وَمَهْمَا طَالَ ظَلامُ الليلِ فلا بُدَّ مِنْ طُلُوعِ الفجرِ، وَشُرُوقِ الشَّمسِ التي تُبَدِّدُ الظَّلامَ وَتنشُرُ الدِّفءَ وَالضِّيَاءَ. ﴿إنَّ مَوعِدَهُمُ الصُّبحُ أليسَ الصُّبحُ بقَريبٍ﴾؟! ﴿إنَّهُمْ يَرَونَهُ بَعِيداً وَنرَاهُ قرِيباً﴾.

فهَلْ تَصْحُوا أمَّةُ الإسلام أمَّةُ الجِهَاد، فتَهُبَّ عَليهَا رِيَاحُ النَّصرِ وَتتَزيَّنُ لهَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟.

تفسير سورة التكاثر

قالَ اللهُ تعَالى في مُحكمِ كِتابِهِ، وَهُوَ أصْدَقُ القائِلينْ: ﴿ألهَاكُمُ التَّكاثُرُ ۞ حَتى زُرتُمُ المَقابِرَ ۞ كَلاَّ سَوفَ تعلمُونَ ۞ ثُمَّ كَلاَّ سَوفَ تعلمُونَ ۞ كَلاَّ لَو تعلمُونَ عِلمَ اليَقينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَينَ اليَقينِ ۞ ثمَّ لَتُسْألُنَّ يَومَئذٍ عَنِ النَّعيمِ﴾.

إخوةَ الإيمانِ والإسلامِ:

تعَالَوا بنَا نعيشُ وَإيَّاكُمْ مَعَ تفسيرِ سُورَةِ التَّكاثُرِ وَهِيَ سُورَةٌ مَكيَّةٌ تتحَدَّثُ عَنِ انشِغَالِ النَّاسِ بمُغريَاتِ الحَيَاةِ، وَتكَالُبِهِمْ عَلى جَمعِ حُطَامِ الدُّنيَا، حَتَّى يَقطَعَ المَوتُ عَليهِمْ مُتعتَهُمْ، وَيأتيهِمْ فجَأةً وَبَغتةً، فيَنقُلهُمْ مِنَ القُصُورِ إلى القبُورِ.

ألهَاكُـــمُ التَكَاثُـــرُ:

أيْ أشغلَكُمُ التكَاثرُ بالأموَالِ وَالبَنينَ وَألهَاكُمُ التَّشاغُلُ بالتجَارَةِ وَالمَعَاشِ حَتى غدَا مِقيَاسُ الأعمالِ عِندَكُمُ المَنفعَةَ، فمَا كانَ نافِعاً مَادِيًّا وَإنْ كانَ حَرَاماً فعَلتُمُوهُ، وَإنْ كانَ غيرَ نافِعٍ وَلو كانَ وَاجباً ترَكتُمُوهُ، وَلمْ يَعُدِ الحَلالُ وَالحَرَامُ هُو المِقيَاسُ لدَيكُمْ، فانصَرَفتُمْ إلى مَتاعِ الدُّنيا وَتكالبتُم عَلى جَمعِ المَالِ، وَغدَتْ حَيَاتُكُمْ ضَنْكاً لا يُطاقُ.

حتى زُرتمُ المُقَابِـــرَ:

أيْ حَتى جَاءَكُمُ المَوتُ، وَصِرتُم إلى بَيتِ الدُّودِ وَالظُّلمَةِ، وَبيتِ الضِّيقِ وَالوَحشةِ، إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي، فاتَّقوا اللهَ في حَيَاتِكُمْ وَاتقوا اللهَ في آخِرَتِكُمْ، فإنَّ العَاقلَ مَنْ عَمِلَ للدُّنيَا بِقدْرِ بَقائِهِ فِيهَا، وَعَمِلَ للآخِرَةِ بقدْرِ خُلودِهِ فيهَا، وَعَمِلَ لرَبِّهِ بِقدْرِ حَاجَتِهِ إليهِ، فالدُّنيَا إذا قِيسَتْ بالآخِرَةِ فهيَ كأنْ يَغمِسَ أحَدُنا إصْبَعَهُ في اليَمِّ أيْ في البَحْرِ فلْيَنظُرْ بِمَ تَرْجِعُ.

كَـلا سَوفَ تَعْلمُونَ:

{كلا} كلمَةُ زَجْرٍ وَتهديدٍ، {سَوفَ تعلمُونَ} عِبَارَةٌ تُفيدُ التَّهديدَ وَالوَعيدَ. مَعناهَا: كلا سَوفَ تعلمُونَ عَاقبةَ هذا التشاغُلِ بالدنيا عَنِ الآخِرَةِ، وَمَاذا تُغنِي الدنيا عَنِ الآخِرَةِ؟ فعُمرُ الدنيا قَصيرٌ، وَعَيشُهَا حَقيرٌ، وَإلى اللهِ المَصيرُ.

وَالدنيا دَارُ مَنْ لا دَارَ له، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ له، وَلهَا يَجمَعُ مَنْ لا عَقلَ لهُ. وَليسَتْ حَيَاة الانسانِ لِمُجَرَّدِ السَّعْيِ وَرَاءَ المَادَةِ وَالتَّهافُتِ عَلى جَمْعِ المَالِ.

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كانتِ الدُّنيا هَمَّهُ فرَّقَ اللهُ عَليهِ أمْرَهُ وَجَعَلَ فقرَهُ بَينَ عَينيهِ، وَلمْ يَنَلْ مِنهَا إلاّ مَا قسَمَ اللهُ لهُ. وَمَنْ كانتِ الآخرَةُ نِيَتهُ جَمَعَ اللهُ عَليهِ أمْرَهُ وَجَعَلَ غِناهُ فِي قلبِهِ وَأتتهُ الدُّنيا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

وَقالَ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ أصْبَحَ آمِناً في سِرْبِهِ، مُعَافىً في بَدَنِهِ، مَالِكاً قُوتَ يَومِهِ، فكأنَّمَا حِيزَتْ لهُ الدُّنيَا بِحَذافِيرهَا».

ثُمَّ كَلا سَوفَ تعلَمُونَ:

في هَذِهِ الآيةِ يُهَدِّدُنا رَبُّنا بأنَّنا سَوفَ نعلَمُ مَا يَنزِلُ بِنَا مِنَ العَذابِ فِي الآخِرَةِ بسَبَبِ تشَاغُلِنا بالمَعَاشِ وَالتِّجَارَةِ عَمَّا أوجَبَ اللهُ عَلينَا مِنَ الوَاجبَاتِ وَمَا فرَضَ عَلينَا مِنَ المَسؤوليَّاتِ. هَذا وَإنَّ مِنْ أعظَمِ المَسؤُولِيَّاتِ وَأوجَبِ الواجِبَاتِ التي فرَضَها اللهُ عَلينَا هُو إقَامَةُ شَرعِ اللهِ فِي الأرضِ وَتحكِيمِ كِتابِ اللهِ وَالحُكمِ بِمَا أنزَلَ اللهُ.

كلا لو تعلمونَ عِلمَ اليَقين:

أيْ لو تعلمُونَ اليَومَ مَا تعلمُونهُ غداً حِينَ يُنفخُ فِي الصُّورِ وَتخرُجُونَ مِنْ قبُورِكُمْ كيفَ يَكونُ حَشرُكمْ لو تعلمُونَ ذلكَ لشَغلَكُمْ عَنِ الدُّنيا مِثلمَا أنتمْ مَشغُولُونَ فيها عَنْ وَاجبَاتِكُمْ وَمَسؤولِيَّاتِكُمْ.

لتَرَوُنَّ الجَحيمَ:

ثمَّ لتَرَوُنَّهَا عَينَ اليَقِينِ:

أيْ لرَأيتمُ النَّارَ بأُمِّ أعيُنِكُمْ هَذا هُوَ اليَقِينُ الذي لَو أُتيحَ لَكُمْ أنْ ترَوهُ الآنَ لشَاهَدتمْ الجَحيمَ بأُمِّ أعيُنِكُم فاليقينُ هُوَ البَعثُ، هُوَ اليومُ الذي يَتيَقَّنُ فيهِ النَّاسُ مِنْ صِدقِ مَا أخبَرَ بهِ رُسُلُ اللهِ تبارَكَ وَتعَالى.

ثمَّ لتسألنَّ يَومئذٍ عن النعيم:

أيْ لا تظنُّوا أنَّ أنشِغَالَكُم بالدُّنيا، وَتهَافُتَكُمْ عَلى جَمعِ المَالِ يُعفيكُمْ مِنَ المَسؤوليَّاتِ المُلقاةِ عَلى عَاتقِكُم، فالدُّنيا حَلالُها حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذابٌ.

جَلسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَحَولَهُ الصَّحَابَة رِضوَانُ اللهِ عَليهِمْ أجمَعِينَ يُفسِّرُ لَهُم هَذِهِ السُّورَة، وَلمّا وَصَلَ إلى قَولِهِ تعَالى: ﴿ثمَّ لتسْأَلُنَّ يَومَئذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ هَبَّتْ عَليهِم نَسمَةُ رِيحٍ خَفيفَةٍ أنعَشَتهُم، فَقَالَ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: هَذا مِنَ النَّعِيمِ الذي سَتُسألُونَ عَنهُ يَومَ القِيَامَة.

فَهِمَ سَلفُنا الصَّالِحُ هَذِهِ المَعَانِي، وَنَظرُوا إلى الدُّنيَا فَصَغُرَتْ فِي أعْيُنِهِم فأهْمَلُوهَا، وَالتفَتُوا إلى آخِرَتِهِم فَطلبُوهَا، فَأينَ نَحنُ مِنْ هَذا؟.

تفسير سورة العصر

قالَ اللهُ تَعَالى في مُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَهُوَ أصْدَقُ القائلِينْ: ﴿وَالعَصْرِ ۞ إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إلاّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتوَاصَوا بالحَقِّ وَتوَاصَوا بالصَّبر﴾.

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلام :

يُخبِرُ رَبُّ العِزَّةِ جَلَّ فِي عُلاهُ بأنَّ الإنسَانَ أيْ {كُلُّ جِنسِ الإنسَانِ} فِي خُسْرٍ، وَلكنَّ اللهَ تبَارَكَ وَتعَالى أرَادَ أنْ لا يَترُكَ شَكاً لِمُتَشَكِّكٍ، أو إنكاراً لِمُنكِرٍ، فأكَّدَ هَذا الخَبَرَ كمَا يَقُولُ عُلمَاءُ العَرَبيَّةِ بأربَعةِ مُؤكِّدَاتٍ وَهِيَ:

- **أولاً :** الابتداء بالجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر.

- **ثانياً:** شفع الخبر بالقسم.
- **ثالثاً:** استخدام حرف التوكيد {إنَّ}.
- **رابعاً:** استخدام حرف التوكيد {اللام}. وإليكم البيان:

فبَعدَ القَسَمِ بالعصرِ ، بَدَأ سُبحَانـهُ وَتعَالى الحَديثَ عَنِ الإنسَانِ مُستخدِماً الجُملةَ الاسميَّةَ المكونة من المبتدأ والخبر، والتي إذا بُدِئَ بهَا فإنـَّهَا تحْمِل مَعنى التأكيدِ، فقالَ:﴿إنَّ الإنسَانَ لـَفي خـُسْرٍ﴾. وَهَذا هُوَ المُؤكـِّدُ الأوَّلُ.

وَاستـثـنى مِنْ بَني الإنسَانِ مَنْ يَتـَّصِفُ بأرْبَعِ صِفـَاتٍ، فهؤلاء لـَيسُوا مِنَ الخـَاسِرينَ، وَهَذِهِ الصِّـفـَاتُ هِيَ: الإيمَانُ، وَعَمَلُ الصَّالحَاتِ، وَالتـَّوَاصِي بالحَـقِّ، وَالتـَّوَاصِي بالصَّبرِ. ثـُمَّ شـَفـَعَ اللهُ سُبحَانـَهُ وَتعَالى خـَبَرَهُ بـِقـَسَمٍ، فأقسَمَ بالعَصْرِ فقال: ﴿وَالعَصْرِ ۞ إنَّ الإنسَانَ لفِي خـُسْرٍ﴾. وَهَذا هُوَ المُؤكـِّدُ الثـَّاني.

وَمِنْ حَقـِّهِ سُبحَانـَهُ أنْ يُـقسِمَ بمَا يَشاءُ، وَبمَنْ يَشاءُ، وَالعَصرُ كمَا يـَقـُولُ بَعضُ المُفسرينَ هُوَ الزَّمَنُ مُطلقاً، أو هُوَ وَقـتُ صَلاةِ العَصرِ، وَيـَقـُولُ بَعضُهُمْ : فِي هَذِهِ السُّورَةِ أقسَمَ اللهُ تعَالى بـِنـَفسِهِ، فـَقـَولـُهُ: ﴿وَالعَصر﴾ فيهِ إضمَارٌ أيْ كـَلِمَةٌ مَحذوفـَةٌ، وَعَلى هَذا يَكـُونُ مَعنى قـَولِهِ تعَالى: ﴿وَالعَصر﴾ أيْ أقـسِمُ برَبِّ العَصرِ. ثـُمَّ أكـَّدَ سُبحَانـَهُ وَتعَالى هَذا الخبَرَ بحَرفِ التـَّوكِيد{إنَّ} فِي قولِهِ: ﴿إنَّ الإنسان﴾. وَهَذا هُوَ المُؤكـِّدُ الثـَّالِثُ.

وَأكـَّدَهُ بَعدَ ذلكَ بحَرفِ التـَّوكِيدِ {اللام} في قوله:﴿ لفي خُسر﴾ وَهَذا هُوَ المُؤكـِّدُ الرَّابعُ.

ثـُمَّ بَدَأ سُبحَانـَهُ وَتعَالى بـِذِكرِ الصِّـفاتِ الأربَعِ التي تـُنجِّي الإنسانَ مِنَ الخـُسرَانِ:

الصفات التي تنجِّي الإنسان من الخسران

• **الصفة الأولى:** بَدَأَ أوَّلاً بذكرِ الإيمَانِ فقالَ: {إلاَّ الذينَ آمَنُوا} لأنَّ بَقيَّةَ الصِّفاتِ لا تُجدِي نفعاً بغَيرِ الإيمَانِ، فالإيمَانُ هُوَ الحَافِزُ عَلى بَقيَّةِ الأعمَالِ، وَهُوَ الذي يَقتَضِي القيَامَ بصَالحِ الأعمَالِ، وَيَقتَضِي التَّوَاصِي بالحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بالصَّبرِ. وَالإيمَان هُوَ التَّصديقُ الجَازمُ بوُجُودِ اللهِ، وَمَلائِكتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشرِّهِ.

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلام :

وَالإيمَانُ باللهِ تعَالى يَقتَضِي مِنكُمْ أيُّهَا المُؤمِنُونَ أنْ يَكونَ سَيرُكُمْ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، وَأنْ تَكُونَ جَميعُ أفعَالِكُمْ وَتَصَرُّفاتِكُمْ وفقاً لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ رَبُّ العَالمِينَ، وَكمَا بَيَّنَهُ اللهُ فِي كِتابِهِ، وَسُنَّةَ نَبيِّهِ ﷺ، فَهَل أنتمْ كذلِكَ؟ أمْ أنَّكُمْ كَمَنْ يَقُولُ بِلِسَانِهِ: أنا أؤمِنُ بِاللهِ وَمَلائِكتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشرِّهِ، وَأعْرِفُ أركَانَ الإسْلامِ الخَمسَةَ، وَهُوَ يَعمَلُ كَاتِباً أو مُحَاسِبَاً فِي البُنوكِ الرَّبَوِيَّةِ، وَشَركاتِ التَّأمِينِ الرَّأسمَالِيَّةِ، وَيُقدِّمُ الخَمرُ لِلمُقِيمِينَ فِي الفَنَادِقِ وَفِي المَطاعِمَ، وَفِي الحَفلاتِ الخَلاعِيَة، وَيَبيعُ بِطاقَاتِ اليَانَصيبِ، وَيُتاجِرُ بِالأسهُمِ وَبِالأورَاقِ المَاليَّةِ فِي البُورصَاتِ المَحَلِّيَةِ وَالدَّولِيَّةِ؟

فَالمُؤمِنُونَ حَقاً لا يَقومُونَ بِتِلكَ الأعمَالِ التِي تَجعَلُهُمْ فِي عِدَادِ الخَاسِرِينَ، بَل يَقومُونَ بِالأعمَال التِي تُرضِي رَبَّهُمْ، وَتجعَلُهُمْ مِنَ الفَائِزِينَ، اسمَعُوا مَا يَقولُ رَبُّ العِزَّةِ: ﴿قَالَتِ الأعرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أسْلمنَا وَلَمَّا يَدخُلِ الإيمَانُ فِي قُلوبِكُمْ﴾. وَيَقولُ: ﴿إنَّمَا المُؤمِنُونَ الذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأموَالِهِمْ وَأنفُسِهِمْ فِي سَبيلِ اللهِ أولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. وَيَقُولُ جَلَّ شَأنُهُ: ﴿إنَّمَا المُؤمِنُونَ الذينَ إذا ذكِرَ اللهُ

وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وَإذا تُلِيَتْ عَليهِمْ آياتُهُ زَادَتهُمْ إيمَاناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الذِينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزقنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أولئِكَ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقّاً لهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِهِمْ وَمَغفِرَةٌ وَرِزقٌ كَرِيمٌ﴾.

- **الصفة الثانية:** ثُمَّ ذكرَ الصِّفَةَ الثَّانِيَةَ وَهِيَ{عَمَلُ الصَّالِحَاتِ} مَقرُونَةً مَعَ الإيمَانِ فَقَالَ سبحانه وتَعَالى: ﴿إلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. فَالمُؤمِنُونَ حَقاً هُمُ الذِينَ يَعمَلوْنَ الصَّالِحَاتِ، أيْ يَظهَرُ إيمَانُهُمْ عَمَلاً عَلى الجَوَارحِ، حَيثُ تَحَوَّلَ الإيمَانُ عِندَهُمْ إلى مَفاهِيمَ قَيَّدَتْ سُلوكَهُمْ فِي الحَيَاةِ، فَهُمْ فِي جَمِيع أعمَالِهِمْ مُقيَّدُونَ بِالأحكَامِ الشَّرعِيَّةِ، لِذلِكَ نُلاحِظُ أنَّهُ حِينمَا يُذكَرُ المُؤمِنُونَ في القُرآنِ الكريمِ، تُذكَرُ مَعَهُمُ الأعمَالُ الصَّالِحَةُ، يَقولُ اللهُ تَعَالى: ﴿إنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّةِ﴾. وَيَقُولُ تَعَالى: ﴿إنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِردَوسِ نُزُلاً﴾. وَيَقولُ تَعَالى: ﴿وَالذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإيمَانِهِمْ﴾.

وَهَكَذا فَقَدْ وَرَدَتْ فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتابِ اللهِ آياتٌ تُقرِنُ الإيمَانَ بِالأعمَالِ الصَّالِحَةِ، فَالأعمَالُ الصَّالِحَةِ هِي الصِّفَةُ الثَّانِيَة بَعدَ الإيمَانِ تُنقِذُ مَنْ يَتَّصِفْ بِهَا مِنَ الخُسرَانِ.

- **الصفة الثالثة:** أمَّا الصِّفَةُ الثَّالِثةُ فَهيَ التَوَاصِي بِالحَقِّ، إنَّ عُقوبَةُ قَطعِ يَدِ السَّارِقِ حَقٌّ، وَإنَّ جَلْدَ الزَّانِي حَقٌّ، وَإنَّ جِهَادَ العَدُوِّ حَقٌّ، وَإنَّ مَنعَ التَّعَامُلَ بِالرِّبا حَقٌّ، وَإنَّ الاهتِمَامَ بِأمُورِ المُسلِمِينَ حَقٌّ، وَإنَّ فَصلَ مُجتَمَعِ النِّسَاءِ عَنْ مُجتَمَعِ الرِّجَالِ حَقٌّ.

وَإنَّ مَنعَ مُجَاهَدَةِ العَدُوِّ بَاطِلْ، وَإنَّ إبَاحَةِ التَّعَامُلِ بِالرِّبا بَاطِلْ، وَإنَّ إعطَاءَ رُخَصِ بَيعِ الخَمْرِ بَاطِلْ، وَإنَّ فَتحَ الخَمَّارَاتِ بَاطِلْ، وَإنَّ اللبَاسَ الكَاشِفَ للعَورَاتِ بَاطِلْ. فَكُلُّ أمْرٍ نَهَى اللهُ عَنهُ

فَفِعلـُهُ بَاطِلْ، وَكـُـلَّ أمرٍ أمَرَ اللهُ بـِهِ فـَفِعلـُهُ حَقّ، وَالرَّسُولُ ﷺ يَقولُ: «اعمَلـُوا بـِالحَقِّ لِيَومٍ لا يُقضَى فِيهِ إلا بـِالحَقِّ، تـُنزَلـُوا مَنـَازِلَ الحَقِّ، فـَمَنْ بَلـَغـَهُ شـَيءٌ مِنَ الحَقِّ فـَرَضِيَ فـَلـَهُ الرِّضَا، وإنَّ سَخِطَ فـَلـَهُ السُّخْطُ، وَمَن كـَرِهَ شَيئاً مِنَ الحَقِّ فـَقـَدْ كـَرِهَ اللهَ تـَعَالى، لأنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبـِينُ».

إنَّ مَنْ لـَمْ يَنفـَعُهُ الحَقُّ ضَـرَّهُ البَاطِـلُ، وَمَنْ لـَمْ يَستـَـقِمْ بـِـهِ الهُدَى جَارَ بـِهِ الضَّلالُ. فـَهَلْ تـَوَاصَيتـُمْ بـِالحَقِّ وَتـَوَاصَيتـُمْ بـِالصَّبرِ كمَا طـَلـَبَ رَبُّ العَالمِينَ؟

● **الصفة الرابعة:** وَأمَّا الصِّـفـَةُ الرَّابـِعَةُ وَهِيَ التـَّوَاصِي بـِالصَّبرِ، فـَمِنهَا الصَّبرُ عَلى الطـَّاعَاتِ كـَالصَّبرِ عَلى الصِّيامِ، وَالصَّبر عَلى مُجَاهَدَةِ العَدُوِّ، وَالصَّبرِ عَلى مَشَاقِّ الحَيَاةِ طـَـلبَاً لِلرِّزقِ، وَالصَّبر عَلى أدَاءِ العِبَادَاتِ.

وَمِنهَا الصَّبرُ عَنْ المَعَاصِي كـَصَبرِ المُحتـَاجِ عَنِ السَّرقـَةِ، وَصَبرِ الأعزَبِ عَنْ الزِّنا، وَصَبرِ المُقـَاتِلِ عَنِ الهَرَبِ مِنَ العَدُوِّ.

وَمِنهَا الصَّبرُ عَلى الابتِلاءِ عِندَ المُسَاوَمَةِ عَلى الإيمَانِ، يَقـُولُ اللهُ تـَعَالى : ﴿ألم ۞ أحَسِبَ النـَّاسُ أنْ يُترَكـُوا أنْ يَقولوا آمَنـَّا وَهُمْ لا يُفتـَنـُونَ ۞ وَلقدْ فـَتنـَّا الذِينَ مِنْ قـَبلِهِمْ فـَليَعلـَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقـُوا وَليَعلـَمَنَّ الكـَاذِبينَ﴾.

وَمِنهـَا الصَّبرُ عَلى الأذى الذِي يَلحَقُ بـِالمُؤمِنِ نـَتِيجَةَ حَملِهِ دَعوَةَ الحَقِّ، يَقـُولُ اللهُ تـَعَالى: ﴿وَمِنَ النـَّاسِ مَنْ يَشْرِي نـَفسَهُ ابتِغـَاءَ مَرضَاةِ اللهِ وَ اللهُ رَؤوفٌ بـِالعِبَادِ﴾.

هَذا الابتِلاءُ يَحتـَاجُ إلى الصَّبرِ، وَثـَوَابُ الصَّبرِ عَظِيمٌ، فـَالصَّابـِرُونَ عَلى البَلاءِ فِي سَبيلِ اللهِ يُحِبُّهُمُ اللهُ وَيُوَفـِّيهِمْ أجُورَهُمْ بـِغَيرِ حِسَابٍ، قـَالَ اللهُ تـَعَالى: ﴿إنـَّمَا يُوفـَّى الصَابـِرُونَ أجْرَهُمْ بـِغيرِ حِسَابٍ﴾ أي بـِغـَيرِ تـَقدِيرٍ، أو بـِدُونِ مُحَاسَبَةٍ أوْ مُلاحَقـَةٍ

قَالَ أنَسُ بنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تنْصَبُ المَوَازِينُ فيُؤتَى بِأهلِ الصَّدَقَةِ يَومَ القِيَامَةِ، فَيُوفُونَ أجُورَهُمْ بِالمِيزَانْ وَكذلِكَ أهلُ الصَّلاةِ وَالحَجِّ، وَيُؤتَى بِأهلِ البَلاءِ فَلا يُنصَبُ لَهُمْ مِيزانٌ وَلا يُنشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ وَيَصُبُّ عَليهِمُ الأجرَ بِغَيرِ حِسَابٍ». هَذِهِ الصِّفاتُ الأربَعُ، الإيمَانُ، وَعَمَلُ الصَّالِحَاتِ، وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبرِ، هِي التِي إذا عَمِلَ بِهَا الإنسَانُ أخرَجَتهُ مِنْ عِدَادِ الخَاسِرِينَ.

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلام:

اعلَمُوا أنَّ اللهَ أقسَمَ أنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَذِهِ الصِّفاتِ فَهُوَ فِي خُسرٍ، هَذِهِ الصِّفاتُ تَقتَضِي مِنكُمُ الأمْرُ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، فَهَلْ أمَرتُمْ بِالمَعرُوفِ وَنَهَيتُمْ عَنِ المُنكَرِ؟ وَهَذِهِ المُنكَرَاتُ قَدْ مَلأتِ الأرضَ سُهُولَهَا وَجِبَالَهَا، مُدُنَهَا وَقُرَاهَا، وَعَمَّتْ بَرَّهَا وَبَحرَهَا، وَدَخَلتْ مَسَاجِدَهَا، وَعَلَتْ مَنَابِرَهَا قَالَ تَعَالى:﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحرِ بِمَا كَسِبَتْ أيدِي النَّاسُ لِيُذِيقَهُمْ بَعضَ الذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾. وَسَيَظَلُّ الفَسَادُ مَاثِلاً فِي أسَرِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ وَمُجتَمَعَاتِهِمْ مَا دَامُوا عَلى هَذا الحَالِ لا يَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَلا يَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ.

أيُّهَا المُؤمِنُونَ اعمَلُوا لِلتَّغيرِ لَعَلَّ اللهُ يُغَيِّرُ عَليكُمْ، قَالَ ﷺ: «يَا مَعشَرَ المُهَاجِرِيْنَ: خِصَالُ خَمسٌ إذا ابتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ وَأعُوذُ بِاللهِ أنْ تُدركُوهُنَّ: لَمْ تَظهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَومٍ حَتى يُعلِنُوا بِهَا إلا فَشَا فِيهِمْ الأوجَاعُ التِي لَمْ تَكُنْ فِي أسلافِهِمْ، وَلَمْ يُنقِصُوا المِكيَالَ إلاَّ أخِذوا بالسِّنينَ وَشِدَّةِ المَؤونَةِ وَجُورِ السُّلطَانِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زكَاةَ أموَالِهِمْ إلاَّ مُنِعُوا القَطرَ، وَلولا البَهَائِمُ لَمْ يُمطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهدَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلاَّ سُلِّطَ

عَليهِمْ عَدُوٌّ مِنْ غَيرِهِمْ فيَأخُذَ بَعضَ مَا فِي أيدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحكُمْ أئمَّتهُم بِكِتابِ اللهِ إلاَّ جُعِلَ بَأسُهُمْ بَينَهُمْ».

وَلقدْ ابتُلِينَا بِهَذِهِ الخِصَالِ فهَا هِيَ الأمرَاضُ تُصِيبُ الكَثِيرينَ مِنَّا: السُّكَّرِيُّ، وَالجَلطَةُ، وَإغلاقُ الشَّرَايِينِ وَصَمَّامَاتِ القَلبِ، وَالسَّرَطَانُ وَغَيرُهَا، وَهَا هِيَ سِنُونُ القَحطِ، وَشِدَّةُ الفَقرِ وَالجُوعِ، وَالجُورِ وَالظُّلمِ، وَهَيمَنَةِ العَدُوِّ وَنَهبِهِ لِخيرَاتِ البِلادِ، وَبَأسُنَا الشَّدِيدُ بَينَنا كُلُّ ذلِكَ عِقابٌ لنَا لِسُكُوتِنَا عَنِ الفَسَادِ المُنتَشِرِ فِي مُجتَمَعَاتِنَا...!!

ألسْنَا الأمَّةَ التِي قَالَ اللهُ فِيهَا: ﴿ كُنتُمْ خَيرَ أمَّةٍ أخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللهِ﴾؟ فمَا بَالنَا تَخلَّينَا عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ التِي جَعَلَنَا اللهُ بِهَا خَيرَ أمَّةٍ أخرِجَتْ لِلنَاسِ، فَلَمْ نُنكِرْ مُنكَراً، وَلَمْ نَأمُرْ بِمَعرُوفٍ، فَغَدَونَا فِي عِدَادِ الأموَاتِ.

يَقُولُ ﷺ: فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ الذِي يَروِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «مَا مِنْ أهلِ قَريَةٍ، أو أهلُ بَيتٍ، أو رَجُلٍ بِبَادِيَةٍ، كَانُوا عَلى مَا أحِبُّ مِنْ طَاعَتِي، فَتَحَوَّلُوا عَنهَا إلى مَا أكرَهُ مِنْ مَعصِيَتِي، إلاَّ تَحَوَّلَتْ لهُمْ عَمَّا يُحِبُّونَ مِنْ رَحمَتِي، إلى مَا يَكرَهُونَ مِنْ عَذابِي، وَمَا مِنْ أهلِ قَريَةٍ، أو أهلِ بَيتٍ، أو رَجُلٍ بِبَادِيَةٍ، كَانُوا عَلى مَا أكرَهُ مِنْ مَعصِيَتِي، ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنهَا إلى مَا أحِبُّ مِنْ طَاعَتِي، إلاَّ تَحَوَّلَتْ لَهُمْ عَمَّا يَكرَهُونَ مِنْ عَذابِي، إلى مَا يُحِبُّونَ مِنْ رَحمَتِي».

ألا فاعمَلُوا لِتَغيِيرِ مَا فِي أنفُسِكُمْ بِمَا يُرضِي اللهَ، وَاعمَلُوا مَعَ المُخلِصِينَ مِنْ أجلِ إقَامَةِ دَولَةِ الخِلافَةِ، لِيُغَيِّرَ اللهُ عَليكُمْ، فَإنَّ رَبَّ العِزَّةِ يُؤكِّدُ لَكُمْ أنَّهُ لا يُغَيِّرُ عَليكُمْ حَتَّى تُغَيِّرُوا، يَقولُ تَعَالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأنفُسِهِمْ﴾.

ميِّتُ الأحياء
مَنْ يَرَى المُنكَرَ وَلا يُنكِرُهُ

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلام:

وَقَفَ حُذيفَةُ بنُ اليَمَانِ في النَّاس فقالَ: [أيُّهَا النَّاسُ، ألا تَسألُونِي؟ فقَدْ كانَ النَّاسُ يَسألُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ الخَيرِ، وَكُنتُ أسألُهُ عَنِ الشَّرِ مَخافةَ أنْ يُدركَنِي، ألا تَسألُونِي عَنْ مَيِّتِ الأحْيَاءِ؟ لقد بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدا عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بالحَقِّ، فدَعَا النَّاسَ مِنَ الضَّلالَةِ إلى الهُدَى، وَمِنَ الكُفرِ إلى الإيمَانِ، فاستجَابَ لهُ مَنِ استجَابَ، فحَيَا بالحَقِّ مَنْ كانَ مَيتا، وَمَاتَ بالبَاطِلِ مَنْ كانَ حَيَّا، ثمَّ ذهَبَتِ النُّبُوة، فكانَتْ خِلافة عَلى مِنهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثمَّ تكونُ مُلكا عَضُوضَا، يُصِيبُ الرَّعِيَّة فِيهَا ظُلمٌ وَعَسْفٌ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنكِرُ المُنكرَ بيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقلبِهِ، وَالحَقَّ قدِ استكمَلَ! وَمِنهُمْ مَنْ يُنكِرُهُ بِقلبِهِ وَلِسَانِهِ، كافا يَدَهُ، وَشُعبَة مِنَ الحَقِّ ترَكَ! وَمِنهُمْ مَنْ يُنكِرُهُ بِقلبِهِ، كافا يَدَهُ وَلِسَانَهُ، وَشُعبَتينِ مِنَ الحَقِّ ترَكَ! وَمِنهُمْ مَنْ لا يُنكِرُ المُنكرَ بِقلبِهِ، وَلا بِلِسَانِهِ، فذلكَ مَيِّتُ الأحْيَاءِ!].

إخوة الإيمانِ وَالإسلام:

الأصلُ في المُسلِمِ أنهُ حَامِلُ رِسَالَةٍ، يُوصِلُهَا كمَا أمَرَ اللهُ، وَالأمرُ بالمَعرُوفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنكرِ مِنْ صُلبِ الرِّسَالَةِ، فإذا ترَكَ المُسلِمُ النَّهيَ عَنِ المُنكرِ، صَارَ فِي عِدَادِ الأمْوَاتِ، وَلذلكَ قالُوا: (تحيَا الأمَمُ المَيِّتة بحَملِ الرِّسَالَة، وَتمُوتُ الأمَمُ الحَيَّة بتركِ حَملهَا)

فالأمَّة ُ التي لهَا رسَالة ٌ تعمَلُ بـِهَا، وَتحمِلـُهَا لِلنـَّاس ِ، وَتدْعُوهُمْ لهَا، فهيَ أمَّة ٌ حَيَّة ٌ مِعْطاة ٌ، وَالأمَّة ُ التي ليسَ لهَا رسَالة ٌ، أو أنَّ لهَا رسَالة، وَلكنـَّها لا تعمَلُ بهَا، وَلا تحمِلـُهَا للنـَّاس ِ، فهيَ أمَّة ٌ مَيِّتة ٌ، تأخـُذ ُ وَلا تـُعطي. وَلقد كانَ العَرَبُ قبلَ الإسلام ِ في عِدَادِ الأمواتِ، لا شَأنَ لهُمْ وَلا ذِكـْرَ، فابتعثهُمُ اللهُ برسَالـَةِ الإسلام ِ، فشَاعَ ذِكـْرُهُمْ، وَارتـَفعَ شَأنـُهُمْ، وَصَارُوا أمَّة ً تـُدركُ أنَّ وُجُودَهَا في الحَيَاةِ إنـَّمَا هُوَ مِنْ أجْل ِ الإسلام ِ، وَصَارَ زُعَمَاؤهَا، وَقادَتـُهَا الذينَ كانـُوا أهلا ً لِلسَّلبِ وَالنـَّهبِ، صَارُوا يُدركـُونَ أنَّ القيادَة َ وَالرِّيادَة َ، إنـَّمَا هُمَا مِنْ أجْل ِ إحقاق ِ الحَقِّ، وَنشر ِ العَدل ِ فِي أرْجَاء الأرض.

فلمَّا صَارَ هَذا هَدَفـَهُم وَغـَايَتـَهُمْ ارتـَفعُوا بأمَّتهمْ إلى مَركـَز ِ الصَّدَارَةِ بَينَ الشـُّعُوبِ وَالأمَم، فـَوَضَعُوا سُلطانَ هِرَقـلَ، وَأنزَلـُوا عَلـَمَ كِسرَى، وَرَفـَعـُوا رَايَـة لا إلـهَ إلا َّ الله، مُحَمَّـدٌ رَسُولُ اللهِ، فـَغـَدَوا أمَّة ً عَريقـَة ً، بَلـَغـَتْ أوجَ المَجدِ، وَتسلـَّمَتْ قِـيَادَة َ الشـُّعُوبِ، وَتـَرَبَّعَتْ فـَوقَ عُرُوش ِ الأمَم ِ، وَسَادَتِ العَالـَمَ رَدْحا ً مِنَ الزَّمَن ِ، وَنـَشَرَتِ العِلمَ في كـُلِّ بـِقـَاع ِ الأرض، وَأضَاءَتْ بدينهَا السُّبُـلَ، وَبـدَّدَتْ بـهِ ظـُلـُمَاتِ الجَهْـل ِ، وَأقـَامَتِ العَـدلَ عَلـى مَقاتِـل ِ الجَور ِ، وَشَادَتِ الحُرِّيـَّة َ عَلى مَذابح ِ العُبُودِيَّـةِ، وَذلكَ بفـَضل ِ رسَالتـِها التـي أنزلـَتْ عَلى نـَبيِّها مِنَ السَّمَاء، فكانـَتْ تشـريعا ً لهَـا، وَنظامـا ً شـاملا ً لحَيَاتِهـا، أحـرَزَتْ بتطبيقـهِ سَعَادَتـَها، وَأثـْرَتْ في عَيشِهَا، دُونَ أنْ يَحْسُدَ فـَقيرُهَا غنيَّهَا، وَدُونَ أنْ يَسـتغلَّ قويُّهَا ضَعيفـَهَا، وَأصبَحَتْ مَحَط َّ أنظـَار ِ العَالـَم ِ، يَؤُمُّهَا طـُلابُ العِلم ِ مِنْ كـُلِّ مَكان ٍ، وَغـَدَتْ مُدُنـُهَا بـُؤرَة َ التـِّجَارَةِ العَالميَّـةِ، فـَكانَ العِـزُّ وَالمَجْدُ وَالثـَّرَاءُ وَالرَّخـَاءُ.

تاريخُهَا حَافِلٌ بالانتصَارَاتِ، وَثغُورُهَا مُحَصَّنَةٌ بالمُرَابطينَ وَالمُجَاهِدين، وَرسَالتُهَا عَامَّةٌ لِلعَالمين، مَا فتَحَتْ بلادا إلا انصَهَرَ أهلُهَا فِي بُوتَقَةِ حَضَارَتِهَا وَاعتَنقُوا عَقيدَتَهَا، وَتلَسَّنُوا بلُغَتِهَا، وَغَدَوا جُزءا مِنهَا، وَظلتْ كذلكَ طوالَ ثلاثةَ عَشَرَ قَرنا وَيَزيدُ، كُلُّ ذلكَ بفضل حَملِهَا رسَالةَ الإسلام. فلمَّا تخلتْ أمَّتُنَا عَنْ حَمل رسَالة الإسلام، وَتوَقّفتْ عَن الجهَادِ الذي هُوَ طرِيقُ حَملِهَا وَنشرهَا، أخَذتْ تَنحَدِرُ عَن المُستوَى اللائِق بهَا، فتغَلَّبَ عَليهَا أعداؤهَا، فقسَّمُوهَا إلى قَومِيَّاتٍ مُتعَدِّدَةٍ، عَرَبيَّةٍ وَتُركيَّةٍ وَفَارسيَّةٍ... وَقسَّمُوها إلى وَطنيَّاتٍ هزيلةٍ، فِلَسطينيَّةٍ وَلبُنانيَّةٍ وَمِصْريَّةٍ... فعُمِّقَتْ لدَى المُسلمينَ الإقليميَّة الضَّيِّقَةُ، فصَارَ الفِلَسطينيُّ يَتَعَصَّبُ لِفِلَسطينيَّتِهِ، وَالأردنيُّ لإرْدُنيَّتِهِ، وَالسُّعُودِيُّ لِسُعُودِيَّتِهِ... وَهَكذا دَوَاليكَ.

وَتعَاوَنَ الكفَّارُ وَعُمَلاؤُهُمْ عَلى تضليل الشعُوبِ الإسلاميَّةِ، بكُلِّ وَسَائلِ إعلامِهِمْ، وَمَناهِج التَّدريس فِي جَامِعَاتِهِمْ وَكُليَّاتهِمْ، وَبالمُسَلسَلاتِ التَّلفَازِيَّةِ، وَبالجَرائِدِ وَالمَجَلاتِ، وَبالخُطَبِ وَالمُحَاضَرَاتِ، وَاستطاعُوا بوَسَائل الإعلام هَذِهِ أنْ يُصَوِّرُوا لِشُعُوبهِمُ الرَّجُلَ النَّذلَ بَطلا، وَالقائِدَ المُنهزِمَ مُنتصِرا. وَنتيجَةً لهَذا التَّضليل صَارَ النَّاسُ يُدَافِعُونَ عَن المُجرمينَ، وَيَتسَابَقُونَ في طَاعَةِ الظَّالِمينَ، وَيُقيمُونَ أقوَاسَ النَّصر لِلمُنهَزِمِينَ، فاستوَى عِندَهُمُ العَسيرُ وَاليَسيرُ، وَحَلَّتْ بهِمُ السَّنوَاتُ الخَدَّاعَاتُ التي أخبَرَنا عَنهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فقالَ « سَيَأتي عَلى النَّاس فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَنوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يَصَدَّقُ فيهَا الكاذِبُ، وَيُكذبُ فيهَا الصَّادقُ، وَيُؤتمَنُ فيهَا الخَائِنُ، وَيُخوَّنُ فيهَا الأمينُ، وَيَنطِقُ فيهَا الرُّويبضَةُ، قيلَ: وَمَا الرُّوَيبضَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قالَ: الرَّجُلُ التَّـافِـهُ الـذي يَتحدَّثُ فـي أمرِ العَامَّـةِ ». وَلـئِن اسـتـَمَرَّ هَذا الحَالُ، فَسَتـُمْحَى هَذِهِ الأمَّـة ـ لا قدَّرَ اللهُ ـ مِنَ الوُجُـودِ، فـَقـَدْ أوصَـلـُوهَا إلـى نـهَايَـةِ الطـَّريق، وَوَضَـعُوهَا عَـلـى حَافـةِ الهَاويَـةِ، وَصَارَتْ عَلـى وَشـَكِ الزَّوَال.

إخوة الإيمانِ وَالإسلام:

إنَّ أمَّـتـَنـَـا هِـيَ خَـيرُ أمـَّةٍ أخرجَـتْ للنـَّاس! فحَـرَامٌ أنْ يَـلحَـقـَهَا الفنـَـاءُ، وَإجـرَامٌ أنْ يُدركـَـهَا العفَـاءُ. إنـَّهَا الأمـَّة التـي نـَشَرَتِ الهُدَى فـي العَالـَم، وَحَقـَّـقتِ العَدلَ بَـينَ البـَشَر، هَـذِهِ الأمـَّة هِيَ اليَومَ عَلـى وَشـَكِ الفنَـاء، وَالكـُفرُ كـُلـُّـهُ يَحُـثُّ، وَيَغـُـذُّ الخـُطـَا للإجهَازِ عَليهَا الإجهَازَ الأخيرَ، فهَـلْ يَترُكـُهَا أبناؤُهَا تـَفنى كمَا فـَنيَتْ قبلـَهَا الأمَمُ؟!

إنَّ العَمَـلَ لإنقـاذِ هَـذِهِ الأمـَّةِ، لا يُعَادِلـُـهُ عَمَـلٌ، وَإنقـَاذهَا يَكـُـونُ بوَحدَتِهَا، وَعَودَتِهَا إلى إسلامهَا، وَحَملِـهَا رسَالتـَهَا، وَبغـَير ذلكَ تظلُّ حُدودُ الإسلامِ مُعَطـَّلة، وَتظلُّ قـُوَى المُسلمينَ مُبعثـَرَة، وَيَظلُّ العَدُوُّ مُهيمنا وَمُسَيطرا بَـل يظـلُّ الإسلامُ مُعطـَّلا فـي الحَيَـاةِ، وَتظلُّ الأمَّة كقطيع مِنَ الغـَنـَم، ضَلـَّتْ بهمُ السُّبـُلُ، وَتـفرَّقتْ بهمُ الطـُّرُقُ، فأوصَـلتهُمْ إلـى لـُجَجِ الرِّمَـال، مَعَهُمْ أطفـالهُمْ، وَقـَدْ أعيَـاهُمْ طـُولُ المَسير، يُـفاجَأونَ عِندَ كـُلِّ مُنعَطفٍ مِنَ الأرض، بقطيعٍ مِنَ الذئابِ تنهَشُ مِنْ لحْمِهمْ، وَتلِغُ في دِمَائهمْ، كمَا هُوَ حَادِثٌ فِي العِـرَاقِ وَأفغانِستانَ، وَمِنْ قبلُ فِـي البُوسنةِ وَالهرسِكِ، وَفـي كـُوسُوفـُو. فـإلى العَمَلِ الجَادِّ نـَدعُوكـُمْ أيُّهَا المُسلمونَ لإنقـَاذِ أمَّـتِكـُمْ مِنَ الـهَلاكِ وَمِنَ الفنـَاءِ.

عَجِـبتُ لمـن يُبتـلى بأربَعٍ
كيـفَ يَغفـلُ عـَن أربَـع؟

عـَنْ جَعفـَر بن ِ مُحَمَّـد قالَ: عَجِبتُ لِمَنُ يُبتَـلـَى بـأربَعٍ كيفَ يَغفـَلُ عـَنْ أربَع:

- **أولاً :** عَجبْتُ لِمَن يُبتـلـَى بـالهَمِّ كيفَ لا يَقـُولُ: لا إلـهَ إلاّ أنـتَ سُبحَانـَكَ إنـِّي كـُنتُ مِـنَ الظـَّالِمينَ، لأنَّ اللهَ تعَـالى يَقـُولُ: ﴿وَذا النـُّون ِ إذ ذهَـبَ مُغـَاضِبا ً فظـَنَّ أنْ لـَنْ نـَقدِرَ عَـليهِ فنـَادَى فـي الظـُّـلـُمَاتِ أنْ لا إلهَ إلاّ أنتَ سُبحَانكَ إنـِّي كـُنتُ مِنَ الظـَّالِمينَ ۞ فاستـَجَبْـنـَا لـَهُ وَنـَجَّينـَاهُ مِنَ الغـَمِّ وَكذلكَ نـُنـْجـِي المُؤمنينَ﴾.
- **ثانياً :** وَعَجبْتُ لِمَن يَخافُ النـَّاسَ كيفَ لا يَقـُولُ: حَسبيَ اللهُ وَنِعمَ الوَكيلُ، لأنَّ اللهَ تعَـالى يَقـُولُ: ﴿الـذينَ قـالَ لـَهُمُ النـَّاسُ إنَّ النـَّاسَ قـَدْ جَمَعُوا لكـُمْ فاخشَوهُمْ فـَزَادَهُمْ إيمَانـا ً وَقالـُوا حَسبُنا اللهُ وَنِعمَ الوَكيلُ ۞ فانقلـَبُوا بنعمَـةٍ مِنَ اللهِ وَفضل ٍ لـَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُوءٌ وَاتـَّبَـعُوا رضوَانَ اللهِ وَاللهُ ذو فـَضل ٍ عَظيم ٍ﴾.
- **ثالثاً :** وَعَجبْتُ لِمَنْ خـَافَ شيئا ً كيفَ لا يـَقـُولُ: وَأفـَوِّضُ أمـري إلـَى اللهِ، لأنَّ اللهَ تعَـالى يَقـُولُ: ﴿فَسَتـَذكـُرُونَ مَـا أقـُولُ لـَكـُمْ وَأفـَوِّضُ أمري إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصيرٌ بالعِبَادِ ۞ فوَقـَاهُ اللهُ سَيـِّئاتِ مَا مَكـَرُوا وَحَاقَ بآل ِ فِرْعَـونَ سُوءُ العَذابِ﴾.
- **رابعاً :** وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَرغـَبُ في الجَنـَّةِ كيفَ لا يـَقـُولُ: مَا شَـاءَ اللهُ لا قـُوَّةَ إلاّ بـاللهِ، لأنَّ اللهَ تعَـالى يـَقـُولُ: ﴿وَلـولا إذ دَخلـْتَ جَـنـَّتـَكَ قـُلتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قـُوَّةَ إلاّ باللهِ إنْ تـَرَن ِ أنـَا أقـَلَّ مِنكَ مَـالا ً وَوَلـَدا ً ۞ فعَسَـى رَبِّـي أنْ يـُؤتِـيـَن ِ خـَيرا ً مِـنْ جـَنـَّتـِكَ وَيُرسِلَ عَـليهَا حُسبَانـَا مِنَ السَّمَاء فـَتـُصبحَ صَعيدا ً زلقا ً﴾.

ويــحٌ لهـــذه الأمَّـــة
مَـاذا يَلقَـى فيها مَــنْ أطَـاعَ اللـــهَ تعالى

رَوَى ابنُ وَضَّاحٍ في البدَع منْ طريقِ عَطيَّةَ عَنِ الوَليدِ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ عَليٍّ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« وَيحٌ لِهذِهِ الأمَّةِ، مَاذا يَلقَـى فيهَا مَنْ أطَـاعَ اللهَ، كيفَ يُكذبُونـَهُ وَيَضربُونـَهُ أنـَّهُ أطَـاعَ اللهَ، مِـنْ أجْـلِ أنـَّهُمْ مَا أطَـاعُـوا اللهَ».

قالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: يَا رَسُولَ اللهِ، النـَّاسُ يَومَئذٍ عَلى الإسلام؟ قالَ: نـَعَمْ يَاعُمَر. قالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ، النـَّاسُ يَومَئذٍ عَلى الإسلام؟ قالَ: نـَعَمْ يَاعُمَر. قالَ عُمَرُ: وَلِـمَ يُبغضُونَ مَنْ أمَرَهُمْ بطَـاعَةِ اللهِ ؟ قالَ ﷺ: «ترَكَ النـَّاسُ الطـَّريقَ، وَتزيـَّنَ الرَّجُـلُ مِنهُمْ بزينـَةِ المَرأةِ لزَوجِـهَا، وَتبرَّجَ النـِّسَاءُ، زيُّهُمْ زيُّ المُلوكِ الجَبَابرَةِ، يَسمَـنـُونَ كالنـِّسَاء، فإذا تـَكـَلـَّمَ وَلـيٌّ مِن أولياء اللهِ، وَأمَرَهُمْ بطَـاعَةِ اللهِ، قيلَ لـَهُ: أنتَ قرينُ الشـَّيطَـانِ، وَرَأسُ الضـَّلالـَةِ، تـُكذبُ بالكـُتـُبِ، وَتـُحَرِّمُ زينـَةَ اللهِ التي أخرَجَ لِعبَادِهِ، وَالطـَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزقِ، وَتـَأوَّلـُوا كِتابَ اللهِ عَلى غيرِ تـَأويلِـهِ، وَاستـَذلـُّوا أوليَاءَ اللهِ».

وصية الرسول ﷺ لأبي ذر الغفـــاري رضي الله عنه

يَقـُولُ أبـُو ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَـنهُ: أوصَانـِي حَبيبي بأربَعِ كـَلِمَاتٍ هُنَّ أحَبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيـا وَمَا فيهَا، قالَ: « يَا أبَـا ذرٍّ، جَـدِّدِ السـَّفينـَةَ فإنَّ البَحرَ عَميقٌ، وَخـُذِ الزَّادَ فإنَّ السـَّفـَرَ طـَويلٌ، وَخـَفـِّفِ الحِمْـلَ فإنَّ العَـقـَبَـةَ كـَؤودٌ، وَأخلِصِ العَمَـلَ فإنَّ النـَّاقِـدَ بَصيرٌ».

وصية أبي ذر الغفـــاري رضي الله عنه لأصحابه رضي الله عنهم

نادَى أبُو ذرٍّ أصحَابَهُ وَقالَ: « أرَأيتـُم لـَو أنَّ أحَدَكـُمْ أرَادَ سَفراً، ألا يـَتـَّخِذُ مِنَ الزَّادِ مَا يُصلِحُهُ وَيُبَـلـِّغـُهُ ؟ قالـُوا: بَـلى، فـَقالَ: فـَسَـفـَرُ يَومِ القيامَةِ أبعَـدُ مِمَّا تـَرَونَ، خـُذوا مَا يُصلِحُـكـُمْ. قـَالـُوا: مَاذا

؟ قالَ: صَلـُّوا فِي ظـُلـمَةِ اللـَّيلِ لوَحشَةِ القـُبُـور، وَصُومُوا في النـَّهَارِ لِحَرِّ يَومِ النـُّشُور، وَتـَصَدَّقـُوا مَخـَافـَةَ يَومٍ عَسِير. كلمَةُ خـَيرٍ يَقـُولـُهَا أخـُوكـُمْ، وَكـَلِمَةُ سُوءٍ يَسكـُتُ عَـنهَا لِوُقـُوفِ ذلكَ اليَومِ العَظِيمِ. عَجبْتُ لِمَنْ يَرَى الدُّنيـا وَتـَقـَلـُّبهَا بأهلِـهَا ثـُمَّ يَطمَئنُّ لهَا، عَجبْتُ لِمَنْ أيقـَنَ بالحِسَابِ غـَداً ثـُمَّ لمْ يَسْعَ لِلنـَّجَاةِ، عَليكَ بتلاوَةِ القـُرآنِ، فإنـَّهُ نـُورٌ لكَ في الأرضِ، وَذخرٌ لكَ في السَّمَاء، وَعَليكَ بالصَّمْتِ إلاَّ لخـَيرٍ، وَصِلْ ذي قـُربَاكَ وَإنْ قـَطـَعُوكَ، وَلا تـَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئاً وَلـَو أنْ تـَلقـَى أخـَاكَ بوَجهٍ طـَلـْقٍ».

أين يتـوجه البلاء و الرخاء ؟

أخـرَجَ الدَّيلـَمِيُّ عَنِ أنـَسٍ قـَالَ: قـَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فيمَا يَرويـهِ عَنْ رَبـِّهِ: «يَقـُولُ البَلاءُ كـُلَّ يَومٍ إلـى أينَ أتـَوَجَّهُ ؟ فـَيَقـُولُ اللهُ عزَّ وَجَـلَّ: إلـى أحِبـَّائِي وَأولـي طاعَـتِي، أبلـُوا بكَ أخبارَهُمْ، وَأختـَبـِرُ صَبرَهُـمْ، وَأمَحِّـصُ بـكَ ذنـُوبَهُمْ، وَأرفـَعُ بـكَ دَرَجَاتِـهِمْ. وَيَقـُولُ الرَّخـَاءُ كـُلَّ يَومٍ إلـى أينَ أتـَوَجـَّهُ ؟ فيَقـُولُ اللهُ عَزَّ وَجَـلَّ: إلـى أعدَائـِي، وَأهـلِ مَعصِيَتـِي، أزيـدُ بـكَ طـُغيَانـَهُمْ، وَأضَـاعِفُ بـكَ ذنـُوبَهُمْ، وَأعَجـِّلُ بكَ لـَهُمْ، وَأكثِـرُ بكَ عَـلى غـَفلـَتِهِمْ».

ثمانية مسائل تعلمها شفيق البلخي من حاتم

رُويَ عَنْ شَفيقٍ البَلخِيِّ أنـَّهُ قالَ لحَاتِمٍ قـَدْ صَحِبتـَنِي مُدَّة فمَاذا تعلـَّمتَ مِنِّي؟ قالَ حَاتِمٌ ثمَانيَةَ مَسَائِلَ فتقـَالـَّهَا البـَلخِيُّ، ثـُمَّ قالَ هَاتِـهَا. فقالَ حَاتِمٌ:

- أمَّا الأولى فإنـِّي نـَظـَرْتُ إلى الخـَلقِ فإذا كـُلُّ شَخصٍ لـَهُ مَحْبُوبٌ فإذا وَصَلَ القـَبرَ فارَقـَهُ مَحبُوبُه، فجَعَلتُ مَحبُوبي حَسَنـَاتِي لِتكـُونَ مَعِي فِي القـَبرِ.

- وَأمَّا الثانيةُ فإنِّي نَظَرْتُ فِي قَولِ اللهِ تعَالى:﴿وَنَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوَى﴾. فأجْهَدْتُهَا فِي دَفعِ الهَوَى حَتَّى استَقَرَّتْ عَلى طاعَةِ اللهِ.
- وَأمَّا الثالثةُ فإنِّي رَأيتُ أنَّ كُلَّ مَنْ مَعَهُ شَيءٌ لَهُ قِيمَةٌ عِندَهُ يَحفَظُهُ، ثمَّ نَظَرْتُ فِي قَولِهِ سُبحَانَهُ وَتعَالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاق﴾. فكُلَّمَا وَقَعَ مَعِي شَيءٌ لَهُ قِيمَةٌ وَجَّهتُهُ إليهِ تعَالى لِيَبقَى لِي عِندَهُ.
- وَأمَّا الرَّابعَةُ فإنِّي رَأيتُ النَّاسَ يُرجَعُونَ إلى المَالِ وَالحَسَبِ وَالشَّرَفِ وَليسَتْ بشَيءٍ، فنَظَرْتُ فِي قَولِهِ تعَالى:﴿ إنَّ أكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتقاكُمْ﴾. فعَمِلْتُ فِي التَّقوَى لأكونَ عِندَ اللهِ كريماً.
- وَأمَّا الخَامِسَةُ فإنِّي رَأيتُ النَّاسَ يَتحَاسَدُونَ فنَظَرْتُ فِي قولِهِ تعَالى: ﴿نَحْنُ قسَمنَا بَينَهُمْ مَعيشتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُنيَا﴾. فترَكْتُ الحَسَدَ.
- وَأمَّا السَّادِسَةُ فإنِّي رَأيتُ النَّاسَ يَتعَادَونَ فنَظَرْتُ فِي قولِ اللهِ تعَالى: ﴿ إنَّ الشَّيطانَ لكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذوهُ عَدُوَّاً﴾. فترَكْتُ عَدَاوتَهُمْ وَاتَّخذتُ الشَّيطانَ وَحْدَهُ عَدُوَّاً.
- وَأمَّا السَّابعَةُ فإنِّي رَأيتُ النَّاسَ يُذلُّونَ أنفُسَهُمْ فِي طَلَبِ الرِّزقِ فنَظَرْتُ فِي قولِ اللهِ تعَالى:﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرضِ إلاَّ عَلى اللهِ رزقُهَا﴾. فاشتغَلتُ بِمَا لَهُ عَلَيَّ وَترَكتُ مَا لِي عِندَهُ.
- وَأمَّا الثامنةُ فإنِّي رَأيتُ النَّاسَ مُتَّكِلِينَ عَلى تجَارَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَصِحَّةِ أبَدَانِهِمْ فتَوَكَّلتُ عَلى اللهِ وَحْدَهُ لِقَولِهِ تعَالى:﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فهُوَ حَسْبُهُ﴾.

مقياس الأعمال عند المسلم
هو الحلال والحرام، وليس المنفعة

إخوةَ الإيمانِ وَالإسلام:

خطبَ عليُ بنُ أبي طالب رضيَ اللهُ تعَالى عنهُ فقالَ:

[أمَّا بعدُ: فإن الدنيا قد أدبرتْ، وآذنتْ بوَدَاع، وَإنَّ الآخرَة قدْ أقبلتْ، وَأشرَفتْ باطِّلاع، وإنَّ المضمَارَ اليومَ، وَغدًا السبَاقُ، ألا وَإنكم في دَارعمَلٍ مِنْ وَرَائها أجلٌ، فمَن قصَّرَ في أيامِ أمَلِهِ قبلَ حُضُورِ أجلهِ فقدْ خُيِّبَ عَملـُهُ، ألا فاعمَلـُوا للهِ في الرَّغبةِ، كمَا تعملونَ لهُ في الرَّهبةِ، واعمَلوا بالحَق ليومٍ لا يُقضى فيهِ إلاَّ بالحق، تـُنزَلـُوا مَنازلَ الحق، ألا وَإنكمْ أمرتـُم بالظعنِ أي بالسفر، وَدُللتمْ على الزادِ، وَإنَّ خيرَ الزادِ التقوَى. ألا وَإنكمْ اليومَ في دَارِ عمَلٍ وَلا حِسَاب، وَغداً تكونونَ في دَارِ حِسَابٍ وَلا عَمَل، فزنـُوا أعمَالكم قبلَ أنْ توزَنَ عليكم....] وَهنا يَردُ الآنَ سُؤالان:

أمَّـا السُّـؤالُ الأولُ فهُوَ: مَتى نزنُ أعمَالـَنا، أنزنـُها قبلَ القيَامِ بهَا أمْ نـَزنـُهَا بعدَ القيامِ بهَا؟

وَأمَّا السُّؤالُ الثاني فهُوَ: كيفَ نزنُ أعمَالـَنا؟ وَبأيةِ وحدَةِ أوزانٍ نزنـُها، أبالإوقيةِ، أمْ بالرِّطلِ، أمْ بالكيلو غرَام؟

وَالجَوابُ عَنِ السُّؤال الأول هُوَ: أنْ نزنَ أعمَالـَنا قبلَ القيامِ بهَا لِنعرفَ نتائجَهَا مُسبقاً، فقد كانَ أصحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسألونـَهُ قبلَ أنْ يَقومَ الوَاحِدُ مِنهُم بالعَمَلِ. فقد جَاءَ أحدُهُم وَقال: يَا رَسُولَ اللهِ أتأذنُ لي بالاختصاء؟ فقالَ ﷺ: «ليسَ مِنـَّا مَنْ خـَصَى أو اختـَصَى». فعَرَفَ الرَّجلُ أنَّ الاختصَاءَ حَرَامٌ فامتنعَ عَنهُ. وَجَاءَتِ امرَأةٌ وَقالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ وَالدِي مَاتَ، وَعَليهِ صِيَامُ نـَذرٍ، أأصُومُ عَنهُ؟ قالَ: نـَعَمْ، فعَرَفتِ المَرأةُ أنَّ صَومَ القضَاء حَلالٌ، فصَامَتْ عَن أبيهَا.

وَالجَوَابُ عَنِ السُّؤالِ الثاني أنَّ وحدَةَ الأوزَانِ التي نزنُ بهَا الأفعَال ليسَتْ هِيَ الإوقية أو الرِّطل أو الكيلو غرَام، وَإنمَا هِيَ التي فُهمَتْ مِنَ الحَديثِ الأولِ وَهِيَ الحَرَامُ، وَمِنَ الحَديثِ الثاني وَهِيَ الحَلالُ.

وإذاً فمقياسُ الأعمَالِ عِندَ المُسلم هُو الحَلالُ وَالحَرَامُ، فإنْ كانَ الفعلُ حلالاً فعلناهُ، وَإنْ كانَ حَرَاماً تجنبناهُ، وَالحَلالُ وَالحَرَامُ هُما حُكمان شرعيانِ يُعَالج بهمَا الوَاقعُ وَيُوصَفُ، لِذلكَ وَجَبَ على المُسلم التقيدُ بالحُكم الشرعيِّ، وَأنْ يعرفَ حُكمَ فعلِهِ قبلَ أنْ يقومَ بهِ، فإنْ كانَ حَلالاً فعَلَهُ، وَإنْ كانَ حَرَاماً لمْ يَفعلْهُ. وَهكذا نزنُ أعمَالَنا قبلَ أنْ توزَنَ علينَا، فاتقُوا اللهَ أيُّها المُؤمنونَ في أعمَالِكُم، وَزنُوهَا قبلَ أنْ توزَنَ عَليكمُ، وَحَاسِبُوا أنفسَكمْ قبلَ أنْ تحَاسَبُوا.

إنَّ الناظرَ فِي الوَاقِعِ اليَومَ يَرَى أنَّ أكثرَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الأيَّامِ لا يَقيسُونَ، وَلا يَزنُونَ أعمَالهُمْ بالحَلالِ وَالحَرَامِ وَإنَّمَا يَقيسُونَهَا بالمَنفعَةِ المَادِّيَّةِ، فمَا كانَ نافِعاً فِي نظرهِمْ فَعَلُوهُ وَلَو كانَ حَرَاماً كمَا هُوَالحَالُ فِي الاقترَاضِ مِنَ البُنوكِ الرَّبَوِيَّةِ، وَالاستثمَار فيهَا، وَفي شِرَاء أورَاقِ اليَانَصيب. وَمَا كانَ غيرَ نَافِعٍ مَادِيًّا تَرَكُوهُ وَلَو كانَ فَرضاً عَليهِمْ، كمَا هُوَ حَاصِلٌ الآنَ فِي أنَّ الكثيرَ مِنَ المُسلمينَ لا يُؤدُّونَ زَكاةَ أموَالِهِمْ، وَلا يَأمُرُونَ بمَعرُوفٍ وَلا يَنهَونَ عَنْ مُنكَرٍ، وَلا يَعمَلُونَ لِتغييرِ هَذا الوَاقِعِ الفاسِدِ الذي يُحكَمُونَ فيهِ بغيرِ شريعَةِ اللهِ، وَيَتقاعَسُونَ، بلْ يُحْجمُونَ عَنْ حَملِ الدَّعوَةِ مَعَ المُخلصينَ لاستئنافِ الحَيَاة الإسلاميَّةِ.

فَمِنْ أينَ جَاءَ مِقيَاسُ المَنفعَةِ للأعمَالِ؟ لَقَدْ جَاءَ هَذا المِقيَاسُ مِنْ عَقيدَةِ فصلِ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ، وَهِيَ عَقيدَةُ الدُّولِ الغَربيَّةِ التي صَدَّرُوهَا للأمَّةِ الإسلاميَّةِ، وَتبنَّتهَا دُولُ المُسلمينَ،

فأبَاحُوا الرِّبَا وَأبَاحُوا فتحَ الخمَّارَاتِ، وَرَخَّصُوا فتحَ النَّوَادِي اللَّيْليَّةِ للرَّقصِ وَالتَّمثيلِ وَالغِنَاءِ. وَغيرُ ذلكَ كثيرٌ. فمَا هِيَ حَقيقةُ فصْلِ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ؟

إنَّ عَقيدَةَ فصْلِ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ هِيَ التي تَحْصُرُ الدِّينَ فِي العِبَادَاتِ وَالأخلاقِ، وَلا تَسمَحُ لأحكامِ الدِّينِ أنْ تُنظِّمَ العَلاقَاتِ، وَأنْ تُعَالِجَ المُعَامَلاتِ بَينَ النَّاسِ في البَيعِ وَالشِّرَاءِ، وَالصِّنَاعَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالحرْبِ وَالسِّلمِ، وَغيرِ ذلكَ مِنْ شُؤونِ الحَيَاةِ.

وَقَد تَأثَّرَ المُسلمُونَ بهذِهِ العَقيدَةِ نَتيجَةَ تَعطيلِ أحكامِ الشَّريعَةِ الإسلاميَّةِ، وَالعَمَلِ بأحكامِ القَوانينِ الوَضعيَّةِ المَأخُوذةِ مِنْ عَقيدَةِ فصْلِ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ، فَقَصَرُوا جُلَّ أعمَالِهِمْ عَلى العِبَادَاتِ، مِنْ صَلاةٍ وَصَومٍ وَزَكاةٍ وَحَجٍ، باعتِبَارِهَا هِيَ أركانُ الإسلامِ لِقولِهِ ﷺ: «بُنيَ الإسلامُ عَلى خَمسٍ: شَهَادَةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإقامِ الصَّلاةِ، وَإيتاء الزكاةِ، وَصَومِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيتِ لمَن استطاعَ إليهِ سَبيلاً».

فَقَد فَهِمَ كثيرٌ مِنَ المُسلمينَ أنَّهُمْ إنْ قامُوا بهَذِهِ الأركانِ الخمسَةِ، فَقدْ أدَّوا مَا أوجَبَهُ الإسلامُ عَليهِمْ، وَنَودُّ هُنَا أنْ نُبيِّنَ لَهُمْ أنَّهُمْ إذا اكتَفَوا بهَذا فَقَد أهلَكُوا أنفُسَهُمْ، وَكذلكَ يَهلَكُ كُلُّ مَنْ أخَذَ هَذا مَنهَجاً لَهُ فِي الحَيَاةِ. إنَّ هَذا الحَديثَ النَّبَويَّ الشريفَ يُشَبِّهُ الإسلامَ بالبيتِ الذي يَقُومُ عَلى خَمسَةِ أركانٍ ـ أي أعمِدَةٍ ـ وَكمَا أنَّ البَيتَ يُبنى لِيَقِيَ سَاكِنيهِ حَرَّ الصيفِ وَبردَ الشِّتاء، وَليَأمَنُوا عَلى أموَالِهِمْ وَأنفُسِهمْ بإغلاقِ أبوَابهِ إذا جَنَّ الليلُ، فكذلكَ الإسلامُ فإنَّهُ يُعالِجُ مَشاكِلَ النَّاسِ وَيفصِلُ بَينَهُمْ في الخُصُومَاتِ، وَيكفَلُ لهُمُ الأمنَ بسُلطانِهِ، وَلَو اكتَفَينَا بالعِبَادَاتِ الخمسِ، لمَا عَالجنَا مَشاكِلَ الزَّوَاجِ وَالطَّلاقِ، وَمَشاكِلَ الخُصُومَاتِ فِي

الحُقُوقِ وَفي الاعتدَاءَاتِ عَلى الأموَالِ وَالأعرَاضِ وَمَشاكِلِ الأمنِ.

أرَأيتَ يَا أخِي لَو جَرَّدنَا البَيتَ مِنْ سُقوفِهِ وَجُدرَانِهِ وَأبوَابِهِ، وَتَرَكنَا أعمِدَتَهُ قائِمَةً، أيَحمِي أهلَهُ السَّاكنينَ فيهِ مِنْ حَرِّ الصَّيفِ، وَبَردِ الشتاء، وَيُؤمِّنُهُمْ عَلى أموَالِهِمْ وَأنفسِهِمْ ؟ وَالجَوَابُ بالطَّبعِ هُوَ: لا، وَكذلكَ الإسلامُ، فإنَّ اقتِصَارَ المُسلمينَ عَلى القيامِ بأركانِ الإسلامِ وَتركَهُمْ لِبقيَّةِ أحكامِهِ أدَّى إلى مَا نحنُ فيهِ مِنْ ذلٍ وَهَوَانٍ، وَمِصدَاقُ ذلكَ الوَاقعُ الذي نَعيشُ فيهِ، فهَاهُمُ المُسلمُونَ يَعيشُونَ كالأيتامِ عَلى مَآدِبِ اللِّئامِ، فصَارَ المُسلمُ يُولَدُ فلا يُؤبَهُ لَهُ، وَيَعيشُ فلا يُعتَنَى بهِ، وَيَمُوتُ فلا يُحزَنُ عَليهِ، وَيُقتَلُ فلا يُثأرُ لَهُ...!

فلا دَولةَ لِلمُسلمينَ تُنفِّذ فيهمْ أحكامَ دِينهِمْ وَترعَاهُمْ بحَسَبِهِ، وَلا سُلطَانَ لهُمْ يَحميهمْ مِنَ اعتدَاء أعدَائهم عَليهمْ. فالمُسلِمُ فِي دَولَةِ الإسلامِ إذا جَاعَ أشبعَتْ لَهُ جَوعَتُهُ، وَإذا خَافَ أذهبتْ عَنهُ خَوفَهُ، وَإذا اعتُدِيَ عَليهِ انتصَرَتْ لَهُ مِنْ عَدُوِّهِ.

وَرَحِمَ اللهُ خليفةَ المُسلمينَ أبَا بَكرٍ الصدِّيقَ الذي قالَ في أوَّلِ خُطبَةٍ لهُ عَقِبَ توَلـِّيهِ الخِلافة: {ألا إنَّ أقوَاكمْ عِندِي الضَّعيفُ حَتى آخذ الحَقَّ لهُ، وَأضعَفَكمْ عِندِي القويُّ حَتى آخذ الحَقَّ مِنهُ}.

أمَّا دُوَلـُنا القائِمَةُ حَالِيًّا، وَالتي تُطبِّقُ عَقيدَةَ فصْلِ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ، لا تفعَلُ شَيئاً مِنْ ذلكَ، فهَاهُمُ المُسلِمُونَ فِي العرَاقِ يُسَامُونَ سَومَ النـَّعَامِ، وَيُذبَحُونَ ذبحَ النـَّعَاجِ، وَيُحرَمُونَ خيرَاتِ بلادِهِمْ، وَهَاهُمُ المُسلمُونَ فِي فِلَسطينَ يُقَتـَّلـُونَ، وَتـُهدَمُ بُيُوتـُهُمْ، وَتـُقتلـَعُ أشجَارُهُمْ، وَهَاهُمْ في كـُسُوفـُو تـُبقـَرُ بُطـُونُ النـِّسَاء، وَتـُقطـَعُ أيديهنَّ وَأرجُلِهِنَّ، وَيُقتـَلُ الأطفالُ وَالرِّجَالُ، وَمِنْ قـَبلُ فِي البُوسنةِ وَالهرسِكِ، وَفِي الجَزَائرِ وَبُرمَا وَكشميرَ وَغيرِهَا مِنْ بقاعِ

الأرض، وَمَا أكثرَ المُصلينَ وَالصَّائمينَ وَالمزكـّينَ وَحُجَاجَ بيتِ اللهِ النَّاطِقينَ بـِالشـَّهَادَتين ِ وَالذينَ يُعَدُّونَ بالمَلايـين ِ، فهَـلْ رَفـَعَ ذلكَ الضَّيمَ عَن ِالمُسلميـنَ، أو أعـَادَ لهُـمْ مَجدَهُـمْ وَعِـزَّهُمْ ؟ هَـلْ مَنـَعَ قِيَامُ المُسلمينَ بهَذِهِ الأركان ِعُدوَانَ الأعدَاء عَليهِـمْ ؟ كـَلا ّ.

نـَعَمْ إنَّ الإسلامَ لا يَـقـُومُ بغير ِهَذِهِ الأركان ِ، كمَا لا يَـقـُومُ البَيتُ بغـَير ِأعمِدَةٍ، وَلكنـَّهَا وَحدَهَا لا تكفِي، فكمَا أنَّ البيتَ يَحتاجُ إلى جُدرَان ٍ وَسُـقـُوفٍ وَأبوَابٍ، لِيُؤدِّيَ المَنفعَةَ المَطلـُوبَة لِسَاكنيه، كذلكَ فإنَّ الإسلامَ فيهِ بالإضَافـَةِ إلى تلكَ الأركان ِ نظامٌ اجتمَاعيٌّ، وَنِظامٌ اقتِصَادِيٌّ، وَنظامٌ سِيَاسِيٌّ، وَنِظام حُـكم ٍ.

إنَّ الإسلامَ كـُـلٌّ لا يَتجَزَّأ، وَهُوَ نِظامٌ شَامِلٌ يُعَالِجُ جَميعَ شُؤون ِالحَيَاةِ، وَليسَ مِنْ فـَرق ٍ بَينَ قولِهِ تعَالى:﴿ وَأقيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وَبينَ قولِهِ تعَالى:﴿ وَأن ِاحكـُمْ بَينـَهُمْ بمَا أنزَلَ اللهُ﴾.

فلمَاذا نعمَـلُ بالآيَةِ الأولى، وَلا نـَعمَـلُ بالآيَةِ الثانيةِ؟ وَاللهُ تعَالى يَـقولُ:﴿ أفتؤمِنـُونَ ببَعض ِالكِتابِ وَتكفرُونَ ببَعض ٍ فمَا جَزَاءُ مَنْ يَـفعَـلُ ذلكَ مِنكـُمْ إلا ّ خِزيٌ فِي الحَيَاةِ الدُنيَا وَيَومَ القيامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذابِ وَمَا اللهُ بغـَافِل ٍ عَمَّا تعمَـلـُونَ ۞ أولئكَ الذينَ اشتـَرَوُا الحَيَاةَ الدُنيَا بالاخِرَةِ فلا يُخـَـفـَّـفُ عَنهُمُ العَذابُ وَلا هُمْ يـُنصَرُونَ﴾.

هَذا هُوَ مَعنى فـَصْـل ِالدِّين ِعَن ِ الحَيَاةِ، وَمَعنـَى الاقتِـصَار ِ عَلى العِبَادَاتِ دُونَ المُعَامَلاتِ في الإسلام ِ، وَهَذِهِ نتـَائِجُهَا: ضَعْفُ المُسلمينَ، وَتـَفـَرُّقـُهُمْ، وَذلـُّهُمْ، حَتى غـَدَا المُسلِمُ المُـتـَمَسِّكُ بدِينِهِ يُعَدُّ فِي نـَظـَر ِأهل ِ هَذِهِ العَـقيدَةِ الفَـاسِدَةِ أصُوليـَّا ً أو إرْهَابيَّا ً.

وَلئن ِ استمَرَّ هَذا الحَالُ عَلى مَا هُوَ عَليهِ، وَظلَّ المُسلمُونَ لا يَـتقـَيـَّدُونَ بالـحُـكم ِالشَّرعِيِّ فِي أعمَالِهمْ وَتصَرُّفـَاتِهمْ، وَظلـَّتِ المَنفعَةُ هِيَ مِقيَاسُ الأعمَال ِعِندَهُمْ، فسَيزدَادُ الفسَادُ، وَتـكثـُـرُ المِحَنُ، وَيَصدُقُ

فيهمْ قـولُ اللهِ تعَالى:﴿ أولئكَ الذينَ اشترَوُا الحَيَاة الدنيا بالاخرَة فلا يُخففُ عَنهُمُ العَذابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

فِي هَذِهِ الآيَة وَصَفَ اللهُ تعَالى الذينَ لمْ يَأخذوا بكلِّ مَا جَاءَ فِي كِتابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِه، بأنـَّهُ لنْ يُخفِفَ عَنهُمْ تعذيبَ الأعدَاء لهُمْ، وَاحتقارَهُمْ وإذلالهُمْ لهُمْ، وَلا يَنالون النصرَ مِنَ اللهِ تعَالى.

ألا عُودُوا أيُّهَا المُسلمُونَ إلى كِتابِ رَبِّكُمْ، وَسُنَّةِ نَبيِّكـُمْ، وَتـَقـَيـَّدُوا بالحُكمِ الشَّرعِيِّ فِي أعمَالِكـُمْ وَتصَرُّفاتِكمْ لعَـلَّ اللهَ يَرحَمُكـُمْ، وَيُغـَيِّرُ مَـا بكـُمْ يقـولُ تعَـالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يُغيِّـرُ مَـا بقـومٍ حَتـى يُغيِّـرُوا مَـا بأنفُسِهِمْ﴾. وَيَـقولُ ﷺ: «مَا مِنْ أهلِ قريَةٍ، وَلا أهلِ بَيتٍ وَلا رَجُـلٍ ببَادِيَةٍ كانـُوا عَلى مَا أحِبُّ مِنْ طـَاعَتِي، فتحَوَّلـُوا عَنهَا إلـى مَـا أكرَهُ مِنْ مَعصِيَتِي ثمَّ تحَوَّلـُوا عَنهَا إلى مَا أحِبُّ مِنْ طـَاعَتِي، ألاَّ تحَولتُ لهُمْ عَمَّـا يَكرَهُونَ مِنْ عَـذابي، إلـى مَـا يُحِبُّونَ مِنْ رَحمَتِـي أو كمَـا قالَ».

المسؤوليات العامة للأمة الإسلامية

قالَ اللهُ تعَالى فِي مُحكمِ كِتابهِ وَهُوَ أصدَقُ القائلينَ: ﴿وَقِفـُوهُمْ إنـَّهُمْ مَسؤولـُونَ﴾. وَقالَ عَزَّ مِنْ قائِل:﴿ فـلنـَسألـَنَّ الذينَ أرْسِلَ إليهِمْ وَلنـَسألـَنَّ المُرسَلينَ﴾. وَقالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿فـَوَرَبِّكَ لنـَسألنـَّهُمْ أجمَعينَ عَمَّا كانـُوا يَعمَلـُونَ﴾. وَقالَ تعَالى: ﴿ وَيَومَ يُـنادِيهِمْ فيقولُ مَاذا أجَبتـُمُ المُرسَـلينَ ۝ فعَمِيَتْ عَـليهمُ الأنبَاءُ يَومَئذٍ فهُمْ لا

يَتسَاءَلُونَ ۞ فأمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحا ً فعَسَى أنْ يَكونَ مِنَ المُفلِحينَ﴾.

وَرَوَى البُخَاريُّ فِي صَحيحِهِ عَنْ عَبدِ اللهِ بن ِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:« ألا كُلـُّكـُمْ رَاع ٍ، وَكـُلـُّكـُمْ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالإمَامُ الذي عَلى النَّاس ِرَاع ٍ، وَهُوَ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاع ٍ عَلى أهل ِ بَيتِهِ، وَهُوَ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالمَرأة ُ رَاعِيَة ٌ عَلى أهل ِ بَيتِ زَوجهَا وَوَلَدِهِ، وَهِي مَسؤولة ٌ عَنهُمْ، وَعَبدُ الرَّجُل ِ رَاع ٍ عَلى مَال ِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسؤولٌ عَنهُ، ألا فكـُلـُّكـُم رَاع ٍ، وَكـُلـُّكـُمْ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

إخوة َالإيمان ِ وَالإسلام ِ:

لمَّا كانَتِ العَقيدَة ُ الإسلامِيَّة ُ هِيَ فقط العَقيدَة َ العقليَّة َ الصَّحيحَة َ، وَكانَ النـِّظامُ المُنبثِقُ عَنهَا هُوَ فقط النـِّظامَ الصَّحيحَ، الذِي يُعَالِجُ مَشاكِلَ الإنسَان ِ فِي الحَيَاةِ عِلاجا ً صَحيحا ً، كانَ لا بُدَّ مِنَ اعتِناقِهَا، وَتطبيق ِالنظام ِالمُنبثق ِعنهَا، وَحَملِهَا دَعوَة ً إلى بَقيَّة الشُّعُوبِ وَالأمَم ِ، وَحَملـُهَا فرضٌ عَلى المُسلمينَ وَهُوَ مِنْ أعظم ِ المَسؤوليَّاتِ التي أوجَبَهَا اللهُ تبَارَكَ وَتعَالى عَلى أمةِ الإسلام.

لقَدْ وَضَعَنَا الإسلامُ وَإيَّاكـُمْ أمَامَ مَسؤوليَّاتٍ جسَام ٍ، فرَضَ عَلينَا تنفيذهَا، وَأدَاءَهَا، وَإيجَادَهَا فِي وَاقِع ِالحَيَاةِ، وَهدَّدَنَا وَتوَعَّدَنَا إنْ نحنُ قصَّرنَا فِي هَذِهِ المَسؤوليَّاتِ، بأنْ يُعَذبَنَا عَذابا ً أليما ً فِي الدُنيَا عَلى يَدِ أعدَائِنَا، أو أنْ يَستبدِلـَنَا بقوم ٍآخرينَ، وَسَيُحَاسِبُنَا وَيَسألـُنَا يَومَ القيامَةِ، فمَاذا سَيكونُ جَوَابُنَا؟ وَهذِهِ المَسؤوليَّاتُ الجسَامُ هِيَ:

- **مَسؤوليَّة المسلمين عن حمل الدعوة الإسلاميّة:**

إنَّ حَملَ دَعوَةِ الإسلامِ إلى بَقيَّةِ الشعُوبِ وَالأمَم ِ فرضٌ عَلى المُسلمينَ، لِقولِهِ تعَالى: ﴿وَأوحِيَ إليَّ هَذا القرُآنُ، لأنذِرَكمْ بهِ وَمَنْ بَلغَ﴾. أي وَلأنذِرَ مَنْ بَلغهُ، فالإنذارُ لكمْ، وَهُوَ كذلكَ إنذارٌ لِمنْ تقومُونَ بتبليغِهِ إيَّاهُ، فهُوَ دَعوَةٌ لكمْ لأنْ تبلغُوهُ عَن ِ الرَّسُول ِﷺ.

وَقدْ طلبَ مِنَّا رَسُولنا ﷺ أنْ نُبلغَ مَقالتهُ كمَا سَمِعنَاهَا عَنهُ دُونَ زِيَادَةٍ أو نقصَان ٍ، سَواءٌ أكانَ حَامِلُ المَقالةِ فقيها ً أم لا، وَسَوَاءٌ أكانَ المبلِّغُ أفقهَ مِنَ المُبلَّغ ِ لهُ أم لا، فالطَّلبُ يَقتضِي التَّبليغ َ لِوُجُودِ المَدحِ عَليهِ، لِقول ِالرَّسُول ِ ﷺ:« نَضَّرَ اللهُ عَبدا ً سَمِعَ مَقالتِي فحَفِظهَا، وَوَعَاهَا وَأدَّاهَا، فرُبَّ حَامِل ِ فِقهٍ غيرُ فقيهٍ، وَرُبَّ حَامِل ِ فِقهٍ إلى مَنْ هُوَ أفقهُ مِنهُ».

وَإذا كانَ عَدَمُ التبليغِ يَترَتبُ عَليهِ ضَيَاعٌ الحُكم ِ الشَّرعِيِّ كانَ التبليغُ وَاجبا ً، وَاللهُ سُبحَانهُ وَتعَالى يقولُ: ﴿وَلتكنْ مِنكمْ أمَّةٌ يَدعُونَ إلى الخير ِ﴾. وَالخيرُ هُنا هُوَ الإسلامُ، فهذِهِ كلُّهَا نصُوصٌ تدُلُّ عَلى أنْ حَملَ الدَّعوَةِ للإسلامِ فرْضٌ عَلى جَميع ِالمُسلمينَ، الفقيهِ مِنهُمْ وَغير ِالفقيهِ، وَسَوَاءٌ أكانُوا أفرَادا ً أو جَمَاعَاتٍ أو دَولة ً.

- **مسؤوليَّة المسلمين عن إقامة الخلافة:**

قالَ اللهُ تعَالى:﴿ فاحكمْ بَينهُمْ بمَا أنزَلَ اللهُ، وَلا تتبعْ أهَواءَهُمْ عَمَّا جَاءَك مِنَ الحَقِّ﴾. وَبمَا أنَّ خِطابَ الرَّسُول ِ خِطابٌ لأمَّتِهِ، مَا لمْ يَردْ دَليلٌ يُخصِّصُهُ بهِ، وَهُنا لمْ يَردْ دَليلٌ، فيَكونُ خِطابا ً لِلمُسلمينَ بإقامَةِ الحُكم ِ، أي إقامَةِ الخِلافةِ.

عَلى أنَّ اللهَ تعَالى فرَضَ عَلى المُسلمينَ إطاعَة َ وَليِّ الأمر ِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى وُجُوبِ وُجُودِ وَليِّ الأمر ِعَلى المُسلمينَ، قالَ تعَالى:﴿ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وَأطيعُوا الرَّسُولَ وَأولي

الأمرِ مِنكـُمْ﴾. وَلا يَـأمُرُ اللهُ بطاعَـةِ مَنْ لا وُجُـودَ لَـهُ، وَلا يـَفرضُ طاعَةَ مَنْ وُجُودُهُ مَندُوبٌ، فَدَلَّ عَلى أنَّ إيجَادَ وَليِّ الأمرِ وَاجبٌ. فـاللهُ تعَـالى حِـينَ أمَـرَ بطاعَـةِ وَلـيِّ الأمـرِ، فإنَّـه يَكـُونُ قـَدْ أمَـرَ بإيجَـادِهِ، فـإنَّ وُجُـودَ وَلـيِّ الأمـرِ يَترتـَّبُ عَليـهِ إقامَـةُ الحُكمِ الشَّرعِيِّ، وَتركَ إيجَادِهِ يترتـَّبُ عَليهِ تـَضييعُ الحُكمِ الشَّرعِيِّ، فيَـكونُ إيجَادُهُ وَاجباً، لِمَا يَترتـَّبُ عَلـى عَدَمِ إيجَادِهِ مِنْ حُرمَـةٍ، وَهِيَ تـَضييعُ الحُكمِ الشَّرعِيِّ.

- **مسؤوليَّة المسلمين عن تطبيق نظام الإسلام:**

أمَّا مَسؤوليَّةُ الأمَّـةِ الإسلامِيَّة عَنْ تـَطبيقِ الإسلامِ، وَتنفيذِ أحكامِهِ، فقدْ وَرَدَ فِي خِطـابِ التـَّكليفِ العَامِّ لِجميعِ المُسلمينَ، قـالَ اللهُ تعَـالى مُخاطِبـاً رَسُولـَهُ ﷺ: ﴿فـَلا وَرَبـِّكَ لا يُؤمِنـونَ حتـَّى يُحَكـِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينهُمْ، ثـُمَّ لا يَجدُوا فِي أنـفـُسِهمْ حَرَجاً مِمَّا قـَضَيتَ، وَيُسَلـِّمُوا تـَسليماً﴾.

فهَذِهِ الآيـةُ قـَدْ نـَفـَتِ الإيمَـانَ عَمَّنْ لا يُحَكـِّمِ الشـَّرعَ لأنَّ تـَحكِـيمَ الرَّسُـولِ عَـليهِ الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ هُـوَ تـَحكِـيمٌ لِلشَّـرعِ، وَالرَّسُولُ ﷺ مُـلزَمٌ أنْ يَحكـُمَ بَينَ المُسلمينَ بشرعِ اللهِ لأنَّ اللهَ تعَـالى أمَرَهُ بهَذا فقـالَ: ﴿ وَأنِ احكـُمْ بَينهُمْ بمَـا أنـزَلَ اللهُ وَلا تتـَّبعْ أهوَاءَهُمْ، وَاحـذرْهُمْ أنْ يَـفتِنـُوكَ عَـنْ بَعضِ مَـا أنـزَلَ اللهُ إليـكَ﴾. وَلمَّـا كـَانَ خِطابُ اللهِ لِلرَّسُولِ ﷺ خِطاباً لأمَّـتِهِ، كـانَ المُسلمُونَ مُخـاطبينَ بالحُكمِ بمَا أنزَلَ اللهِ وَمُـلزَمينَ بهِ.

- **مسؤوليَّة المسلمين وحدة الدولة ووحدة الأمَّة الإسلاميّة:**

قالَ اللهُ تعَالى:﴿ وَأنَّ هَذِهِ أمَّـتـُكـُمْ أمَّة وَاحِدَةً وَأنـَا ربـُّكـُمْ فاعبُدُون﴾. وَقـالَ عَزَّ مِنْ قائـل: ﴿وَاعتصِمُوا بحَبلِ اللهِ جَميعاً وَلا تـَفرَّقـُوا﴾. وَقـالَ رَسُـولُ الله ﷺ:«مَثـَـلُ المُـؤمِنينَ فِـي تـَوَادِّهِمْ،

وَتـرَاحُمِهِمْ، وَتـعَاطـُفِهِمْ كمَثـَـلِ الجَسَدِ الوَاحِدِ إذا اشتـكى مِنـهُ عُضوٌ تـَدَاعَى لـَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ وَالحُمَّى».

إنَّ مَسؤوليَّةَ وَحْدَةِ الدَّولـةِ، وَوَحْدَةِ الأمَّةِ، تـقـَعُ عَلى عَاتـِقِ المُسلمينَ جَميعا ً، وَإنَّ عَـوَامِـلَ الوَحدَةِ كثيرَة ٌ وَأكيدَةٍ، فـَربُّـهُمْ وَاحِدٌ هُو اللهُ تعَالى، وَنـَبيُّـهُمْ وَاحِدٌ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَكتابُـهُم وَاحِدٌ هُوَ القـُرآنُ الكريمُ، ودينـُهُم وَاحِدٌ هُوَ دِينُ الإسلامِ، وَقبلتـُهُم وَاحِدَة ٌ هِيَ الكعبَـة ُ المُشرَّفـَة ُ، لِذلكَ يَـنبَغِي أنْ تكـُونَ أمَّـة ُ الإسلام ِ أمَّـة ً وَاحِـدَة ً، وَدَولـتـُهُمْ دَولـة ً وَاحِدَة ً، وَخليفتـُهُمْ خـَليفة ً وَاحِدا ً.

- **مسؤوليَّة المسلمين عن الجهاد:**

الجِهَـادُ مِـنَ المَسـؤوليَّاتِ العَامَّـة المُلقـَـاةِ عَلـى عَاتـِقِ الأمَّـةِ جَميعا ً، وَالتـَّقصيرُ فيهِ يُعَرِّضُ الأمَّة َ جَميعَهَا لِلهَلاكِ.

قـالَ اللهُ تعَـالى: ﴿ وَأنفِقـُوا فِـي سَـبيلِ اللهِ وَلا تـُلقـُـوا بأيدِيكـُمْ إلـى التـَّهلـُكـَةِ﴾. وَقالَ تعَالى: ﴿يَا أيُّهَا الذينَ آمَنـُوا هَـلْ أدلـُّكـُمْ عَلـى تِجَـارَةٍ تـُنجيكـُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ ۞ تـُؤمِنـُـونَ بـاللهِ وَرَسُـولِهِ وَتـُجَاهِدُونَ فِـي سَبيلِ اللهِ بأموَالِكـُمْ وَأنفـُسِكـُمْ، ذلكـُمْ خـَيرٌ لـَكـُمْ إنْ كـُنتـُمْ تعلـَمُونَ ۞ يَغفِـرْ لـَكـُمْ ذنـُوبَكـُمْ وَيُدخِلكـُمْ جَنـَّاتٍ تـَجْري مِن تـَحتـِهَا الأنـهَارُ وَمَسَاكِـنَ طيِّبَـة ً فِـي جَنـَّاتِ عَدْنٍ ذلـكَ الفـَوزُ العَظـيمُ ۞ وَأخـرَى تـُحِبُّونـَهَا نـَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفتحٌ قـَريبٌ، وَبَشِّرِ المُؤمِنينَ﴾.

إنــَّهَا حـقـَّا ً لـِتِجَارَة ٌ رَابـِحَة ٌ يَـنالُ فيهَـا المُجَاهِـدُ أجرا ً عَظيما ً. وَقالَ ﷺ: «أمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النـَّاسَ حَتـَّى يَقـُولـُوا لا إلهَ إلا اللهُ». وَقالَ ﷺ: «مَنْ مَـاتَ وَلـَمْ يَغـْـزُ، وَلـَمْ يُحَدِّثْ نـَفسَهُ بالغـَزو مَاتَ عَلـى شـُعبَةٍ مِنَ النـِّفـَاقِ».

- **مسؤولية المسلمين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

النُّصُوصُ الشَّرعِيَّةُ التي تَحُضُّ عَلى الدَّعوَةِ إلى الخَيرِ وَالأمرِ بالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ جَاءَتْ كَثيرَةً، وَمُتَنوِّعَةً تُخَاطِبُ الحُكَّامَ حِيناً، وَالعُلَمَاءَ حِيناً آخَرَ، وَكَثيراً مَا تَتَناوَلُ فِي الخِطابِ عَامَّةَ المُسلمينَ.

أمَّا الحُكَّامُ فقدْ خَاطَبَهُمُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتعَالى بقولِهِ: ﴿ الذينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرضِ أقَامُوا الصَّلاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأمَرُوا بالمَعرُوفِ، وَنَهَوا عَنِ المُنكَرِ ﴾.

وأمَّا عَامَّةُ المُسلمينَ، فقدْ خَاطَبَهُمُ اللهُ بقولِهِ: ﴿وَالمُؤمِنُونَ وَالمُؤمِناتُ بَعضُهُمْ أولِيَاءُ بَعض يَأمُرُونَ بالمَعرُوفِ، وَيَنهَونَ عَنِ المُنكر﴾.

وَأمَّا العُلَمَاءُ فَهُمُ الذينَ يَعرِفُونَ أيَّ الأعمَالِ مُوَافقَةٌ لِشَرعِ اللهِ، وَأيَّهَا مُخالِفَةٌ لَهُ فَهُمْ أدْرَى النَّاسِ بمَوَاطِنِ الخَيرِ، وَمَواطِنِ الشَّرِّ، وَأقدَرَهُمْ عَلى تَبصيرِ النَّاسِ حُكَّاماً وَمَحكُومينَ بأحكامِ اللهِ.

ما لا أسَّ له فمهدومٌ، وما لا حَارسَ لهُ فضائعٌ

قالَ اللهُ تعَالى في مُحكمِ كِتابهِ، وَهُوَ أصْدَقُ القائِلينْ: ﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامَ ۞ وَمَنْ يَبتغِ غَيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخرَةِ مِنَ الخاسِرينَ﴾.

إخوَةَ الإيمانِ وَالإسلامِ:

رُويَ عَلى لِسَانِ عَليٍّ ـ كَرَّمَ اللهُ تعَالى وَجهَهُ ـ وَقِيلَ رُوِيَ عَلى ألسِنَةِ غَيرِهِ ـ أنَّهُ قَالَ: «الدِّينُ أسٌّ، وَالسُّلطَانُ حَارسٌ، وَمَا لا أسَّ لَهُ فمَهْدُومٌ، وَمَا لا حَارسَ لَهُ فَضَائِعٌ»...!!

يَا لهَا مِنْ عِبَارَةٍ رَائعَةٍ فِي مَعنَاهَا وَفِي مَبناهَا!! فالدِّينُ هُوَ الأسَاسُ الذي يَقومُ عَليهِ السُّلطَانُ أي الحُكمُ، فإذا أقيمَ السُّلطَانُ عَلى غَيرِ الدِّينِ، فقَدْ أقيمَ عَلى غَيرِ أسَاسٍ، وَمَا لا أسَاسَ لَهُ فمَهدُومٌ.

وَالأسَاسُ أي الدِّينُ، يَحتاجُ إلى سُلطانٍ يَحْرُسُهُ، وَيَحميهِ مِنْ عَبَثِ العَابثِينَ، فإذا زَالَ الحَارسُ ضَاعَ الأسَاسُ، أيْ إذا زَالَ السُّلطانُ ضَاعَ الدِّينُ. وَرَحِمَ اللهُ أمَّ سَلمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا إذ قالتْ: «كيفَ أنتمْ إذا دَعَاكمْ دَاعِيَانِ: دَاعٍ إلى كِتابِ اللهِ، وَدَاعٍ إلى سُلطانِ اللهِ أيَّهُمَا تُجيبُونَ ؟». قالوا: نُجيبُ الدَّاعِي إلى كِتابِ اللهِ. قالتْ: «بَلْ أجيبُوا الدَّاعِيَ إلى سُلطانِ اللهِ، فإنَّ كِتابَ اللهِ مَعَ سُلطانِ اللهِ»...!!

مَا أجمَلَ سُؤالَ أمِّ سَلمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا !! وَمَا أدَقَّ جَوابَهَا، وَأحسَنَ إرشَادَهَا !! فقدْ وَافقَ رَأيُهَا رَأيَ القائلِ: «الدِّينُ أسٌّ، وَالسُّلطَانُ حَارسٌ، وَمَا لا أسَّ لهُ فمَهْدُومٌ، وَمَا لا حَارسَ لهُ فضَائِعٌ». فالدِّينُ بتعَالِيمِهِ مَوجُودٌ بكِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَسُلطَانُ اللهِ هُوَ الحَارسُ بَلْ وَالعَامِلُ بكِتابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فإذا أجَبنَا الدَّاعِي إلى كِتابِ اللهِ، وَترَكْنَا الدَّاعِيَ إلى سُلطانِ اللهِ أضَعنَا كِتابَ اللهِ، وَعَطَّلنَا العَمَلَ بهِ وَبسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. أمَّا إذا أجَبنَا الدَّاعِيَ إلى سُلطانِ اللهِ حَفِظنَا كِتابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ لأنَّ سُلطَانَ اللهِ هُوَ الحَارسُ لِكتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَرُوِيَ عَلى لِسَانِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ تعَالى عَنهُ أنَّهُ قالَ: «لا إسلامَ بِلا جَمَاعَةٍ، وَلا جَمَاعَةَ إلاَّ بإمَارَةٍ».

إنَّ النَّاظِرَ المُدَقِّقَ فِي قَولِ عُمَرَ يَرَى أنَّ قولَهُ هَذا يُفيدُ بمَنطُوقِهِ وَمَفهُومِهِ أسَاسَ الحُكمِ فِي الإسلامِ. فالإسلامُ هُوَ الدِّينُ السَّمَاوِيُّ الذي أنزَلهُ اللهُ عَلى نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَكُونَ دِيناً لِلعَالمينَ، وَقدْ نَسَخَ مَا قبلَهُ مِنَ الأديَانِ بقولِهِ تعَالى: ﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ ۞ وَمَنْ يَبتَغِ غيرَ الإسلامِ دِيناً فلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ﴾. ثمَّ جَعَلهُ المَنهَجَ الوَحِيدَ للبَشَرِ لِيسيرُوا عَليهِ وَيَحتكِمُوا إليهِ فقالَ تعَالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعدِ مَا تبيَّنَ لهُ الهُدَى

وَيتَّبِعْ غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنينَ نُوَلِّهِ مَا تولَّى وَنُصلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصيرا ً﴾.

فالإسلامُ ليسَ دِينا ً نظريًّا ً، بَلْ هُوَ دِينٌ عَمَليٌّ، أيْ مَنهَجٌ مُقرَّرٌ لِلعَمَلِ بهِ فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ، وَالمَنهَجُ العَمَليُّ يَحتاجُ إلى مَنْ يُعْمِلُهُ وَيُفعِّلُهُ فِي الحَيَاةِ، وَهَذا لا يَتِمُّ إلاَّ بِوُجُودِ الجَمَاعَةِ التي تعتَنِقُهُ، وَتلتَزِمُ بأحكامِهِ، فتجعَلَ مِنهُ قِيَادَة ً فِكريَّة ً لهَا، وَتجعَلَ مِنْ أحكامِهِ حُلُولا ً لِمُشكلاتِهَا ، وَإذا لَمْ تُوجَدْ هَذِهِ الجَمَاعَة ُ لا يُوجَدُ الإسلامُ فِي وَاقعِ الحَيَاةِ، وَلِهَذا قالَ عُمَرُ: «لا إسلام بلا جماعة».

أمَّا إذا اعتَنَقَ الإسلامَ أفرَادٌ كمَا هُوَ الحَالُ فِي الأقطَارِ الأجنبيَّةِ فلا يُعتَبَرُ الإسلامُ مَوجُودا ً فِي وَاقعِ الحَيَاةِ، وَكذلكَ هُوَ غَيرُ مَوجُودٍ فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ فِي الأقطَارِ التي تُسَمِّي نَفسَهَا إسلامِيَّة ً، لِكونِ المُجتمَعَاتِ فِي تلكَ الأقطَارِ تَسيرُ عَلى مِنَاهِجَ مُخَالِفَةٍ للإسلامِ ، فالجَمَاعَة ُ التي عَناهَا عُمَرُ هِيَ التي تتَّخِذ ُ الإسلامَ مَنهَجا ً لهَا. وَأمَّا قولُ عُمَرَ:«وَلا جَمَاعَة َ إلاَّ بإمَارَة». فالإمَارَة ُ هِيَ السُّلطَانُ الذي يُدبِّرُ شُؤونَ الجَمَاعَةِ، وَيُسَيِّرُهَا عَلى مَنهَجِ اللهِ، فيُقَوِّمُ المُعوَجَّ مِنهَا، وَيُنَفِّذ ُ الأحكامَ عَليهَا، فإذا لَمْ تُوجَدِ الإمَارَة ُ صَارَتْ أمُورُ الجَمَاعَةِ فَوضَى، وَبالتَّالي تتَفرَّقُ وَتخرُجُ عَنِ المَنهَجِ، وَإذا خَرَجَتْ عَنِ المَنهَجِ لمْ يَعُدِ الإسلامُ مَوجُودا ً فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ، قالَ الشَّاعِرُ:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ
وَلا سَرَاةَ إذا لَمْ تُرْسَ أوتَادُ

وإذا ً فوُجُودُ الإسلامِ في وَاقعِ الحَيَاةِ مَربُوط ٌ بوُجُودِ الإمَارَةِ، وَالإمَارَة ُ إذا كانتْ مُتَقيِّدة ً في رعَايتِهَا لِشؤونِ النَّاسِ بالإسلامِ فهِيَ سُلطَانُ اللهِ، وَإذا لَمْ تكُنْ مُتَقيِّدة ً بِهِ، كانتْ سُلطَانا ً للطَّاغُوتِ، وَسُلطَانُ الطَّاغُوتِ فَاسِدٌ عَلى كُلِّ حَالٍ.

إخوَة الإيمان ِ وَالإسلام ِ:

ألـيسَ كِتَـابُ اللهِ وَسُنـةُ رَسُـولِهِ بَـينَ أيديكـمْ إلا أنـهُمَا مُعَطـلان، قـدْ عَلـقـهُمَا النـاسُ فِـي المَكتبَـاتِ وَالسَّيـارَاتِ وَعَلـى الجُدرَان ِ؟ وَلقـدْ صَدَقَ القائِلُ: إنَّ فرضَ إقامَـةِ السُّـلطان ِ هُوَ الفرضُ الذي تـُقامُ بهِ كـُلُّ الفرُوض ِ، وَرَحِمَ اللهُ الخـَليفـَةَ الثالثَ عُـثمَانَ بنَ عَفـانَ ــ رَضِـيَ اللهُ تعَـالى عَنـهُ ــ حِينَ قـالَ :«إنَّ اللهَ يَـزَعُ بالسُّلطَـان ِ مَا لا يَزَعُ بالقرُآن» . فسُلطَـانُ اللهِ أي ِ الإمَامُ هُوَ الذي يُقاتـَلُ مِـنْ وَرَائِـهِ، وَيُتـقـَى بـِهِ، فبـِـهِ تتـَـوَحَّدُ كـَلِمَةُ المُسلمينَ، وَيُرْهَبُ جَانـِبُهُم، وَيـُنصَفُ مَظلـُومُهُمْ، وَبـِهِ تـرجـِعُ إليهـِمْ عِـزَّتـُهُمْ، وَيـَنفـُضُونَ غـُبَارَ الـذلِّ عَـنْ جـِبَاهِهِمْ، وَيُطبـِّقـُونَ شَـرْعَ رَبِّهـِمْ، وَيَنشـُرُونَ الهُدَى بَينَ النـَّاس ِ، فِيهِ تزُولُ الفرْقـَةُ، وَتـُحْمَى البَـيضَـةُ، وَتـُشحَنُ الثـغـُورُ بالجُيـُوش ِ، فتـَحْمِي أعرَاضَـهُمْ وَأموَالـَهُمْ، فـَهُوَ الرَّاعِي وَالحَارسُ، وَمَا لا حَارسَ لـَهُ فـَضَائِعٌ، كمَا هُوَ حَالـُنـَا اليَومَ، فـَنحْنُ أضيَعُ مِنَ الأيتـَام ِ عَلى مَآدِبِ اللـِّئام ِ وَرَحِمَ اللهُ القائـِلَ:

رَسُـولَ اللهِ قـُمْ وَانـظـُرْ بـِلادا ً تـَقـَحَّمَهَا الـرَّدَى فِـي كـُلِّ وَادِ
تـَرَى الرَّايَات فيهـَا قـَدْ أذِلـَّتْ وَلـُطـِّخَتِ البَيـَارقُ بالسَّـوَادِ
وَأصْبَحْنـَا كأنـَّا غـُثـَاءُ سَيل ٍ نـَمُرُّ بـِلا حِسَـابٍ أو عِـدَادِ
أو ِالأيتـَامُ قـَدْ فـَقـدُوا أبَاهُـمْ وَلا أمٌّ تـُزَوِّدُهُـمْ بـِـزَادِ
نـَهيمُ عَلى الوُجُوهِ بكـُلِّ أرض ٍ وَنـَخضَـعُ رَاكِعِينَ لِكـُلِّ حَـادِ

عبدُ الرحمن بنُ حازم
يعظُ سُليمان بنَ عبدِ الملك

قالَ اللهُ تعَالى في مُحكم كِتابهِ، وَهُوَ أَصْدَقُ القائِلينْ: ﴿وَإذ أخذ اللهُ ميثقَ الذينَ أوتوا الكتابَ لتبُيننَّهُ للناسِ وَلا تكتمُونهُ فنبذوهُ وَرَاءَ ظهُورهِمْ وَاشترَوا بهِ ثمناً قليلاً فبئسَ مَا يَشترُونَ﴾. وَقالَ تعَالى: ﴿إنَّ الذينَ يَكتمُونَ مَا أنزلنا مِنَ البيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعدِ مَا بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكِتابِ أولئكَ يَلعَنهُمُ اللهُ وَيَلعَنهُمُ اللاعِنُونَ﴾.

إخوَة الإيمانِ وَالإسلامِ:

حَجَّ سُليمَانُ بنُ عَبدِ المَلِكِ في عَامٍ مِنَ الأعوَامِ، فخَرَجَ النَّاسُ مَعَهُ لِلحَجِّ، فلمَّا نزَلَ المَدِينةَ، جَاءَ وُجَهَاؤهَا وَعُلمَاؤهَا لِلسَّلامِ عَليهِ، فلمَّا استقرَّ بهِمُ المَجلِسُ، أجَالَ سُليمَانُ فيهمْ بِبَصَرهِ، وَكأنَّهُ يَبحَثُ عَنْ نمَطٍ مِنَ النَّاسِ، فلَمْ يَجدْهُمْ فسَألَ قائِلاً: أليسَ فِي المَدينةِ رَجُلٌ عَاشرَ أصحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

قالُوا: بَلى، هُناكَ رَجُلٌ يُقالُ لهُ عَبدَ الرَّحمَنِ بنَ حَازم، قالَ: ائتُونِي بهِ، وَلمَّا حَضرَ فإذا بهِ رَجُلٌ طاعِنٌ فِي السِّنِّ، رَثُ الثيِّابِ، يَتوَكَّأ عَلى عَصاً، فتقالّهُ النَّاسُ أي ((احتقرُوهُ)).

فلمَّا سَلَّمَ قالَ لهُ سُليمَانُ: يَا أبَا حَازمْ مَا لكَ تبخَلُ عَلينا بالسَّلامِ؟ وَقدْ جَاءَ عُلمَاءُ المَدينةِ للسَّلامِ وَأنتَ وَاحِدٌ مِنهُمْ. قالَ: لسْتُ أعرفُكَ حَتَّى آتِيكَ لِلسَّلامِ، فامتعَضَ النَّاسُ، فقالَ سُليمَانُ: صَدَقَ الشيخُ، ثمَّ قالَ:

سُليمَانُ ـ مَا لنَا نكرَهُ المَوتَ يا أبا حازم؟

أبُو حَازمْ ـ لأنكمْ خرَّبتمْ آخرَتكمْ، وَعَمَّرتمْ دُنيَاكمْ فأنتمْ تكرَهُونَ النقلةَ مِنَ العُمرَانِ إلى الخرَابِ.

سُليمَانُ ـ كيفَ القدُومُ عَلى الآخرَةِ؟

أبُو حَازِمْ ــ نعَمْ، أمَّا المُحسِنُ فإنه يَقدمُ عَلى الآخرَةِ، كالغائِبِ يَقدُمُ عَلى أهلهِ مِنْ سَفرٍ بَعيدٍ، وَأمَّا قدُومُ المُسيء، فكالعَبدِ الآبِقِ، يُؤخذ بهِ فيُشدُّ كِتافهُ، وَيُؤتى بهِ إلى سَيدٍ فظٍ غليظٍ فإنْ شاءَ عفا، وَإنْ شَاءَ عَذبَ.

سُليمَانُ ــ ليتَ شِعري «ليتني أعلمُ» مَا لنا عِندَ اللهِ يَا أبَا حَازمْ؟

أبُو حَازِمْ ــ اعرضْ نفسَكَ عَلى كِتابِ اللهِ، تعْرفْ مَا لكَ عِندَ اللهِ.

سُليمَانُ ــ وَأينَ أصِيبُ تلكَ المَعرفةَ فِي كِتابِ اللهِ؟

أبُو حَازِمْ ــ عِندَ قولِهِ تعَالى: ﴿إنَّ الأبرَارَ لفِي نعيمٍ ۝ وَإنَّ الفُجَّارَ لفِي جَحِيمٍ﴾.

سُليمَانُ ــ وَأينَ رَحمَةَ اللهِ يَا أبَا حَازمْ؟

أبُو حَازِمْ ــ ﴿إنَّ رَحمَةَ اللهِ قريبٌ مِنَ المُحسِنينَ﴾.

سُليمَانُ ــ يَا أبَا حَازمْ مَنْ أعقلُ النَّاسِ؟

أبُو حَازِمْ ــ أعقلُ النَّاسِ مَن تعلَّمَ العِلمَ وَالحِكمَةَ، وَعَلَّمَهُمَا النَّاسَ.

سُليمَانُ ــ فمَنْ أحْمَقُ النَّاسِ؟

أبُو حَازِمْ ــ مَنْ حَطَّ فِي هَوَى رَجُلٍ، وَهُوَ ظالمٌ، فبَاعَ آخرَتهُ بدُنيَا غيرِهِ.

سُليمَانُ ــ فمَا أسمَعُ الدُّعَاءَ؟

أبُو حَازِمْ ــ دُعَاءُ المُخبتينَ الخائِفينَ.

سُليمَانُ ــ فمَا أزكى الصَّدقةَ عِندَ اللهِ؟

أبُو حَازِمْ ــ جُهدُ المُقِلِّ.

سُليمَانُ ــ مَاذا تقُولُ فيمَا ابتُلينَا بِهِ؟

أبُو حَازِمْ ــ اعفِنَا عَنْ هَذا.

سُليمَانُ ــ نَصيحَة.

أبُو حَازِمْ ـ مَاذا أقُولُ فِي سُلطانٍ استَوليتُمْ عَليهِ عُنوَةً، بغَيرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُؤمِنينَ وَلا إجمَاعٍ مِنَ المُسلمينَ، فسَفَكتمْ فِيهِ الدِّمَاءَ، وَقَطَعتُمْ فيهِ الأرحَامَ، وَعُطِّلتْ بهِ الحُدُودُ، وَنُكِثَتْ بهِ العُهُودُ ثُمَّ لَمْ يَلبَثْ أجدَادُكَ أنِ ارتَحَلُوا عَنَّا، فيَا ليتَ شِعري مَا يَقُولُونَ؟ وَمَاذا يُقالُ لَهُمْ؟

ـ قالَ بَعضُ الجُلسَاء: بئسَ مَا قُلتَ يَا أبَا حَازِمْ.

أبُو حَازِمْ ـ اسكُتْ يَا كاذِبْ، فإنَّمَا أهلكَ فِرْعَونَ هَامَانُ، وَهَامَانَ فِرْعَونُ، إنَّ اللهَ قَدْ أخَذَ عَلى العُلمَاءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكتُمُونَهُ.

سُليمَانُ ـ كيفَ لنَا أنْ نُصلِحَ مَا أفسَدنَا؟

أبُو حَازِمْ ـ المَأخذ فِي ذلكَ قَريبٌ يَسيرٌ يَا أمِيرَ المُؤمِنينَ، أنْ تَأخُذَ المَالَ مِن حِلِّهِ، وَتَضَعَهُ فِي مَحَلِّهِ، أي فِي أهلِهِ، وَتَكُفَّ الأكُفَّ عَمَّا نُهيَتْ، وَتُمضِيَهَا فيمَا أمِرَتْ بِهِ.

سُليمَانُ ـ وَمَنْ يُطيقُ ذلكَ؟

أبُو حَازِمْ ـ مَنْ هَرَبَ مِنَ النَّارِ إلى الجَنَّةِ، وَنَبَذَ سُوءَ العَادَةِ إلى خَيرِ العِبَادَةِ.

سُليمَانُ ـ اصحَبْنَا وَتوَجَّهْ مَعنَا، تُصِبْ مِنَّا، وَنُصِبْ مِنكَ.

أبُو حَازِمْ ـ أعُوذ باللهِ مِنْ ذلكَ.

سُليمَانُ ـ وَلِمَ يَا أبَا حَازِمْ.

أبُو حَازِمْ ـ أخافُ أنْ أركَنَ إلى الذينَ ظَلمُوا فيُذِيقَنِي اللهُ ضِعفَ الحَيَاةِ وَضِعفَ المَمَاتِ.

سُليمَانُ ـ إنَّا عَهدنَا المُلوكَ يَأتُونَ العُلمَاءَ، وَلَمْ نَعهَدِ العُلمَاءَ يَأتُونَ المُلوكَ، فصَارَ في ذلكَ فلاحُ الفريقينِ، ثُمَّ صِرنَا الآنَ في زَمَانٍ صَارَ العُلمَاءُ يَأتُونَ المُلوكَ،

وَالمُلوكُ تـَقعُدُ عَنِ العُلمَاءِ، فصَارَ فِي ذلكَ فسَادُ الفرَيقيَنِ جَميعاً.

سُليمَانُ ـ أوْصِنـَا يَا أبَـا حَازم وَأوجـِز.

أبُو حَازمْ ـ اتـَّقِ اللهَ ألاَّ يَرَاكَ حَيثُ نـَهَاكَ، وَألاَّ يـَفتـَقِدَكَ حَيثُ أمَرَكَ.

سُليمَانُ ـ ادعُ لنـَا بخـَيرٍ.

أبُو حَازمْ ـ اللهُمَّ إنْ كانَ سُليمَانُ وَلِيـَّكَ فبَشـِّرْهُ بخـَيرِ الدُنيـَا وَالآخِرَةِ، وَإنْ كانَ عَدُوَّكَ فخـُذ إلى الخـَيرِ بنـَاصِيـَتِهِ.

سُليمَانُ ـ زدنِي.

أبُو حَازمْ ـ قـَدْ أوجَزتُ، فإنْ كُنتَ وَليـَّهُ فاغتـَبطْ، وَإنْ كُنتَ عَدُوَّهُ فاتعِظْ، فإنَّ رَحمَةَ اللهِ فِي الدُنيَا مُبَاحَةٌ وَلا يَكتـُبُهَا في الآخرَةِ إلاَّ لِمَنِ اتـَّقـَى فِي الدُنيَا، فلا نـَفعَ فِي قـَوسٍ تـُرمَى بـِلا وَتـَرٍ.

سُليمَانُ ـ هَاتِ يَا غـُلامُ ألفَ دِينـَارٍ.

أبُو حَازمْ ـ لا حَاجَةَ لي بهَا، لأنـِّي وَغـَيري فِي هَذا المَالِ سَوَاءٌ، فإنْ سَوَّيتَ بَينـَنـَا أخذتُ، وَإلاَّ فـَلا لأنـَّي أخـَافُ أنْ يَكـُونَ ثـَمَناً لِمَا سَمِعتَ مِنْ كلامِي، وَإنَّ مُوسَى بنَ عِمرَانَ لـَمَّا هَرَبَ مِنْ فِرْعَونَ، وَوَرَدَ مَاءَ مَديـَنَ، وَسَقـَى لِبـَنـَاتِ شـُعَيبٍ، دَعَاهُ شـُعَيبُ لِيُعطِيـَهُ أجْرَ مَا سَقـَى لِبـَنـَاتِهِ، فقالَ: لا نـأخـُذ عَلى المَعرُوفِ أجراً.

وَهذِهِ الدَّنـَانيرُ يَا أمِـيرَ المُؤمنينَ إنْ كانت ثمَناً لِمَا سَمِعْتَ مِنْ كلامِي فإنَّ أكلَ المَيتـَةِ وَالدَّمِ في حَالِ الضَّرُورَةِ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ آخـُذهَا!

سُليمَانُ ـ عِظنِي وَأوجـِز.

أبُو حَازِمْ ــ حَلالُ الدُنيَـا حِسَابْ، وَحَرَامُهَا عَذابْ، وَإلى اللهِ المَآبْ، فاتـّقِ عَـذابَـكَ أو دَعْهُ.

سُـليمَـانُ ــ قـَدْ أوجَزتَ، فأخبرنِـي مَا حَالـُكَ؟

أبُو حَازِمْ ــ الثـّـِقـَةُ بعَدلِـهِ، وَالتـَّوكـُّلُ عَلى كـَرمِهِ، وَحُسنُ الظنِّ بـِهِ، وَالصَّبرُ إلى أجَـلِهِ، وَاليَأسُ مِمَّا فِي أيدِي النـَّاسِ.

سُـليمَـانُ ــ ارفـَعْ إلينـَا حَوَائِجَكَ.

أبُو حَازِمْ ــ رَفـَعْتـُهَا إلى مَنْ لا تـُخـَذلُ دُونـَهُ، فمَا أعطـَانِـي مِنهَا قـَبِلتُ، وَمَا أمسَـكَ عَنـِّي رَضِـيتُ، مَعَ أنـِّي قـَدْ نـَظـَرْتُ فـَوَجَدْتُ أمْرَ الدُنيَـا يَؤولُ إلى شـَيئين: أحَدُهُمَا لِـي، وَالآخـَرُ لِغيري، فأمَّا مَا كانَ لِي فـَلو احتـَلتُ عَـليهِ بكـُلِّ حِـيلـَةٍ مَا وَصَـلتُ إليهِ قـَبلَ أوَانِهِ وَحِـينِـهِ الذي قـُدِّرَ لِـي. وَأمَّا الذي لِغيري فذلِكَ لا أطمَعُ فيهِ، فكمَا مَـنعَـنِي رزقَ غـَيري، كذلكَ مَـنعَ غـَيري رزقي، فعَلامَ أقـتـُلُ نـَفسِي فِي الإقبَـالِ وَالإدبَـارِ؟

سُـليمَـانُ ــ لا بُـدَّ أنْ تـَرفـَعَ إلينـَا حَاجَـةً نـَأمُرُ بقضَـائِـهَا.

أبُو حَازِمْ ــ فـَتـَقـضِـيَهَا؟

سُـليمَـانُ ــ نـَعَمْ.

أبُو حَازِمْ ــ فـَلا تـُعطِـنِي شـَيئاً حَـتـَّى أسْألـَكـَهُ، وَلا تـُرسِلْ إليَّ حَتـَّى آتِيـَكَ، وَإنْ مَرضْتُ فـَلا تـَعـُدنِـي، وَإنْ مِتُّ فـَلا تـَشهَدْنـِي.

سُـليمَـانُ ــ أبَـيتَ يَـا أبـَا حَازم، أبَـيتَ.

محمد بن مسلمة
وابن الحارث رئيس يهود خيبر

قالَ اللهُ تعَالى في مُحكمِ كِتابهِ، وَهُوَ أصْدَقُ القائِلينْ: ﴿إنْ يَمسَسكـُمْ قرحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مِثـلـُه وَتلكَ الأيامُ نـُدَاولـُهَا بَينَ النـَّاس وَليعلـَمَ اللهُ الذينَ آمَنـُوا وَيتخِذ مِنكـُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظالمينَ ۞ وَليُمحِصَ اللهُ الذينَ آمَنـُوا وَيمحَق الكافرينَ ۞ أمْ حَسبتـُمْ أنْ تدخـُلـُوا الجَنـَّةَ وَلمَّا يَعلـَمِ اللهُ الذينَ جَاهَدُوا مِنكـُمْ وَيَعلمَ الصَّابرينَ﴾.

إخوَة الإيمانِ وَالإسلامِ:

لمَّا بعَثَ عُمَرُ بنُ الخطابِ رَضيَ اللهُ عنهُ مُحمَّدَ بنَ مَسلمَة لإخراج اليَهُودِ مِنْ خيبَرَ وَتيمَاءَ، وَجَاءَهُمْ مُحَمَّدُ بنُ مَسلمَة، وَكان رَئيسَهُم يَومئذٍ ابنُ الحَارثِ، قالَ لهُمْ: ((إنَّ أميرَ المُؤمنينَ يأمُرُكـُمْ أنْ ترْحَلـُوا مِنْ جَزيرَةِ العَرَبِ)).

فقالَ الحَارثُ: ((لقد أقرَّنـَا رَسُولـُكـُم على البقاء في الأرض نزرَعُها عَلى شَطرِ مَا تـُخرجْ)) فقالَ مُحَمَّدُ بنُ مَسلمَة: ((كانَ ذلكَ أوَّلَ الإسلامِ، وَلكنهُ أوصَى قبلَ وَفاتِهِ أنْ لا يَبقى في جَزيرَةِ العَرَبِ دِينـَانِ)).

فلمَّا رَأى ابنُ الحَارثِ أنْ لا مَناصَ مِنْ ذلكَ قالَ: [لشَدَّ مَا تـُهتـُم علينا أيُّها الناسُ، فواللهِ ليكونـَنَّ لهَذا اليومِ الذي أذللتـُمُونا فيهِ وَفضَحتـُمُونـَا وَأجليتـُمُونـَا عَن أرضِ آبائِنا يومٌ مثـلـُه يكونُ لنـَا عليكـُمْ.

فقد جَاءَ في كـُتبنـَا أنـَّهُ سَيجيءُ يَومٌ تدخُـل اليهُودُ عَلى أبناء يَعرُبٍ هؤلاء فيُذيقوهُم بَأساً شديداً، وَعَذاباً أليماً، حتى تكونَ اللقمةُ في يَدِ المُسلمِ قد أدناها إلى فيهِ، فإذا عَلى رَأسِهِ رجَالٌ مِن أشداء

يَهُوذا تنفره حتى يدعها لهم، وَلتدخـُـلنَّ نساؤنا عَلى نسائِكُمْ حتى لا تبيتَ امرَأةٌ مِنْ نسائكُم إلا ّ باتتْ بشرٍّ ليلةٍ مِمَّا لاقتْ مِنْ نسائنـَا.

وَلنسُوقنـَّكُم كمَا سُقتمُونا حَتى نـُجليكـُمْ عَنْ دِيَار ِآبائكـُم وَأجدَادِكـُم، وَلنفعلـَنَّ الأفاعيلَ حَتى تكونَ لنا الكلمةُ العُـليا، وَنحنُ يَومئذٍ أحقُ بها، وَاللهِ مَا نصبرُ عَلى مَا آذيتمُونا إلا ّ انتظارا ً وَألما ً لمَا يكونُ غدا ً، كمَا قالَ لنا أنبياؤنا، وَكأنـِّي أنظرُ إلى غدٍ، فأرَى وُجُوهَ الأحبابِ منْ بني إسرائيلَ قدْ سقطتْ عليكمْ مِنْ كـُلِّ فجٍّ، كأنـَّهُم جَرَادٌ مُنتشرٌ تأكـُلُ يَابسَكـُم وَطريـَّكـُم، وَلا تدَعُ لكـُم مَوطِئَ قـَدَمٍ إلا ّ كانَ تحتـَهُ مثـلُ جَمر ِالنـَّار.

إنـَّكـُم لتقـُولـُونَ: إنَّ اللهَ قد ضَرَبَ عَلينا الذلة وَالمَسكنة، فإنْ صَدقتـُمْ اليومَ ـ إذ أمَرَ آمِرُكـُمْ ـ لتعلـَمُنَّ غـَدا ً أنـَّـنا شَعبُ اللهِ الذي لا يَرضَى اللهُ لـَهُ بالذلـَّة وَالمَسكنةِ، فقدْ كـُنـَّا مُـلوكَ الأرض ِ فدَالتْ دَولتـُنـَا كمَا دَالتْ قبلـَهَا دُولٌ.

وَلكنَّ اللهَ بالغُ أمرهِ، وَيَومَ تدُولـُونَ كمَا دُلنـَا، وَيَعُودُ الأمرُ إلينـَا فنحنُ قومٌ أولـُو بَأس ٍ شديدٍ، وَنحنُ أهلُ الكتـَابِ الأوَّل ِ، وَنحنُ أتبـَاعُ الحقِّ، فإذا جَاءَ ذلكَ اليومُ ـ يَا أبـَا عَبدِ الرَّحمَن ِـ فستعلمُونَ أيـُّنا أشَدُ بأسا ً، وَأشدُّ تـنكيلا ً.

فوَاللهِ لنـَـتـَّخذنـَّكـُمْ لنـَا أعوَانا ًعلى أنفـُسِكـُم، وَلنضربَنَّ غاديـَكـُم برَائِحِكـُم، وَمُـقبلـَكـُمْ بمُدبركـُم، وَلنـُوقِعَنَّ الفتنة َ بينكـُمْ حَتى يُصبحَ الرَّجلُ مِنكـُم مُؤمِـنا ً وَيُمسي كافِـرا ً، وَليَكونـَنَّ لنـَا منْ أنفـُسِكـُمْ رجالٌ يُخربُونَ بُيوتـَهُمْ، وَبُيوتَ آبائهمْ، وَهُمْ رَاضُونَ، وَلنـَا مُطيعُونَ].

قالَ أبو عَبدِ الرَّحمَن ـ مُحمَّدُ بنُ مَسلمَة ـ : فسَمِعْتُ الرَّجُـلَ يقولُ قولا ً كبيرا ً فقلتُ:

[لئنْ صَدَقَ أنبياؤكـُمْ فكانَ ذلكَ، فمَا صَدَقـُوا إلا ّ ليُصَدقـُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ في خبرهِ فأنتـُمُ اليومَ أشتاتا ً مُبعثرُون في جَنـَبَـاتِ

الأرض، وَليَزيدَنَّكُمْ رَبُّكُمْ فرُقةً وَشَتاتاً، فإذا جَاءَ ذلكَ اليومُ، فدَخلتُم علينا، وَعَلا أمرُكُم مِنْ حَيثُ يَشاءُ اللهُ فينَا، فلِكي تتمَّ عَليكُمْ كلمةُ اللهِ، وَليُعذبَكُمْ وَيستأصِلَ شأفتَكُمْ مِنْ أرضِهِ، وَلتكونُوا عبرةً لِلمُعتبرينَ مِن أمثالِكُم، فقد قالَ الصَّادقُ المَصدُوقُ عليهِ السَّلامُ:« تُقاتلكُمْ يَهودُ، فتَسَلَّطُونَ عليهمْ، حَتى يقولَ الحَجَرُ: يَا مُسلِمُ هَذا يَهُودِيٌ وَرَائي تعالَ فَاقتُلْهُ».

فوَاللهِ ليَكُونَنَّ ذلكَ كمَا أرَادَ اللهُ، وَيومئذٍ يَعضُ طُغاتُكُمْ وَطوَاغيتُكُمْ أطرَافَ البنانِ مِنَ النَّدَمِ، فالعَرَبُ يا ابنَ الحَارث لا يَنامُ ثائرُهَا، وَلا يُخطَمُ أنفُهَا بخُطَامٍ].

قالَ ابنُ عُمَرَ رَضيَ اللهُ تعَالى عنهُمَا: قلتُ يَا أبَا عبدَ الرَّحمَن، وإنَّ ذلكَ كائن؟ قالَ يَا بُنيَّ مَا عِلمي بالغيبِ، وَلكنهُ إذا جَاءَ فليقضيَنَّ اللهُ بينَنَا قضَاءً، وَيَكونُ يومَئذٍ فناؤهم علَى أيدينَا، فأمرُ المُسلمينَ إلى ظهُورٍ، وَأمرُ يَهوذا إلى حُكمِ اللهِ الذي ضرَبَهُ اللهُ عليهِمْ بالذلَّةِ وَالمَسكنَةِ إلاَّ بحبلٍ مِنَ اللهِ وَحبلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَاللهُ يَحكمُ لا مُعقِّبَ لِحُكمِهِ.

كتابٌ مفتوحٌ

إلى الفقهاء والأ ئمة والخطباء والمدرسين

قالَ اللهُ تعَالى في مُحكمِ كِتابهِ، وَهُوَ أصْدَقُ القائِلينْ: ﴿إنَّ الذينَ يَكتمُونَ مَا أنزلَ اللهُ مِنَ الكتابِ وَيشترُونَ بهِ ثمَناً قليلاً أولئكَ مَا يأكلُونَ في بُطونهمْ إلاَّ النَّارَ وَلا يُكلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ القيامَةِ وَلا يُزكِّيهمْ وَلهُمْ عَذابٌ أليمٌ ۞ أولئكَ الذينَ اشترَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى وَالعَذابَ بالمَغفرَةِ فمَا أصْبَرَهُمْ عَلى النَّارِ﴾.

حضرات الفقهاء والأئمة والخطباء والمدرسين:

السَّلامُ عَليكمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ وَبَعدْ: لَقَدْ دَرَستُمْ كِتابَ اللهِ تعَالى، وَاطَّلعتُمْ عَلى سِيرَةِ رَسُولِهِ ﷺ فعَرَفتُمْ كيفَ بَدأ دَعوَتَهُ،

وَأقـامَ دَولـتَـهُ، وَحَكـمَ النـَّاسَ بشَـرِعِ اللهِ، فـقـَدْ حَمَـلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ الرِّسَـالـةَ، وَأدَّى الأمَانـَـةَ، وَنـَصَحَ الأمَّـةَ، وَكشـفَ اللهُ بـهِ الغـُمَّـةَ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِـهَادِهِ، وَقالَ ﷺ: «ترَكتُ فيكـُم مَا إنْ تـَمَسَّـكتـُمْ بـهِ لـَنْ تـَضِلـُّوا بَعدِي أبَداً: كتابَ اللهَ وَسُنـَّـتِي». اللهُمِّ اجزهِ عَنـَّا خـَيرَ مَـا جَزَيتَ نـَبيـَّاً عَنْ قومِـهِ، وَرَسُولاً عَنْ أمـَّـتِهِ. ثـُمَّ انتقلَ ﷺ إلـى الرَّفيقِ الأعلـى، وَأنتـُمْ مَعشـَرَ الفـُـقهَاء وَالأئمَّـةِ وَالخـُطـَـبَاء الأمَنـاءُ عَلى رسَالتِهِ، وَالمُكلـَّـفـُونَ مِنْ بعدِهِ بحَملِ دَعوَتِهِ، وَتبليغِـهَا للنـَّاس.

لـقـد شَرَّفـكـُمُ اللهُ تعَالى بأنْ جَعَلـَكـُمْ مِنَ العُـلمَاء، وَمِنْ وَرَثــَةِ الأنبيَـاء، وَذلـكَ بحَمـلِ أطهَـر دَعـوَةٍ، وَأشـرَفِ رسَالـَـةٍ عَلـى وَجـهِ الأرض، ألا وَهِيَ رسَالةُ الإسلامِ، التي جَاءَنـا بهَا نـَبيـُّنـَا مُحَمَّـدٌ ﷺ مِنْ عِندِ اللهِ، بَيضَاءَ نـَقيـَّةً، ليلـُهَا كـَنهَارهَا،لا يَزيـغُ عَنهَا إلاَّ هَالِكٌ، وَلا يتـَـنكـَّبُـهَا إلاَّ شَقِيٌّ.

وَقـَدْ خـَاطـَبَ اللهُ سُبحَانهُ وَتعَالى رَسُولـَهُ ﷺ في بدَايَـةِ الدَّعوَةِ فقالَ جَلَّ مِنْ قائل: ﴿إنـَّا سَنـُـلقِي عَليكَ قـَولاً ثـَـقيلاً﴾. لـَقـَدْ حَمَلتـُمْ حِمـلاً ثقـيلاً نـَـاءَتْ بثِـقـَـلِهِ السَّـمَاوَاتُ وَالأرضُ وَالجبَـالُ، ألا وَهُـوَ الأمَانةُ، قالَ تعَالى: ﴿إنـَّا عَرَضنا الأمَانـةَ عَلى السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ وَالجبَالِ فـأبينَ أنْ يَحْمِلنـَـهَا وَأشفـَقـْنَ مِنهَا وَحَمَلهَا الإنسـانُ إنـَّهُ كـانَ ظلـُوماً جَهُولاً﴾.

فمَا هِيَ هَذِهِ الأمَانـَةُ ؟ إنـَّهَا أمَانــَةُ إظهَارِ الحَقِّ وَالبَوحِ بـهِ، وَعَدَمِ كتمَانِهِ، أمَانةُ تبليغِ أوَامِرِ اللهِ وَنـَوَاهيهِ، أمانـةُ تبليغِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ التي نزلَ بهَا الوَحيُ مِنْ اللهِ تعَالى، وَالمَوجُودَةِ فـي كتـابِ اللهِ وَسُنـَّةِ نـَبيـِّهِ ﷺ، أمَانـَةُ الأمرِ بالمَعرُوفِ، وَالنـَّهي عَنِ المُنكر.

إنَّ اللهَ سُبحَانـَهُ وَتعَالى قـَدِ امتدَحَكـُمْ بقولِـهِ: ﴿كـُنتـُمْ خـَيرَ أمَّـةٍ أخرجَتْ لِلنـَّاسِ تأمُرُونَ بالمَعرُوفِ وَتنهَونَ عَنِ المُنكـَرِ وَتـُؤمِنـُونَ بـاللهِ﴾. فـَكـُونـُوا عِنـدَ مَـدحِ اللهِ لكـُمْ، كـُونـُوا كمَـا أرَادَكـُمُ اللهُ رَبُّ

العَالمينَ. لَقَدْ كُنتُمْ وَكانَتْ أمَّتُكُمْ خَيرَ أمَّةٍ يَومَ كنتمْ تعتصِمُونَ بحَبلِ اللهِ تعَالى، كنتمْ خيرَ أمَّةٍ يَومَ كنتمْ أمَّةً وَاحِدَةً مُوَحَدَةً، يَنصُرُ بَعضُكُمْ بَعضاً، كنتمْ خيرَ أمَّةٍ يَومَ كانَ وَلاؤكُمْ لحَاكِمٍ وَاحِدٍ، يَسُوسُكمْ بكتابِ اللهِ، وَيَرعَاكُمْ بشَرعِ اللهِ، وَيقودُكمْ إلى الجهَادِ فِي سَبيلِ اللهِ.

وَهَاهُمْ حُكّامُكمْ قَد ألغَوا في قوانينهِمُ الجهَادَ في سَبيلِ اللهِ، وَصَارَ المُجَاهِدُ فِي نظرهِمْ إرهَابياً، فوَصَلَ الحَالُ إلى مَا وَصَلَ إليهِ مِنَ الذلِّ وَالهَوَانِ مِمَّا لا يَخفى عَلى حَضَرَاتِكُمْ، فقَدْ صَارَ المُسلمُ يُولَدُ فلا يُؤبَهُ لَهُ، وَيَعيشُ فلا يُعتَنى بهِ، وَيَمُوتُ فلا يُحزَنُ عَليهِ، وَيُقتَلُ فلا يُثأرُ لَهُ. وَإنَّ مَا يَجري الآنَ في فِلَسطينَ وَالعرَاقَ وَأفغانِستانَ وَالشيشانَ الجَزائِرَ وَكشميرَ، وَمَا جَرَى مِنْ قَبلُ في البُوسنَةِ وَالهرسِكِ وَكسُوفُو مَا يُغني عَنِ الدَّليلِ.

حضرات الفقهاء والأئمة والخطباء والمدرسين:

• كُونُوا عِندَ تشريفِ اللهِ لَكُمْ بتعليمِكُمُ النَّاسَ العِلمَ الذي يُوجِدُ فيهِمُ الوَعيَ عَلى دِينهِمْ، فيَرفعُ مِنْ شأنهِمْ، وَيَنهَضُ بهِمْ، وَيَجعلُ توَجُّهَهُمْ نحوَ قضَايَاهُمُ المَصيريَّةِ كقضيَّةِ العَودَةِ إلى الحُكمِ بكِتابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ باعتبَارهِمَا ذلكَ التَّحَدي لِلقوانينِ الوَضعيَّةِ الفاسِدَةِ المُستمدَّةِ مِنْ قوانينِ الكُفرِ وَحَضَارَتِهِ.

وَكقضيَّةِ وَحدَةِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ برَفعِ الحُدُودِ بَينَ أقطارهَا، لِتستطيعَ بمَجمُوعِ اقتصَادِهَا أنْ تَبنيَ لهَا قُوَّةً تُرهِبُ بهَا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّهَا، وَلتأخُذ مَكانهَا بَينَ الشُّعُوبِ وَالأمَمِ.

• كُونُوا أمنَاءَ عَلى مَا ائتَمَنَكُمُ اللهُ، وَإيَّاكُمْ وَكِتمَانِ بَيَانِ مَا أنزَلَ اللهُ، وَهُوَ سُبحَانَهُ القَائِلُ: ﴿إنَّ الذينَ يَكتُمُونَ مَا أنزلنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أولئكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾.

• عَلـِّمُوا النـَّاسَ أنَّ الأمَمَ المَيـِّتـَةَ تحيَا بحَمل ِالرَّسَالـَة، وَتـَمُوتُ الأمَمُ الحَيـَّةُ بترك ِحَملهَا، وَذلكَ لـِيَتطلـَّعُوا إلى أيـَّام ِعزِّهمْ وَقـُوَّتهمْ يَومَ كانـُوا حَمَـلةَ رسَالـَةٍ، وَليَتـَّعِظـُوا مِنْ وَضعهمُ الحَالِي بَعدَ تركهمْ حَملَ الرِّسَالـَة، وَترك ِالعَمَـل ِبهَا.

• عَلـِّمُوا المُسلمينَ كيفَ جُزئـَتْ بلادُهُم، وَغـَدَوا كالأيتام ِعَلـى مَآدِبِ اللـِّئام ِبَعدَ زَوال ِدَولـَةِ الإسلام ِ، فلا رَاعِيَ لـَهُم يَصُونُ دِمَاءَهُمْ، وَيَحفظ ُلـَهُمْ كرَامَتهُمْ. لا تـَقتـَصِرُوا فِي تعليم ِالنـَّاس ِعَلـى العبَادَاتِ وَالأخلاق ِوَالقضَايَا الجُزئيـَّةِ فحَسْب، وَتتركـُوا القضَايَا المَصيريـَّةَ، مُـلتزمِينَ بحُدُودِ الوَظيفةِ، وَاللهُ سَائِلـُكـُم عَمَّا ائتمَنـَكـُمْ عَليهِ مِنَ العِلم ِ، كـُونـُوا مِمَّنْ قالَ اللهُ تعَالى فيهمْ : ﴿الذينَ يُبـَلـِّغـُونَ رسَالاتِ اللهِ وَيَخشونـَهُ وَلا يَخشَونَ أحَداً إلا َّ اللهَ وَكفى باللهِ حَسِيباً﴾.

• عَلـِّمُوا النـَّاسَ أحْكـَامَ دَار ِالإسلام ِوَدَار ِالكـُفر ِوَأنَّ الـدَّارَ تـَكونُ دَارَ إسلام ٍبظـُهُور ِوَبتـَفـَوُّق ِأحكام ِالإسلام ِفيهَا وَتكونُ دَارَ كـُفر ٍبظـُهُور ِأحكام ِالكـُفر ِفيهَا كمَا هُوَ حَاصِلٌ اليَومَ.

• عَلـِّمُوهُمْ أنَّ المُسلمَ الذي يَرتكِبُ إثماً، وَتـُنفـَّذ فيهِ العُقوبَةُ الشرعيَّةُ، تـَسقـُط ُعَنهُ عقوبَة ُالآخرة. وَأنَّ إقامَة حَدٍّ مِنْ حُدودِ اللهِ في الأرض ِخيرٌ لأهل ِالأرض ِمِنْ أنْ يُمطـَرُوا أربعينَ صَباحاً، ليزدَادَ تطلـُّعُهُم إلى العَودَةِ لشرع ِاللهِ فلا يَبقـَونَ مَحرُومينَ مِنْ هَذِهِ النـِّعمَة.

• عَلـِّمُوهُم أحكامَ الصُّـلح ِمَعَ العَدُوِّ، وَأنـَّهُ لا يَجُوزُ أنْ تكونَ غـَيرَ مُحَدَّدَةٍ بزَمَن ٍ.

• عَلـِّمُوهُمْ أنَّ التـَّقيُّدَ بأنظمَةِ الأمَم ِالمُتـَّحِدَةِ وَمَجلِس ِالأمن ِالتي تـَقتـَضِي مُقاطعَةَ أي قـُطر ٍإسلامِيٍّ حَرَامٌ لا يَجُوزُ التـَّقيُّدُ بهَا.

• عَلـِّمُوا النـَّاسَ أنَّ نزعَ أسلِحَةَ الدَّمَار ِالشَّامِل ِمِنَ الأقطار ِالإسلاميَّةِ حَرَامٌ، فيهِ مُخـَالفـَة ٌلقولِهِ تعَالى: ﴿وَأعِدُّوا لـَهُمْ مَا

استـَطعْـتـُمْ مِنْ قـُوَّةٍ وَمِنْ رباطِ الخـَيل ِ تـُرهِبُونَ بـِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكـُمْ﴾.

• أنزلـُوا الأحكامَ عَلى الوَقائع ِ وَالأحدَاثِ الجَاريَةِ كمَا كانَ القـُرآنُ يـَتـَنزَّلُ مُنجَّماً حَسَبَ الحَوَادِثِ، وَذلِكَ لِكي يَعرفَ النـَّاسُ الحُكمَ الشَّرعِيَّ في كـُلِّ حَادِثـَةٍ تـَحْدُثُ. فـَلـَقـَدْ عَلـَّمَنـَا الوَحْيُ كيفَ نـُعَلـِّمَ أمَّـتـَنـَا أحَكامَ دِينِـنـَا، وَبَيَّنَ لنـَا فِي كِتابِ رَبـِّنـَا وَسُنـَّةِ نـَبيـِّنا طريقـَةَ تـَعليمِـهَا، وَإنـَّهُ باستقرائِنا لأسبَابِ نـُزُولِ القـُرآنِ الكريمِ مِنْ قـَبـَل ِ الوَحْي ِ، نـَعرِفُ كيفَ نـُعَلـِّمُ أمَّـتـَنـَا أحكامَ دِينهَا، لكي تكونَ وَاعيَةً عَلى الإسلامِ وَعَلى أحكامِهِ، وَعياً شَامِلاً لِجَميع ِ نـَوَاحِي الحَيَاةِ، وَإليكـُمُ القـَليلَ مِنَ الأمثـِلةِ عَلى مَا أشَرنـَا إليهِ مِنْ وُجُوبِ تعليم ِ الأمَّةِ مَا يَلزَمُهَا فِي السِّيَاسَةِ وَالاجتمَاع ِ وَالاقتصَادِ وَالفِكر ِ وَتنزيل ِ الأحكام ِعَلى الوَقائع ِ وَالأحدَاثِ:

أولاً : النواحي الاجتماعية:

١. حَدَثَ أنَّ أوسَ بنَ الصَّامِتِ ظـَاهَرَ مِنْ زَوجَـتِهِ خـَولـَةَ بنتِ ثعلبَة، أيْ حَرَّمَهَا عَلى نفسِهِ كمَا تحْرُمُ عَليهِ أمُّهُ، فاشتكتْ إلى رَسُول ِ اللهِ ﷺ فنزلَ الوَحيُ بقولِهِ تعَالى: ﴿قدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تـُجَادِلـُكَ في زَوجِـهَا﴾. وَاستمَرَّ نـُزُولُ الآيَاتِ التي تـُبيِّنُ الحُكمَ الشَّرعِيَّ فِي مَوضُوع ِ الظـِّهَار.

٢. وَفِي حَادِثـَةِ الإفكِ التي أشيعَتْ حَولَ أمِّ المُؤمنينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا، فأحرجَتْ وَأحرجَ أبُوهَا وَزوجُها ﷺ فنزَلَ الوَحْيُ يُبَرِّئـُهَا بقولِهِ تعَالى: ﴿إنَّ الذينَ جَاءُوا بالإفكِ عُصبَةٌ مِنكـُم﴾.

ثانياً : النواحي الاقتصادية:

١. عِندَمَا اختـَلفَ المُسلمُونَ فِي شأن ِالغنائِم التي حَصَلـَتْ لهُمْ بَعدَ مَعركةِ بَدر ٍ نزَلَ الوَحْيُ بقولِهِ تعَالى: ﴿يَسألـُونـَكَ عَن ِالأنفال ِ قـُل ِ الأنفـَالُ للهِ وَالرَّسُول ِ﴾. فبَيَّنَ الوَحْيُ الحُكمَ الشَّرعِيَّ فيمَا يَؤولُ مِنَ

الغنائِمِ مِنْ أيدِي الأعدَاء إلى المُقاتِلِينَ المُسلمينَ، فجَعَلَ الحَلَّ بيَدِ رَئيسِ الدَّولَةِ أي بِيَدِ خَليفَةِ المُسلمينَ يُوزعُهَا حَسَبَ رَأيهِ وَاجتهَادِهِ.

٢. بَعدَ انتصَار المُسلمينَ عَلى الفرُسِ في العِرَاق، طَلبَ المُقاتِلونَ مِنْ عُمَرَ بن الخطَّابِ أنْ يُقسِّمَ بينهُمْ أرضَ العِرَاقِ، وَكانَ الوَحْيُ قدِ انقطعَ بَعدَ وَفاةِ الرَّسُولِ ﷺ فنظرَ عُمَرُ فيمَا نزَلَ فيمَا هُوَ شَبيهٌ بأرضِ العرَاقِ، فاهتدَى إلى الحُكمِ الشَّرعِيِّ الذي يَجعَلُ أرضَ العِرَاقِ، وَكلَّ أرضٍ تُفتحُ عُنوَةً بسُيُوفِ المُسلمينَ، هِيَ وَقفٌ عَلى المُسلمينَ حَتى تقُومَ السَّاعَةُ، وَلا يَحِلُّ لأحَدٍ أنْ يتنَازَلَ عَنهَا أويُصَالِحَ عَليهَا مَعَ العَدُوِّ، وَكانَ عُمَرُ قدِ استدَلَّ بخَمْسِ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الحَشرِ بَدءاً مِنْ قولِهِ تعَالى: ﴿وَمَا أفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنهُمْ فمَا أوجَفتمْ عَليهِ مِنْ خيلٍ وَلا ركابٍ﴾. إلى قولِهِ تعَالى: ﴿وَالذينَ جَاءُوا مِنْ بَعدِهِمْ يَقولُونَ رَبَّنَا اغفرْ لنَا وَلإخوانِنا الذينَ سَبقُونا بالإيمانِ وَلا تجعَلْ فِي قلوبِنَا غِلاً لِلذينَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ثالثاً: النواحي الحربية:

عِندَمَا أرْسَلَ النَّبيُّ ﷺ عَبدَ اللهِ بنَ جَحشٍ لِمُرَاقبَةِ تحَركَاتِ قرُيشٍ وَأوصَاهُ أنْ لا يُحدِثَ شيَئاً إلاّ أنَّ الزُّبيرَ بنَ العَوَّامِ رَمَى بسَهمٍ عَلى قافِلَةٍ كانتْ مُتَّجهَةً إلى مَكَّةَ فقُتِلَ عَمرُو بنُ الحَضرمِيِّ، فاستغلَّتْ قُرَيشٌ هَذا الحَدَثَ وَاتَّهَمَتِ النَّبيَّ وَصَحبَهُ بأنَّهُمُ استحَلُّوا الشَّهرَ الحَرَامَ، وَاستاءَ النَّبيُّ ﷺ مِمَّا حَصَلَ فنَزلَ الوَحْيُ وَأجَازَ القِتَالَ فِي الأشهُرِ الحُرُمِ طَالمَا أجَازَتْ قُريشٌ لِنفسِهَا الصَّدَّ عَنْ سَبيلِ اللهِ، وَإخرَاجَ أهلِ الحَرَمِ مِنهُ، وَفتنتَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فصَارَ الحُكمُ فِي حَالةِ الحَرْبِ هُوَ التَّعَامُلُ مَعَ العَدُوِّ بالمِثلِ، فإنْ قتَلُوا أسرَانا نقتلْ أسرَاهُمْ، وَإنِ امتنَعُوا عَنِ السَّبيِّ نمتنِعُ وَهَكذا.

رابعا: سياسة الأمن الداخي:

عِندَمَا تَجَهَّزَ الرَّسُولُ ﷺ لِفتحِ مَكَّةَ كتَبَ حَاطِبُ بنُ أبي بَلتعَةَ كِتاباً يُخبِرُ فِيهِ قُريشاً بمَا عَزَمَ عَليهِ الرَّسُولُ ﷺ وَبَعَثَهُ مَعَ امرَأةٍ، فَنَزَلَ الوَحْيُ وَأخبَرَ الرَّسُولَ ﷺ بذلكَ فبَعَثَ عَلياً وَالزُّبيرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا وَأحضَرا الرِّسَالَةَ، فَنَزَلَ قَولُهُ تعَالَى: ﴿يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أولِيَاءَ تُلقُونَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخرجُونَ الرَّسُولَ وَإيَّاكُمْ أنْ تُؤمِنُوا باللهِ رَبِّكُمْ إنْ كُنتُمْ خَرَجتُمْ جِهَاداً في سَبيلي وَابتغَاءَ مَرضَاتِي تُسِرُّونَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ وَأنَا أعلَمُ بمَا أخفيتُمْ وَمَا أعلَنتُمْ وَمَنْ يَفعَلْهُ مِنكُمْ فقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبيلِ﴾. وَهَذا المِثالُ فِي سِيَاسَةِ الأمنِ الدَّاخِلي، وَمِنهُ التَّجَسُّسُ، وَتَرِكَ الحُكمُ فيهِ لرَئيسِ الدَّولَةِ، إنْ شَاءَ عَفَا، وَإنْ شَاءَ عَاقَبَ.

خامساً: السياسة الدولية:

عِندَمَا حَصَلَ جِدَالٌ بَينَ أبي بَكرٍ وَقُرَيشٍ فِي شَأنِ دَولتي الفُرسِ وَالرُّومِ وَهُمْ أهلُ كِتابٍ، قَالَ أبُو بَكرٍ: «سَتَغلِبُ الرُّومُ الفُرسَ» وَتَرَاهَنُوا، وَأقرَّ الرَّسُولُ ﷺ أبَا بَكرٍ عَلى ذلكَ، فَنَزَلَ قَولُهُ تعَالى: ﴿ألم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أدنى الأرضِ وَهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِمْ سَيَغلِبُونَ ۞ فِي بضعِ سِنينَ للهِ الأمرُ مِنْ قَبلُ وَمِنْ بَعدُ وَيَومَئذٍ يَفرَحُ المُؤمِنُونَ ۞ بِنَصرِ اللهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحِيمُ﴾. وَهَذا المِثَالَ فِي السِّيَاسَةِ الدَّوليَّةِ، وَهُوَ إقرَارٌ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ عَلى جَوَازِ الانشغالِ بالسِّيَاسَةِ الدَّوليَّةِ لمَعرفَةِ مَا يُصيبُنَا مِنهَا مِنْ نَفعٍ أو ضَرَرٍ.

حضرات الفقهاء والأئمة والخطباء والمدرسين:

يَجبُ عَليكُمْ أنْ تَهتَمُّوا بكُلِّ مَا يَحدُثُ فِي مُجتمَعِنَا، وَفِي السِّيَاسَةِ المَحليَّةِ وَالدَّوليَّةِ وَالأحدَاثِ العَالميَّةِ، وَعَنْ عَلاقتهَا بأمَّتِنَا، وَأنْ تُبيِّنُوا الحُكمَ فِي كُلِّ مَا لَهُ عَلاقَةٌ بالمُسلمينَ.

هَكذا عَلَّمَنَا الوَحْيُ، كيفَ نُظهرَ الحَقَّ، وَنَبُوحَ بهِ وَلا نكتُمَهُ، وَلا نُطيعُ مَنْ يَقُولُ لنَا: لا تَتَحَدَّثُوا في السِّيَاسَةِ، لأنَّ السِّيَاسَةَ عَلى حَدِّ رَأيِهِ ليسَتْ مِنَ الدِّينِ، وَلأنَّ عَقيدَتَهُ ليسَتِ العَقيدَةَ الإسلاميَّةَ القائِمَةَ عَلى الجهَادِ وَالقِتَالِ لِقَولِهِ ﷺ: «أمِرْتُ أنْ أقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشهَدُوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ» وَإنَّمَا عَقيدَتُهُ هِيَ العقيدَةُ الكهَنُوتيَّةُ النَّصرَانيَّةُ التي لا دَخلَ لهَا في شُؤونِ الحَيَاةِ .

وَاللهَ أسْألُ أنْ يُسَدِّدَ خُطاكُمْ وَيُعينَكُمْ عَلى تَحَمُّلِ مَسؤوليَّاتِكُمْ أمَامَ رَبِّكُمْ.

احذر أن تكون هذا الرجل

لا تكن ممن يَرجُو الآخرة بغير العمل، ويُرْجي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين: إن أعطي منها لا يشبع، وإن مُنع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبغي الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت له.

إن سقم ظل نادمًا، وإن صحَّ أمن لاهيًا، يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقنط إذا ابتُلي، إن أصابه بلاءٌ دعا مضطرًا، وإن ناله رخاء أعرض مغترًا، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بإدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر مما عمله.

إن استغنى بطر وفُتن، وإن افتقر قَنِط ووهن، يقصِّر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل، إن عرضت له شهوة ألِفَ المعصية، وسوَّف

التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة، أي انخلع وابتعد عن الثبات والصبر.

يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ ، فهو بالقول مدل، ومن العمل مقل، ينافس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى. يرى الغُنم مغرمًا، والغرم مغنمًا.

يخشى الموت، ولا يبادر الفوت، يستعظم من معصية غيره ما يستقلُّ أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن، واللهو مع الأغنياء أحبُّ إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، ويرشد غيره ويغوي نفسه، فهو يطاع ويعصي، ويستوفي ولا يوفي، ويخشى الخلق في غير ربه، ولا يخشى ربه في خلقه.

إياك أن تقول: أنا لستُ هذا الرجل! كلنا في هذا الزمن العجيب قد أصيب بداء من هذه الأدواء، لا تستثن نفسك، فإنك إذاً تبالغ في الإساءة إليها.

فلا تكن هذا الرجل، يرى ذنب غيره ولا يرى ذنبه، يتهم الآخرين ولا يتهم نفسه، ينشط باستنكار ما يبدر من الناس، ويغفل عن أفعاله وتصرفاته.

لا تكن هذا الرجل يستعظم مصائب الآخرين، ويستقل مصائب نفسه، يطعن بإخوانه، ويداهن نفسه. يستكثر عمله وعبادته، ويحتقر عبادة غيره وعملهم. فاحذر أن تكون هذا الرجل.

أحداث أمريكا

إنَّ الزلزال الذي هزَّ أمريكا، وصغَّر حجمها، وحطم كبرياءها، وأذهب هيبتها لجدير أن يجعلها تفكر تفكيرًا عميقًا وكثيرًا في الإقلاع عن عدوانها، والتخلي عن غطرستها، واحتقارها للشعوب الضعيفة. وإنَّ شعور قادة الولايات المتحدة بقيام القيامة في بلدهم، وفرارهم وهروبهم في شوارع كبريات مدنهم، وارتباكهم وذهول

مخابراتهم لأمر كافٍ أن يُراجعوا حساباتهم، ويكفوا عن الادعاء بأنهم أهل الحريات، ودعاة حقوق الإنسان، ورعاة السلام.

أليس هم الذين ضربوا هوروشيما بالقنابل الذرية المحرَّمة دوليا؟ وأليس هم الذين قتلوا الملايين في فيتنام؟ أليس هم الذين ضربوا ملجأ العامرية فقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ العزل الابرياء؟

أليس هم الذين ضربوا ليبيا والسودان بالصواريخ والطائرات؟ أليس هم الذين يقفون جنبًا إلى جنب مع اليهود الذين يهدمون مساكن الفلسطينيين ويقتلون أطفالهم ونساءهم وشيوخهم ويدمرون مزروعاتهم ويحاصرون مدنهم ويضربونها بالدبابات والطائرات والمدافع والصواريخ؟

نماذج من شعري نتيجة انفعالي مع الأحداث

(١٩٢٨م)

شكر لصديق عزيز

يا صاحب القاموس يا نعم الفتى
شكرًا إليك أوجه وأودعُ
شكرًا على طول الزمان أزفُّهُ
لمن القلوب لفراقه تتصدعُ
إن كنت أشكو من فراق مصاحب
أشكو فراقكمو وعيني تدمع
إني لأرجو أن يكون لقاؤنا
في حال عز والمخيم بلقع
والعدل في الأرض استتبَّ لطالبٍ
يرنو إليه وقلبه يتوجع
ونقول للبغي ارتحل من أرضنا
والقلب من حنق عليكم يترعُ
إن تجنحوا للسلم لا نجنح لها
أو تجنحوا للحرب فهي الأروعُ
إن تعصفوا أو تنصفوا تبًا لكم
سحقًا لما أنشأتموه ومفجعُ
وقل اعملوا فالظالمون مصيرهم
يومًا تُشق قُلوبهم وتُقطَّعُ

* * *

(١٩٥٥م)

صوت الجزائر

رددوا صــوت الجزائــرْ واعصفوا حصن الغوادرْ
وانشدوا مجـــدًا عزيـزًا فـي ظـلام الليـــل حائـرْ
واستفيقــوا مــن سبـــاتٍ قاتـــمٍ يُعمـــي البصائـــرْ
للهـدوا للنـــور هُبــــُّوا وابشـري أرض الجزائـرْ
ســـدَّد الثـــوار سهمـــًا صائبــًا جيـش الغـوادرْ
فاندبـــي جنـــدً فرنســـا غاشمـــًا للمـوت صائـرْ

* * *

رددوا صــوت الجزائــرْ واعصفوا حصن الغوادرْ
واسمعـوا منـــه فرنســـا ترتعد مـن صـوت ثائـــرْ
يـــا فرنســـا إنَّ هـــــذا فعـــل أقـــوامٍ برابـــرْ
رجعـي الذكرى قرونـــًا تلمـــس فعـــل المغـــاورْ
تذكرينـــا يـــوم كنُنَّـــا ســـادةً بيـــن الحواضـرْ
جولــــة جلنـــا فكانـــت أرضكم تحــت البواتـــرْ
للهـــدى للنـــور جئنـــا لا لظلـــمٍ فينـــا جائـــرْ
ثـــمَّ عـــاد الجهـــل فينـــا فاغتصبتينـــا الجزائـــرْ
فاستفقنـــا مـــن سُبـــاتٍ وانبرينـــا للنـواظـــــرْ
قـد تنـــادت واستجابــت للنـدا جمـــع الخواطـــرْ
ولنُعِـدْ للماضـي عهـــدًا مُحييـًا ذكـر الغـوابـــرْ
وليعُـــــد للثـــأر يـــومٌ فـي دم الأحـــرار ثائـــرْ
غافقـــيِّ المجـــد فينـــا فاتركـــي أرض الجزائـــرْ

(١٩٥٨م)

شعورٌ بخيبةِ الأمل

خطــب ألــمَّ بساحتــي يا خـُـلـَّـتــي
فاستعجــم الأمــر وقلــت حيلتــي

خطب عظيم شـبَّ نيـران اللظـى
أوهـى بعزمــي فاستكانــت همتــي

فأخــذت أصــرخ صائحـــًا لكنمــا
صَمَمٌ أصاب القوم خلـوا نصرتـــي

فأبــت علــيَّ النفسُ وهــي كريمـــةٌ
استرحــم الباغــي يخفــِّـف شـدتــي

فلبثــت فــي همِّــي أقاســي مــرارةً
ولشـدمـا كنـــتُ السَّعيـــدَ بغبطتـــي

فدعـــوت للهيجـــا ملوكـــًا صُلفـــًا
فأتـــوا سراعـــًا يهرعـــون لنجدتـــي

خانوا العهود وكـُـلُّ ميثـاق جــرى
باعوا شبابـــي لليهـــود فحسرتـــي

فدعوت ربي أن يجـازي جموعهـم
بصنيعـــهـــم فهــو القــوي العـــزة

فأتـت صـروف الـدهر فـي طياتهـا
نـــذرُ الدمـــار قـد استجيبت دعوتي

فـــاروق ولـَّــى والحيــاة ذميمــــةٌ
والعين تبكـي مــن فراقــي أحبتــي

نوري السعيدُ وكل مـن يصغـي لـه
فــي ليلـــة ليـــلاء دهمـــا الظلمـــة

محيت رسوم ديارهم وقصورهـم
أجسادهـــــم نتفـــًا بكــــلِّ مفـــازة

واستفحـــل الأردن ليس بواجـــفٍ
و.............. بــاغٍ لـم يبـال بشـدةِ
خلــت عليـه صـروف دهـر غاشـم
فالظلـم والإرهــاب فيمــن خلـــَّتِ
ولســـوف تأتيــه المنيـــة فجـــأةً
فيقــال ويهــا يــا سليـل الـدوحـــةِ
وهنا أعود لذكــر رهــط أصبحــوا
زعمــاء يعــرب فـي ظلال الغفلــة
وضعـوا سياسـة شعبهـم وبـلادهم
يتصـرفــون بهـــا رجـــال الهيئـــةِ
فـــي هيئـــة دوليـــة أمنـــوا لهـــا
رغـم الذي لاقـــوه منـــذ التسعـــةِ
سمحــوا لهـــا بتدخـــل متواصـــلٍ
فـــي كـــل أمـر حتـى شـأن الساسة
أيــن الزعامـــة والبطــولات التـــي
ألبستمــوهــا مــن الثيــاب الرثــــةِ
بليت وبـان مــن الــوراء عوارهـــا
فاستــر (جمـال) خليـج سينا بفِرقـةِ
وامنــع يهــود مــن العبور ببحرنا
مــا بـــال غـــزة لا تـــزال بعزلـــةِ
عبـــد الكريـــم بجنـــده وبشعبـــه
ما زال فـــي حلـف بغـداد بربقـــةِ
إن لـم تخرجــوا خبرونـــي بربكـــم
مـــا بـــال فيصـل تقتلـــوه بطلقـــةِ

أحسيــن يامــن قـد دعيـتَ بطــارد
المستعمريـــن وشبل ِكـل عرينــةِ
اقصر لسانـك حيـن تطلـب نجـدة
من أشعـب يبغـي سريعًـا قتـلتــي
عــارٌ وعيــبٌ أن تمُدَّ يـد الرجــاء
مُستجديـًا وتريـــد أيَّ معونـــةِ
وشهاب في لبنــان يرفـــل لاهيــًا
هذا الــذي يرعــى رجــال الثــورة ِ
يا ثــورة بعــتِ الشبـاب رخيصـــةً
أرواحُهُــم تهفــوا ليــوم النصـــرةِ
ســـلامُ أفـنيــتَ الشبــابَ فـليتـهُــم
علمــوا بمــا تطويــه كـل سريــرةِ
علمـوا بـأنَّ رشيـد يبقـى محافظــًا
يرعــى لأعدائنـــا كـــل صداقـــةِ
أيــن العقــول تفيـق مــن غفلاتهــا
فتعـــي علـــى الداعيـــن للقوميـــةِ
مـل السمـــاع نهيقهـــم وعواءهـــم
وتبايـــن الـــرأي السقيـــم بفرقـــةِ
عبـد الكــريـم كــذا جمـال تباينتمــا
وأبـــو رقيبـــة والجمـــال بثـــورةِ
عجبــًا لقـــوم يدعـــون عروبـــة
يتـــراشقــون الشتــم ويـل الغلمـــةِ
أوهــذي رابطـــة العروبــة بينكـم
أم بعـــد شــــيءٌ يزيـــد سفاهـــةِ

بلــه الروابـــط إذ تـُفــرق جمعكــم
وخـذوا مـن الإســلام خيــر وثيقــةٍ
لاح النهــار لأعيـــن قــد أبصـرت
نـور الهـدى يدحـو ستــار الظلمــةِ
نـــور الحقيقـــة ساطـــع بضيائـــه
لـَمَـسَ العيـونَ أزالَ كــلَّ غشــاوَةِ
ووعت عليه عقـول رهط أصبحـوا
يتقيـــدون بمـــا يقـــول بحكمـــةِ

* * *

(١٩٩٢م)

قد آن الأوان إلى الكفاحِ

بعـد سـقوط الشـيوعية طلـب ((بـوش)) مـن حلـف النـاتو أن يوجهوا أسلحتهم تجاه العدو الخطير الزاحف عليهم من الجنوب وهو الإسلام.

ألا يــا نائمـًا يكـفيـك نـــومًـا فهل في النوم ترجـو مـن فلاحِ
تنــامُ الليـل تبقــى فـي سُبــاتٍ أتــاك أتــاك عمـَّـاق الجـراحِ
عـدوٌ قـــد تجمـع فـي وثـــاقٍ وأنتَ تغـُطُّ نـومًا في المراحِ
بلادُك أفسِدَتْ في كـُلِّ شـيءٍ وعــمَّ فسـادُهـا كـُلَّ النــَّـواحِ
تنبـَّه واستـفـق إن كـنـتَ شهمًا فـقـــد آن الأوان إلـى الكفـاحِ

* * *

فــهذا ((بـوشٌ)) وجـَّـه كـُلَّ حقدٍ إلى الإسلام ذي الدين الأصيلِ
وقـد وضـع المخطط منذ حيـنٍ وأنتـــم فـــي منـــامٍ أو مَقيـلِ
وهـــدَّدَ أهلنـــا في كـُلِّ قـُـطرٍ وروَّضهــم بأسلـــوبٍ ثـقيــلِ
وحكـــامٌ لنـــا قبلـُوا أطاعـُوا تخلـَّـوا عـن مُحاربَةِ الـــدَّخيلِ
ومنـَّاهـُـمْ حيَــاة العِــزِّ زورًا ولمْ يـقـبـل بهـا غيـر الذليـلِ

* * *

(١٩٩٤م)

على الشيشان قف واقرا السلاما

وصف القتال الذي حصل بين الشيشان والملحدين الرَّوس في العاصمة الشيشانية ((غروزني)).

على الشيشان قف واقرا السلامـا
وحيي ربوعها حيـي النشامـى
تلقـت وحـدهــا كـل الأعــادي
وفـــي جنباتهـــا مجـــد تسامـــى
تحصــن فـــي معاقلهـــا رجـــالٌ
أشـــــاوس لا يملـــون الزحامـــا
تغنـــوا فــــي معاقلهـــا عنـــاءً
حـــداء الحـــرب ينفـــون السلامـــا
ســـلام الـــذل لا يرضـــاه شهـــمٌ
وهل يرجى من الأعداء السلاما؟
أمـــا أيقظـــت شيشـــان النيامـــا؟
وقـــد عاركـــت أحداثـــًا جسامـــا
تزاحمت العـدا مـن كـل صـوبٍ
رزمـــن علـــى جوانبهـــا رزامـــا
إذا ألقـــت قذائفهـــا تداعـــت
بنايـــات غـــدت فيهـــا حطامـــا
صواريـــخ وفـــي الأجـــواء تلقـــى
تحيـــل سماءهـــا الزرقـــا قتامـــى
معـــارك حولهـــا دارت رحاهـــا
تشيـــب الطفـــل حقـــًا والغلامـــا
مضـــى ستـــون يومـــًا فـــي عـــراكٍ
فمـــا اسطاعـــوا لمعقلهـــا اقتحامـــا

تترس في جوانبها رجالٌ
أسودٌ لا يخافون الحماما

بأيديهم قذائفُ جاهزاتٌ
لهيب النَّار يضطرمُ اضطراما

كأنَّ الجنَّ فيها قد تلاقوا
أو الأشباحُ جاستها ظلاما

ترى الأرتال فيها مُلقياتٍ
على جنباتٍ أدرُبُها حُطاما

أيا غروزني وقد حدثت مآسٍ
من الأعداء حرَّكتِ الأناما

تعاظمتم على الأعداء حتى
كأنَّ الموت يمتشقُ الحُساما

فيا لله كم ذهبت ضحايا
وأطفال غدو فيها يتامى

ويا حكام ما هذي المخازي؟
وما هذا التحاذل يا غشامى؟

أيقتل إخوة في كُلِّ قطرٍ
ولم تبدوا احتجاجًا أو ملاما

أيا غروزني فلا تبغي نصيرًا
بنو الإسلام ما زالوا نياما

بنو الإسلام يحكمهم طغاةٌ
ومن جبروتهم منعوا الكلاما

تواطأ جمعهم زورًا وظلمًا
مع الكفار قد صاروا خصاما

كـفـاكــــــم أنـكـــــــم لله جـنـــــدٌ
صبرتـم في الوغى جنـدًا عظامـا
فليـس سـوى الإلـهِ اليـوم عـونٌ
نصيـــرٌ قــادرٌ يمحــو الظلامـــا

(٢٠٠٣م)

جشع الشركات الأمريكية

أمـن ظلـم أمريكا نشكـو ونتوجَّع؟
ومجلس الأمن لا يرحم من يجزعُ
لقــد طال هـذا الظلم واشتـد قسـوةً
ولا أرى لهــذا الظلــم يومًا ينزعُ
غـولٌ أحـاط بثـروة العــرب كلـها
يأكــل رطبهـــا واليابـس لا يـشبـعُ
كأنـَّما يأجـوجُ ومأجـوجُ أقبلــتْ
مثـل أسرابِ الجراد بزرعٍ ترتــعُ
أو الأعـور ِالدَّجـال ِجـَاء بجنـــــدِهِ
يَسـقي ويُطعــمُ مـن يطيـعُ ويـَتبـعُ
ألا هـل مـن عـودة للإسلام مبـدًأ؟
يوحـّـِد شمــلَ المُسلميـنَ ويجمـــعُ
يكـونُ الجهــاد فيــه رأسَ سَنامِــهِ
يستـلُّ أحقــاد الأمريكـان وينــزعُ
أليــس لنـــا في أفغانستان عبـرةٌ؟
ترى جيـوشَ أمريكـا فيهـا تـُروَّعُ
فلا تستطيعُ حفظ الأمـن في كابـلٍ
فكيــف إذا تعــدَّد مـــن يُصــارعُ؟
فلو لم يقف حلـفُ الشمال لجنـبهـا
لمَـا نزلـــت أفغانستـــان تقـــارعُ

(٢٠٠٣م)

يا حسرتي على أمتي من أمريكا

تحـدَّرَت شمسُــنا ومالــت للغـــروبِ
وقلـَّت رُؤيتـــي وتعثــرت دُروبـــي
وقـلَّ السَّمـعُ وقـد نــال الشـَّيبُ منـِّي
وكلَّ عزمي فصارت عصاي مركوبي
وغـاب الأحباب عنـِّي وصـرت وحيـدًا
بـل مـات أكثـرُهُم فكثـُرتْ كـرُوبــي
وبــتُّ لا أطيــقُ النـَّومَ طـول ليلـــي
أتسمَّـعُ الأخبــار أخبــار الحـــروبِ
تمنـَّيتُ أن أعيـش أعوامًــا طــوالاً
أرى أحـــداث هـــذا العـصر العجيبِ
أرى تهديـــدات أمريكـــا لأمـَّتـــي
ولضـــرب عراقـنــا البلــد الحبيـــبِ
فـقــد حشـدوا جيوشهــم وسلاحهــم
وأعلنـُـوها حـربًا ضروسـًا للصليـبِ
رجــونا حكوماتنـــا تنمـع نــزلهــم
فخــابَ رجاؤنــا يـا للأمــر المريـــبِ
وقــد فتــحَ العملاءُ لهُــم دروبـــًا
ويــلٌ للعمـــلاء من غضــب الشعوبِ
فـقــد جــاءوا بقضهــم وقضيضهـــم
نزلـُــوا الخليـج وفي الهلال الخصيـبِ
يعــدون الخطـــة لقتـــال أمـَّـتـــي
ألا ويـــحٌ لهـــا مــن يومها العصيـبِ
لـقـــد تخلــَّى عنهــا ولاة أمورهـــا
فريســـــةً لأعدائهـــــا يـا للمعيـبِ

أيــن الجيــوشُ والقـــادةُ مــن أبنائـــها؟
للــــدفاع عنهـــا مـــن العـــدو الغريـــبِ
إلامَ يبقــــون يحرســــون حكامَهـــم؟
وقـــد ارتكبـوا الجريمـة مـن قريــــبِ
أولئــــك حكـّـامُ السـوء طــال حكمهم
حتـّامَ الخلاصُ من كـُلِّ نذلٍ كـذوبِ؟
وهـــذي فلسطيـنُ قـــد أذلـّوا أهلـــها
تـقـاتـــلُ وحدهـــا يا للأمـــر الغريـــبِ
قـتلـُوا شـيوخهـا قـتلــــوا نساءهـــا
اقتلعوا أشجارها في الأرض الخصيبِ
واصطــــادوا محاريبهـــا بطائراتهـم
وأمَّهــاتُ الأطفــال زادت في النَّحيبِ
ولـــم يستـــجب أحـــــدٌ لاستغاثـاتـهـــا
بل منعُوا مـن وصول السلاح المريـبِ
فيا ربِّ هل إلاَّ بــك النَّصر يُرتـَجى؟
تـدمِّـــر جُندهـــم في بسبسٍ جديـــبِ
* * *

(٢٠٠٣م)

حال أمتي في العراق

أرثـي لأمَّــةٍ قـُطـِّعـتْ أوصالـُهـا
وغدت ألعـوبةً في أيـدي حكامها
ألا إنـَّهم شوكةٌ نشـبَت في حلقهـا
هذا وقـد أعـيا الأطبـَّاءَ علاجُهـا
فـيا ويحٌ لهـا قـد طـال انتظارهـا
لقــدُومِ خليفــةٍ يـَحْمـي ذِمَـارَهـا

تناهشتها الذئابُ من كُلِّ جانبٍ
جوعى وتسمعُ من بعيدٍ عِواءَها

هاهي في العراق تقاسي شدةً
تنهالُ عليها صواريخُ أعدائها

تكادُ الجبالُ تنهدُّ من ضرباتهم
وهي ثابتةٌ كالطَّود أمامَها

وشعبُها الأبيُّ يخوضُ معاركًا
وقد حطَّم الكثير من دبَّاباتها

تفرُّ العلوجُ من وجهه تخوُّفًا
تطيرُ قلوبُهم رُعبًا في قتالها

بغدادُ الأبيَّةُ ما انحنت لكافرٍ
لولا خيانةُ البعثِ من حُكَّامها

بئسَ الرجالُ رجالاً على أقوامهم
أنذالٌ إذا خاض الرجالُ غمارها

أروني أيَّ علمانيٍّ كانَ مُخلصًا
لبلاده يذودُ عنها أعداءُها

فهل يُرجى من البعثِ إلاَّ هزيمةٌ
ففي الجُولانِ شاهدٌ على أخبارها

* * *

حال الأمة الإسلامية بعد هدم دولة الخلافة

رسُـــولَ اللهِ يَــا خيــرَ العِبَــادِ
فيَـا مَـــن أنــتَ للثقليــنِ هـــادِ

دَعَـوتَ النَّـاسَ للإسـلامِ طُـرًا
فآمــنَ حَاضــرٌ منهــم وَبَـــادِ

أبَى زُعمَـــاءُ قـومِكَ أنْ يكونـُوا
دُعَـــاةَ الحَـقِّ أهــلاً للرَّشَـادِ

وإنَّـهُمُوا لصحبـكَ قـــد أسَاءُوا
وقـــد آذوهُمُـــو فـــي كـُـلِّ نــادِ

ولمَّـا مَـات عَمُّـكَ زِدتَ سُوءًا
وَضَـاقَ عليـكَ أطرافُ البـِـلادِ

خرَجْـتَ تـُريـدُ نصرًا من أناسٍ
فكــانَ جـوابُـهُمْ شَـوكَ القـتـَـادِ

* * *

ولمَّـــــا أنْ أرَادَ اللهُ عِـــــزًا
أتــَاكَ الــوَحْــيُ أوقــَاتَ الرُّقـَادِ

وأرْكبكَ البُـرَاقَ وَطِـرتَ شوقـًا
إلــى الأقصَــى لهاتيــكَ البـِـلادِ

وَعَـــرَّجَ في السَّماءِ بجُـنحِ ليلٍ
لأمــرٍ جَــاءَ مِــنْ رَبِّ العِـبَــادِ

وَقــدْ فـرَضَ الإلهُ عليـكَ خمْسـًا
مـنَ الصلـوَاتِ تدعـُـو لِلرَّشَـــادِ

وعـُدْتَ وَعَــادَ للإسـلامِ ذكــرٌ
قـَويٌ فـي الحَواضِـرِ وَالبَـوادِي

* * *

طلبْتَ النَّصرَ مِنْ زُعَمَاءِ قومٍ
فمَـا بَرحَــتْ قبائلـُهُـم تـُعَــادِي
وَجَــاءَ وَفـْدُ يَثـْـربَ مِــنْ بَعيـدٍ
قـُلوبُهُـــمُ تـُهَيَّـــؤُ لِلرَّشـَــادِ
وَعَــادُوا مَــرة أخــرى لعَهْـــدٍ
لِنصْــرِ الدِّين فــي كـُـلِّ البـِلادِ
وَلمَّــا أنْ دَعَــوكَ لأرضِ عــزٍ
هَجَــرْت بطـاحَ مَكـةَ وَالبَـوَادِي
وخلفـْـتَ المَنـَــازلَ بَاكِيَــاتٍ
وَجَــاءَ الصَّحْــبُ بَعــدَكَ لِلجهَــادِ
* * *
مَضيتَ مُهاجـرًا فـي جُنحِ ليـلٍ
وَشوقـُـكَ لِلمَدينـَـةِ فــي ازديَـادِ
أقمْــتَ بهَــا لِديــنِ اللهِ صَرْحـًا
هَدَمْــتَ بــهِ صُرُوحـــًا لِلفَسَـادِ
هَدَمْتَ حُصُونَ خيبَرَ في عِـرَاكٍ
وَنـازلـْـتَ القبائِــــلَ بالطـِّــرَادِ
وَمَكـَّةُ يَـا لـَمَكـَّةَ كيفَ دانـَتْ
وَدَانـَـتْ بَعدَهَــا كـُــلُّ البـِــلادِ
وَجَـاءَتْ بَعـدَكَ الخـُلـَفـَاءُ تتـرَى
لِنشرِ هُـدَاكَ فـي وَسَـطِ البَـوَادِي
وظَلَّ الصَّـرحُ صَرْحُـكَ مُستقـرًا
إلــى أنْ جَــاءَ أشـــرَارُ العِبـَادِ
* * *

أتاتــورِكُ اللّعيــنُ وَناصِـــرُوهُ
رُمُـوزُ الكفرِ مِنْ أهْـلِ العِنـادِ

يَهُــودِيٌ تسلـّــقَ فِـــي خفـَـــاءٍ
قيَـــادَة قـُـوَّةٍ رَهْـــنَ الجِـهَـــادِ

تآمَـــرَ مَـــعْ فِئـَــاتٍ كافِـــرَاتٍ
فـَهُـدَّ الصَّـــرحُ واحتـُلـّـتْ بِلادِي

وَبَعْــدَ كِيـــانِ إيمَــانٍ غـَدَونـــا
كِيَانـَــاتٍ شدِيـــدَاتِ السَّـــــوَادِ

تـَـرَأسَ كـُـلَّ وَاحِـــدةٍ عَميـــلٌ
وَبُغضُهُـــمُ لِديـــنِ اللهِ بَـــادِي

بَنـَـوْا غيــرَ الـذي يَرْضَـاهُ رَبِّـي
بَنـَـوْا أحْكامَهُـــمْ ضِـــدَّ الرَّشـَــادِ

* * *

وَهـَذا الحَـــالُ إذ يُنبيـكَ عَنهُـــمْ
خزايـَـا خانِعيــنَ لِكـُـلِّ حَــادِي

وَجَـاءَ شريـفُ مَكـّـةَ فـي غـُـزَاةٍ
حِمَـــارُ سيَاسَـــةٍ يَرعَـــى بِـــوَادِ

وَلـــمْ يَفقـَـــهْ كِتـَـــابَ اللهِ لمَّـــا
نـهَاهـُـمْ عَــنْ مُحَالفـَـةِ الأعَـــادِي

رَصَاصَـةُ غدرِهِمْ قـدْ صَوَّبـُوهَـا
لأمَّـتِنـَــا فحَلـّــتْ فِـــي الفـُـؤادِ

وَصَــارَ الإنجليـــزُ لهـُـمْ حليفـًـا
يُوَجِّهُهُـــمْ لإحْـــدَاثِ الفسَـــادِ

* * *

فكـمْ قتـلـُوا ببيـْـتِ اللهِ جُنـــدًا
مِنَ الإسـلامِ ليـسَ مِـنَ الأعـَـادِي
وَلِلذكرَى أُعِيــدَ صَنيــعُ عـَوْنٍ
ذميــمِ الفِعْـلِ جُـلـِّــلَ بالسَّـــوَادِ
بذبْحِ حَجيـج ِ بيـتِ اللهِ ظـُلمـًا
وَأخـذِ نِسائِهِـــمْ للفُحـْشِ بَـــادِ
وَبلفـُـورُ الحـَليـفُ لهُــمْ تـَصَـدَّى
بوَضعِ النـَّارِ مِـنْ تحْـتِ الرَّمـَـادِ
فأعْطـَى وَعْـدَهُ المَشـؤومَ قـَومـًا
فأشعـَـــلَ ثــَـوْرَةً فِـــي كـُـلِّ وَادِ
وَمَــا احتجُّـوا لبلفـُـورٍ وُعـُـودًا
وقـدْ مَنـَحَ اليَهُـودَ ثـرَى بـِلادِي

* * *

وَهـَذِي خيَانـَــةٌ قـَدْ مَرَّرُوهــَا
وَمَــا زالـُــوا عَبيـــدًا للأعـَــادِي
وَأعْطــاهُـــمْ حَليفـُهُمُـــو بـِـــلادًا
تكــونُ إمـَــارَةً بَيـــنَ البـَــوَادِي
طريــقُ الهنـــدِ يَحفظـُهَــا تمَامـًا
وحِفـْظٌ لِليَهـُودِ مِـنَ العـَـــوَادِي
وَترحيـــبٌ بشعْـــبٍ قـَـدْ يُنـَحَّى
وَتطـرُدُهُ اليَهُــودُ مِـــنَ البِــلادِ
رَسُـــولَ اللهِ قـُمْ وَانظـُـرْ بـِــلادًا
تقحَّمَهـَــا الــرَّدَى فِـي كـُـلِّ وَادِ

* * *

تــرَ الرَّايــاتِ فيهَــا قـدْ أذلَّــتْ
وَلـُطِّخَــتِ البَيَــارقُ بالسَّـــوَادِ
تـرَ القـُـدْسَ الشريفَـةَ قـدْ أهينـَتْ
يَجُــوبُ رُبُوعَهَــا خـَصْـمٌ مُعـَادِ
وَدَالــَتْ دَولــَـةُ الإسـلامِ لمَّـــا
هَجَرنـَا الشـَّرع حـُكمــًا لِلعِبَـادِ
وَأصبَحْنـَا كمِثــلِ غـُثـَاء سَيــلٍ
تمُــرُّ بــِلا حِسَـــابٍ أو عِـــدَادِ
أو الأيتــامِ قـَـدْ فقـَـدُوا أبَاهـُــمْ
وَلا أمٌ تزوِّدُهـُــــــمْ بـِــــزَادِ
نـَهيمُ علـى الوُجُــوهِ بكـُلِّ أرْضٍ
وَنخضَــعُ رَاكِعيـنَ لِكـُـلِّ حـَادِ

* * *

وَجَاءَتْ عُصبَةُ الصهيونِ تسعَى
تـُحَفـِّزُهَــا المَطامِعُ فِـي بــلادِي
تـُنـَــادِي يَا لـَثـَـارَاتٍ قـُدَامَـــى
وَترْناهَـــا وَأرْوَينـَـا الصَّـــوادِي
لِحيفـَا ثـُـمَّ يَافـَــا ثـُـمَّ عكـَّـــا
إلـــى مَسْـرَاكَ يـَا خـَيـرَ العبَـادِ
وَخيبـَرَ وَالمَدِينـَــةِ ثـُــمَّ تـَيْمَـا
وَدَجلـَــةَ وَالفـُــرَاتِ وَكـُـلِّ وَادِ
وَمِصــرَ وَنيلهَــا لا بُـــدَّ مِنهَــا
نـُمَاســي أهلـَـهَا عِنــدَ الرُّقـَــادِ

* * *

فجَالـُوا جَولـَة كانـَـتْ علينـَـا
سَـــوَاءً فالتـَقيْنـَـا وَالأعـَـادِي

وكـَـانَ سلاحُهُــم صُلبـًـا قويـًا
وَنحْــنُ أمَامَهُـمْ صِفـرُ الأيـَادِي

وَلـَمْ يُرسِلْ لنـَـا أحَـــدٌ سِلاحـًا
شرَيناهـَـــا بأمتِعَــــــةٍ وَزَادِ

وَلا سُلطـَـانَ يَنصُرُنـَا عَليهِـمْ
وَكـُــلٌ حَولـنـَـا بالشـَــرِّ بـَــادِ

مِـنَ الأردُنِّ قـَـدْ لبَّـــى فِئـَـاتٌ
كثيـرَاتٌ وَمِــنْ وَسَـطِ البَـوَادِي

وَسُوريـَّا أتـَى مِنهـَـا جُمُـــوعٌ
وكـُـــلٌ يَبتغِـي دَحْــرَ الأعـَادِي

* * *

حَصَرْناهُــمْ وَضيَّقـْنـَا عَليهِـمْ
وَكـَــادَ الكـُـلُّ يَحظـَـى بالمُــرَادِ

وَلمَّــــا أنْ تفوَّقـنـَـــا عَليهِــــمْ
أتـَى نـُصـراؤُهُم مِــن كـُـلِّ نـَادِ

يَهـُودُ العُـــرْبِ أرْسَلـَهُم بُغـَــاةٌ
مِنَ الحُكام صَارُوا فِـــي ازدِيـَـادِ

وَقـَـدْ جـَـاءُوا بأسلِحَـــةٍ جِـــدَادٍ
وَأعْــدَادٍ خـَلِيــطٍ مِــنْ بِـــلادِي

فكـَـرُّوا كـَـرَّةً شـَـدُّوا عَلينــا
تقهقـَرنـَـا نـَهيــمُ بِكـُـــلِّ وَادِ

* * *

تــرَى أبناءَنــَا فيهـَــا حَيـَــارَى
سُكـَارَى مِــنْ لظـَاهـَـا وَالرَّمـَـادِ

جُيُوشُ العُرْبِ قدْ جَـاءَتْ تِبَاعـًا
إلى طـرْدِ العِـدَا نـَادَى المُنـَادِي

ظنناهـَــا لِنـُصرَتِنـَـا تدَاعـَـــتْ
فأخطأنـَــا ظنونـــًا فِـي المُـرَادِ

وَلـَمْ تلبـَـثْ أن ِانسَحَبـَـتْ جَميعـًا
وَعـَـــادَتْ بالخِيانـَــةِ وَالسَّـــوَادِ

فلسطيـــنُ العَزيـــزةُ سَلـَّمُوهــَا
لإســـرَائيــلَ أوبـَاش ِ العِبـَـــادِ

مَذابـِـحُ أمـَّتِــي قـدْ دَبـَّـــرُوهـَـا
وَقـَـدْ ذبحـَــتْ بأسلِحَـــةٍ حِـــدَادِ

* * *

تكشفـــتِ السِّياسـَــة قـَـدْ تبـَـدَتْ
لـِذي عَقـــل ٍ ذكـــيٍّ ذي فـُـؤادِ

قِتـَـالٌ مُستمــرٌ ثـُـــمَّ حـَــرْبٌ
مَـدَى خمسيــنَ عَامـًا فِـي جهـَادِ

حَسبنـَــاهَا قِتـَـــالاً مُـستديمــــًا
لتحريــر ِ البـِـلادِ مِــنَ الأعَــادِي

إذِ الحُكـَّـامُ يَصطنعُــونَ حَرْبــًا
مُزيـَّفـَــةً لِترويـــض ِ العِبـَــادِ

وَبَعـدَ الصُّلـْح ِ تطبيـعٌ لِزامـًا
وَمُوسَـــادٌ تـَجَــوَّلُ فـي النـَّــوَادِي

* * *

وَهَـذا الصُّـلْـحُ والتطبيـعُ حَتمًا
يُــذلُّ الشعْــبَ يَرضَـخُ للمُـسَــادِ

أنأمَــنُ هَــؤلاءِ علــى حِمَانــا
وكيــفَ نعيــشُ مَعَهُـمْ فِـي ودَادِ

عقيدتـُنَــا تـُنافــي مَــا ارتضَــوهُ
فهَذا الكُفرُ أبغضُ مَـنْ نـُعَادِي

فـقدْ شنـُّـوا علـى الإسلامِ حَرْبـًا
وَحِقـدُ قـُلوبـِهـمْ لـَـونُ السَّـــوَادِ

فـفي الصُّومَالِ قـدْ حَدثـتْ مَـآسٍ
يَمُوتُ الشعْبُ جُوعًا في البَـوادِي

وَفِــي بُرْمَـا تـَقَاصَــرَتِ المَنايـَا
ألـُــوفٌ يُطــرَدُونَ مِــنَ البـِــلادِ

* * *

وفِــي كشميــرَ قـدْ طـُـلـَّتْ دِمَـاءٌ
وَهُدِّمَــتِ المَسَاجِــدُ بالأيَــادِي

وفي بَيروتَ قـدْ ذهَبَـتْ ضَحَايـَا
وَشَاتِـلا وَصَبْــرا فِــي جِهَــادِ

مَوَارنَـــةُ الكتائِــبِ مَا تـَوانـَوا
وَمِـــنْ غـَيـظٍ يَعُضُّـونَ الأيـَادِي

فصَبُّــوا حِقدَهُـمْ فِـي كـُـلِّ بَيـتٍ
فمَـــا لِلعَهْـــدِ فيهِـــمْ مِـــن ودَادِ

وَفِي حَـرْبِ الخليجِ أتـتْ عُلـُوجٌ
رُمُــوزُ الكافريــنَ مِــنَ الأعَـادِي

* * *

ألـُـوفُ الجُـنـدِ مِنـَّا قـدْ أبيـدَتْ
على أرض ِالكويتِ وَفـي الحَمَادِي
وَفِـي الهرْسيـكِ قـَتـلٌ ثـمَّ حَـرقٌ
بأيدي الصِّربِ أقسَى مَن نـُعَادِي
فكمْ أنثـَــى بكارَتـُهَـــا أزيلـَــتْ
تـَصيـــحُ لِربِّهَــا حَـقـًا تنُـَادِي
تـُوَلولُ مِـنْ عظيـم ِالخطـْبِ تدعُـو
جُيُوشـــًا لِلكريهَـــةِ وَالطـِّــرَادِ
وَأخرَى رَدَّدتْ صَوتـًا حَزينـــًا
وَوَاعِـرضَــاهُ يَـا رَبَّ العِـبَـــادِ
أصَوتٌ فـي جَبيـن ِ الدَّهـر ِ يَبقى
لـنـَـا عَــارًا وَلا يَفديـــهِ فـَـادِي

* * *

فأيـــنَ فـَوارسُ الإسلام ِ وَلـَّوا
أأيقـَاظ ٌ هُمُــــو أم فِـــي رُقـَــادِ
سرايــــفُ الأبيـَّــةُ مَـا دَعتهُــم
لنـَوم ِ الليـل ِ مَعْ طـُول ِ السُّهَـادِ
سَرايــــفُ الأبيـَّــةُ قـَـدْ دَعتهُـمْ
لتحريـكِ الجُيُـوش ِ إلـى الجِهَادِ
وَفِـي كـُوسُوفـَا أحْـدَاثٌ جِسَامٌ
تئِـــنُّ لِـهَولِهَـــا صُـــمُّ الجَمَـــادِ
ألـُوفٌ يُحْرَقـُـونَ بكـُـلِّ حِقـْـدٍ
وَأجسَــادٌ تطيـــرُ مَــعَ الرَّمَــادِ

* * *

وَأعـْـرَاضٌ فتـُنتهَـــكُ انتقامـــًا
فـَلا غـَـوثٌ لِمَــنْ تبكـِـي تـُنـَادي

وَحِلـفُ النــَّـاتُ يَدْخـُلـُهـا لأمْــرٍ
ليبقـَـى الحِقـدُ دَومــًا فـي ازدِيـَادِ

وَفِــي الشيشـــان دُودَاييـفُ فيهـَا
عظيـــمُ الشــَّـــأنِ رَمْـــزٌ لِلجهـَادِ

فحَرَّرَهــَـــا بهمــَّتـِــهِ وَلبــَّـــى
نِــــدَاءَ اللهِ أهـــْــلاً للرَّشـَــــادِ

عليـــهِ سَــلامُ رَبـِّــي كـُـلَّ يـَـومٍ
فرَحْمَـةُ رَبِّ دَومــًا فِـي ازدِيـَادِ

* * *

تنـَادَى الـرُّوسُ حِقـدًا بَعـدَ حِيـنٍ
إلـى الشيشانِ نـُخضِعُ مَن يُعَـادي

ألوفُ الجُنـدِ قـدْ زحَفـَتْ تِبَاعـًا
بدَبَّاباتِـهـــمْ طـَــوعَ المُنــَـــادِي

صَوَاريخٌ علـى الشيشانِ تـُلقـَى
تـُصيـِّـرُ أرضُهُــمْ مِثـلَ الرَّمـَــادِ

فدَمَّـــرَتِ الـبـِـلادَ وَمـَــا عَـليهـَا
وهجَّــرَ أهلـَهـا صـوتُ المُعـادي

ولم يخضـع مـن الشيشـــان شهـم
جنــود الحـــق أهـــلٌ للجهـــادِ

كـــأن جنـود بـــدر قـد تداعـوا
لِقتـلِ الـرُّوسِ أشــرَارِ العِبَـادِ

* * *

عَلى الأفغانِ قِفْ وَانظُرْ مَلِيًّا
تَـرَى شعْبـًا يُشَـرَّدُ فـي البِـلادِ
تَـرَى طَيَرَانَ أمريكـا يُـدَوِّي
وَيقصِـفُ كُـلَّ أهـدافٍ تـُعَـادِي
ترَى الكفـارَ قَـدْ زَحفـوا جميعـًا
لأخْـذِ الثـأرِ مِـنْ زُمَرِ الجهَـادِ
ترَى الضُّعفاءَ فِي وَضـعٍ بَئِيسٍ
وَمِنْ جَوْرِ العِـدَا تـَبكِي تـُنَـادِي
ترَى الأطفالَ فِي بُـؤسٍ شدِيـدٍ
يَجُوبـُونَ القِفـَارَ بِغَـيـرِ زَادِ
عَسَـى رَبِّـي يُـفـَرِّجُهَـا قريبـًا
وَيـَنـصُـرُ كـُلَّ دَاعٍ لِلجهَـادِ

* * *

يَهُـودُ الشَّـرِّ عَـادُوا مِنْ جديـدٍ
إلـى الأقْصَـى لإحْـدَاثِ الفسَـادِ
تصَـدَّى المُسلمُونَ لهُمْ سِرَاعـًا
سِلاحُهُـمُ الأكـُفُّ مَـعَ الأيـَادِي
سِلاحُهُـمُ الحِجـَارَةُ والهَـرَاوَى
وَهُمْ مِنْ غيرِهَا صِفـْرُ الأيـَادِي
وَحُكـَّامٌ لـَنـَا فيهـمْ فعَـزِّي
مُرُوءَتـَهُـمْ وَكـُرهَهُـمُ الجهَـادِ
فـَلا عِـزٌّ وَلا إسْـلامَ فيهـمْ
وَلا غَـوْثٌ إذا نـَادَى المُنـَادِي

* * *

بِرَبِّــكَ أيُّهَـــا الغَـافِــي تَـيَـقَّـظْ
فهَـلْ بَعــدَ الفظائِـعِ مِـنْ رُقـَادِ
ألَـمْ تـُوقِظـْـكَ هَجَمَـاتُ افـتِـرَاءٍ
عَلَـى الإسْلامِ مِـنْ أهْـلِ الفَسَـادِ
فهَـــذا الكُفــرُ أبــدَى نَـاجِذيْــهِ
وَليـــسَ أمَامَنـَــا غـَيــرُ الجِهَـــادِ
وَحُكـَّـامٌ لـنـَـا رَفـَعُـوا شِعَـــارًا
بفصلِ الدينِ عنْ حُكـمِ العِبادِ
فـَــوَاحِدُهُــــمْ غـَــدَا للهِ نِــــدًّا
يَقـُـولُ أنــَا المُشــرِّعُ لِلرَّشَـــادِ
حَرَامُ الخمْرِ قـدْ أضحَى حَـلالاً
ربَــا فضْــلٍ عِمَــادَ الاقتِصَــادِ

* * *

وَصَارَتْ دَعْـوَةُ الإسلامِ جرمـًا
يُحَـــارَبُ أهلـُهَـا فِــي كـُـلِّ نـَادِ
أصُولِيِّيـــنَ سَمَّوْهُــــمْ عِـــدَاءً
وَوَصْـــمٌ بالتطَــرُّفِ وَالفَسَــادِ
جُيُـوشٌ جُـــرِّدَتْ أبَدًا عَليهِــمْ
تـُحَاربُهُـمْ تـُقَاتِلـُهُـمْ تـُعَـــادِي
تـَشُــنُّ هُجُومَهَـا فِــي كـُـلِّ يَـومٍ
عَلى أهْـلِ التـُّقـى أهْـلِ الرَّشَادِ
فـَتـَقـتـُلـُهُـم وَتـأسِــرُ مَـنْ أرَادَتْ
وَتحبِـــسُ كـُــلَّ دَاعٍ لِلجِهَـــادِ

* * *

وَلا ذنْـــبٌ لـَهُــمْ إلاَّ دُعـَــاةٌ
إلـى الإسْـلامِ حُكمـاً لِلعِبَـادِ

وَأنظِمـَـةِ اقتصـــادٍ وَاجْتِمـَـاعٍ
وَسَـيْـرِ خليفـَةٍ سُبُــلَ السَّـدَادِ

ألا قـُمْ يـَا أخـِي وَانظـُرْ مَليـًّـا
فهَلْ أحَـدٌ مِــنَ الحُكـَّام هَــادِ

فقـَدْ ضـَلـُّوا السَّبيـلَ تـَنـَكـَّبُوهُ
وَمَـا سَلكـُوا طريقـًا لِلرَّشَــادِ

فرَغْبتـُهُــمْ نِسَــاءٌ ثـُـمَّ مَـــالٌ
وَدَيدَنـُهُـم مُــوَالاةُ الأعـَــادِي

وَتـَرْحيبٌ بأفكـَارِ النـَّصَـارَى
وَحِفـْظٌ لِليَهُـودِ مِـنَ العَـوَادِي

* * *

وأصْحَــابُ العَمَائِـمِ أيَّدُوهُــمْ
عَلـى غـَـيٍّ بتشجيـعِ الفَسَــادِ

وَيُفتـُونَ الحـَـرَامَ لـَهُـمُ حَـلالاً
وَيَأبَــى اللهُ إضْـــلالَ العِبَـــادِ

رَسُــولَ اللهِ إنَّ القـَومَ ضـَلـُّوا
وَلـَمْ تـزلِ السَّـفاهَـةُ فِـي ازدِيَـادِ

إلامَ البَغْـيُ يَبقـَى فِـي حِمَانـَا
وَيَبقـَى الجَهْـلُ يَهْـزِمُ لِلرَّشَـادِ

لـَعَمري فِـي شَبَـابِ اليَوم عَـزمٌ
يُحَرِّكـُهُــمْ إذا نـَـادَى المُنـَــادِي

* * *

إِلـى التغييـرِ هُبُّـوا وَاستجيبُـوا
فهَـذا الكُفـرُ يُمعِـنُ فِـي الفَسَـادِ

شَبَـابَ مُحَـمَّــدٍ نَــادُوا عَليَّـــاً
يُجيــبُ نِدَاءَكُــمْ خلـْفَ الوهَـادِ

وَمُعتَصِـمٌ إلــى عَمُّـورَ يَسعَـى
ألا لبيـــكِ يَـــا بِنـْتَ الجِيَــادِ

صَلاحَ الدِّيـنِ قُـمْ وَانظُـر مَليَّـًا
تجدْ حِطـِّيـنَ فِي أيـدِي الأعـَادِي

صَليبيُّـونَ وَانتَصَـرُوا عَلينَـا
وَهَـذي القُـدْسُ فِي أسْرٍ تُنَـادِي

تقـُولُ أليــسَ مِــنْ عَـوْدٍ إلينَـا
فبئـْسَ اليَــومَ حُكـَّـامُ البِـــلادِ

* * *

صَلاحَ الدِّيـنِ عُربُكَ قدْ أسَاءُوا
بأخـذِهِـمُ المَعُـونَـةَ مِـنْ مُعَــادِي

وَلِلغَـــرْبِ استجَابُــوا طاوَعُــوهُ
فبئـْــسَ القَـــومُ أهْـــلٌ لِلفَسَــادِ

إلــى دَكــَّارَ قَــدْ وَفَـدُوا جَميعـًا
لِيُلغِــي جَمْعُهُـمْ فَرْضَ الجهَــادِ

فَهُبِّـي أمَّـــةُ الإسْلامِ وَارْمِـــي
بـِرَهْـــطٍ شأنـُهُـمْ بَيْـعُ البِـــلادِ

وَدُوسِـي بالنـِّعَالِ عَلى لِحَاهُـمْ
فقـَـدْ أوْهَــتْ سِيَاسَتـُهُـمْ بِـلادِي

* * *

يُــوَالـُونَ العِـدَا فِـي كـُلِّ أمْــرٍ
فبَعْـضٌ رَائِـــحٌ مِنهُـــمْ وَغـَـــادِ

فهَـلا عَـــوْدَةٌ لِلديـــن صِدْقـــًا
لِيَنْصُرَكـُم إلهـي ع َ الأعَـــادِي

وَجُـــودُوا بالنـّفـُوسِ إذا دَعَاكـُمْ
فشُـحُّ النـّفسِ إحْبَـاطُ الجهَـادِ

بغَيـرِ اللهِ لا تـَرْجُـونَ نـَصْـــرًا
وَلـَو كـُنتـُـمْ كأعْـــدَادِ الجَــرَادِ

وَمَنْ يَكـُنِ الإلـَــهُ لـَهُ نـَصيـرًا
فـَلا يَعْبَـأ بكثـْرَةِ مَـــنْ يُعَـادِي

*   *   *

الخاتمة

بقلم: نجاح يوسف السباتين ((**أم معاذ**)).

كتب والدي مذكراته بعد إلحاح شديد ممن حوله، حتى يستفيد حملة الدعوة من تجاربه في الصبر على مشاق حمل الدعوة لاستئناف الحياة الاسلامية، ولنرى أمامنا قدوة عملية، ومثالاً حيًّا يقتدى به.

ولدى اطلاعي على المذكرات، لم أقرأ فيها ما كان يخبرني به عن الأعمال الكثيرة التي كان يقوم بها، فسألته عن سبب عدم ذكرها في المذكرات فقال: لقد أعرضت صفحاً عن ذلك.

ولهذا جاءت مذكراته رحمه الله مختصرة، وقد كتبت تعليقات على بعض الاحداث التي شهدتها ولا زالت محفورة في الذاكرة.

سلـَّمني والدي المذكرات لطباعتها قبل وفاته بشهرين، وقد وصل في آخرها الى كتابة عنوان لم يكمله: شرائي مزرعة صغيرة من جديد.

وقد اشترى هذه المزرعة في زيزياء قبل أشهر قليلة من وفاته، وهي مزرعة مساحتها خمس دونمات، ومخدومة بشبكة تنقيط ، فلا تحتاج إلى عناء كبير في خدمتها، ليأوي إليها كلـَّما أحسَّ أنـَّه في حاجة إلى الهدوء، وليوفـِّر لنفسه مكاناً مُريحًا للكتابة.

ولكن لم يبق في العُمُر بقيَّة، إذ أصيب بارتفاعٍ في درجة الحرارة، وألمٍ في بطنه، نقل على إثر ذلك إلى مستشفى البشير، فأجروا له عملية تنظير في المعدة، فوجدوا فيها وفي الاثني عشر تقرحات شديدة.

وقد تضاربت أقوال الأطباء في سبب ذلك فمنهم من عزاه إلى التَّسمم، ومنهم من عزاه إلى جرثومة أميبا قديمة، تحرَّكت فجأةً، ثم ذهَبَ في غيبوبةٍ لبضعة أيام، ثمَّ تـُوفِيَ رحمَهُ اللهُ رحمَةً واسعةً، ونوَّرَ له قبرَهُ، وأسكنه فسيح جناته.. اللهُمَّ آمين.

وكانت وفاته في ٢٠٠٥/٧/١٣م. وقد ترك خلفه ثروةً علميةً من الكتب، والخطب التي كان يُوزِّعُها على خطباء المَسَاجد والمواعظ الصغيرة والشعر، أمَّا الكتب فقد طبعت ونشرت، وأمَّا الخطبُ والمواعظ والشِّعر، فلا زالت مخطوطةً لم تُطبع ولم تُنشر.

الكتب التي طبعت هي:

١- طريق العزة.
٢- العقيدة الاسلامية وأثرها في حياة المسلمين.
٣- البيوع القديمة والمعاصرة.
٤- حصاد ثمانين عاما من الكفاح.
٥- الاستراتيجية الأمريكية.
٦- الشباب عدة التغيير.
٧- تبصرة.
٨- الصلح المهين.

نعي الشباب للأستاذ يوسف السباتين

أتاح موقع العقاب للأعضاء نعي الأستاذ يوسف السباتين رحمه الله وممَّا ورد في الموقع :

١- أبا العز: عِشت عزيزاً، ومِتَّ عزيزاً ... وبيَّنتَ للأمَّةِ طريقَ العزة. أعزك الله، وغفر لك، وتغمَّدك برحمته، وأسكنك فسيح جنَّاته، ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾. ((أبو مشاري)).

٢- ﴿وبشِّر الصَّابرين الذينَ إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون اؤلئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. تغمدَّه الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته. ((أبو مشاري)).

٣- تغمد الله أبا العز بغامر رحمته، وأحسن قبوله، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، برفقة رسول الله ﷺ على الحوض مع سابقية الشيخ تقي الدين النبهاني، والشيخ عبد القديم زلوم، سائلين الله تعالى للمرحوم باذن الله حُسن القبول، وأن يُمكِّنَ الله تعالى للامَّة في الأرض ويهَبهَا خلافةً راشدةً على منهاج النبُّوة إنَّهُ سميعٌ قريب. ((خالد)).

٤- ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾ اللهُمَّ ارحم أموات المسلمين يا أرحم الرَّاحمين. ((خالد)).

٥- اللهُمَّ ارحمه، اللهُمَّ اغفر وأدخله الجنة مع النبيين والصِّديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾ ((أبو همام)).

٦- نسأل الله أن يتغمده برحمته، وأن يرفعَ لهُ منزلتهُ في الفردوس الأعلى وأن يتقبَّلهُ في الصالحين. ((سيف الحق)).

٧- اللهُمَّ ارحم أموات المسلمين واغفر لهم يا أرحم الرَّاحمين. ((أبو عبادة)).

٨- ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾. رحم الله الأستاذ الكبير، والمجاهد في حمل دعوة الإسلام يوسف أحمد السباتين «أبو العز» وأدخله فسيح جنَّاته. اللهُمَّ أدخله الجنَّة مع الشهداء والصِّديقين، اللهُمَّ أبدله أهلاً خيراً من أهله، وجيراناً خيراً من جيرانه، وداراً خيرًا من داره، اللهُمَّ ارحمه واستره تحتَ الأرض ويَومَ العرض، اللهُمَّ ارحم أموات المُسلمين أجمعين واغفر لهم يا أرحم الرَّاحمين. «سيف الخلافة».

٩- نسأل الله أن يتغمده برحمته وأن يرفع له منزلته في الفردوس الأعلى وأن يتقبله في الصالحين. اللهُمَّ ارحم أموات المسلمين أجمعين واغفر لهم يا أرحم الراحمين.

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والانام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صَحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوقَ التُّراب تُرابُ

«أمَةُ الله».

١٠- رحمك الله تعالى برحمته الواسعة يا أبا العز وأكرم مُدخلك، يا ربِّ هذا ضيفك فأكرمْهُ وأنت الكريم ، يا ربِّ هذا عبدك فارفعه وأنت العليُّ الكبير، يا ربِّ هذا من نشهد له بالجنَّة، ونحنُ شهودُك على الأرض ، يا ربِّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ، وعلى آله وصبحه وسلم. ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾. «جويرية».

١١- رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جناته. «بدر الرافدين».

من المقدمة

لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن أكتب لنفسي مذكرات تنبئ بما لاقيته في حياتي غير أني لمَّا كنت أقصُّ بعض الحوادث التي جرت معي لأصحابي لأقوي عندهم العقيدة، أو لأقنعهم أنَّ الرزق بيد الله ﴿إنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي أنَّ الله تعالى يُكثِرُ الرِّزق لمن يشاء ويُقلله لمن يشاء، فليس الرِّزق بكثرة الجهد، ولا بكثرة العلم، أو أنَّ انتهاء الأجل هو سبب الموت ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، أو أنَّ ما كتب للإنسان لا بُدَّ لاقيه، وذلك للحديث الذي رواه أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «من لم يؤمن بأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه دخل النار».

ألحَّ عليَّ أصحابي أن أكتب بعض ما لاقيتُه في حياتي من عناء ورخاء آملين أن يستفيدوا من تجاربي، لعلَّ ما لاقيتهُ من أحداث يكون فيها عبرة لهم أولغيرهم باعتباري الشخصي من جهة، وباعتباري حامل دعوة من جهة أخرى، فحياتي التي عشتها قسمان:

- قسم أمضيته خلال ستٍّ وعشرين سنة رجلا عادياً، لا يعرف أحدٌ عن حياتي تلك إلا بعضُ أهلي ومن كنت أخالطهم من أقراني.
- وقسم كنت أحمل فيه الدَّعوة لاستئناف الحياة الإسلاميَّة بعودة دولة الخلافة وتطبيق الإسلام في حياة الأفراد والمجتمع والدولة.

يوسف أحمد السباتين



